

الواحات المفقودة



المشروع القومي للترجمة

تأليف :

أحمد محمد حسين بك

ترجمة :

أمير نبيه و عبد الرحمن حجازي

مراجعة :

طلعت الشايب

880

المشروع القومي للترجمة

الواحات المفقودة

تأليف

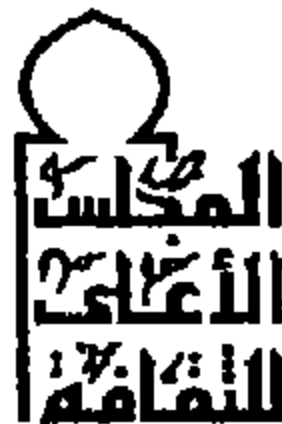
أحمد محمد حسنين بك

ترجمة

أمير نبيه و عبدالرحمن حجازي

مراجعة

طلعت الشايب



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٨٠
- الواحات المفقودة
- أحمد محمد حسن بك
- أمير نبيه
- عبد الرحمن حجازى
- طلعت الشايب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.

هذه ترجمة كتاب:

THE LOST OASES
A. M. HASSANEIN BEY
THORNTON BUTTERWORTH LIMITED
FIRST PUBLISHED, 1925

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

9.....	مقدمة المترجمين:
15.....	شكر وتقدير:
19.....	الصحراء:
27.....	الفصل الأول: التخطيط للرحلة.
31.....	الفصل الثاني: مباركة الأمتعة.
35.....	الفصل الثالث: المؤن والتجهيزات.
47.....	الفصل الرابع: الخطط والنذر.
57.....	الفصل الخامس: السنوسية.
73.....	الفصل السادس: سلام جغبوب.
83.....	الفصل السابع: الغذاء والدواء.
91.....	الفصل الثامن: الطريق إلى جالو والعواصف الرملية.
103.....	الفصل التاسع: في واحة جالو.
123.....	الفصل العاشر: الرحلة.
143.....	الفصل الحادي عشر: الطريق إلى بئر زيغن.
167.....	الفصل الثاني عشر: الصحراء المتغيرة وتصويب الخرائط.
181.....	الفصل الثالث عشر: الكفرة.. الأصدقاء القدامى وتغيير الخطة.
195.....	الفصل الرابع عشر: الكفرة وموضعها على الخريطة.
211.....	الفصل الخامس عشر: واحة أركينو المفقودة.
227.....	الفصل السادس عشر: واحة العوينات المفقودة.

243.....	الفصل السابع عشر: السير ليلاً إلى إردى
263.....	الفصل الثامن عشر: الدخول إلى السودان
281.....	الفصل التاسع عشر: إلى فوراويا مع نقص المؤن
297.....	الفصل العشرون: نهاية الرحلة

إهداء إلى:

الأستاذة الدكتورة شهرت العالم

السيدة الأستاذة حياة على

عرفانا وتقديرًا..

المترجمان

مقدمة المترجمين

عندما كنا صغارًا كان الأطفال يحدثوننا عن "صندوق القصص"، وهو صندوق تخرج منه وتختفى فيه كل القصص الغريبة والطريفة، ولا ندرى لماذا تذكرنا ذلك الصندوق العجيب عندما قرأنا - للمرة الأولى؛ هذا الكتاب؛ فقد اكتشفنا أننا أمام عالم من القصص الغريبة، أو قل إنه زخم منها، ورغم أن المؤلف لم يروِ سوى الحقيقة - بكل ما فيها من طرافة وجمال في بعض الأحيان، وقسوة وآلام في أحيان أخرى؛

فقد جعلنا نتساءل: ما كل هذا؟! فالصحراء - كما نعرفها - هي تلك المساحة القفر التي لا تحوى سوى الفراغ، أو الأطلال، أو السراب، بينما جعلنا أحمد محمد حسنين بك نشعر أننا أمام اكتشاف جديد! فقد صحبنا إلى عالم لم نألف مفرداته، وفتح لنا أبوابًا لم نحسب أن لها وجودًا.

وعندما بحثنا عن هذا الرجل، جاءت الإجابة لتعيدنا من جديد لذكرى صندوق الطفولة؛ فحياته قصة غريبة بحق، بل هي عشرات القصص، حتى إننا وجدنا أنفسنا بعد فترة ندعوه فيما بيننا "رجل القصص" أو "سيد المتناقضات"؛ فهو ابن أحد شيوخ الأزهر، لكنه درس وتخرج في أوكسفورد، في زمن لم يكن فيه هذا الأمر مألوفًا على الإطلاق. عمل في وزارة الحربية والداخلية والخارجية، وتدرج في مناصب القصر الملكي ليصبح في سنوات قليلة الأمين الثاني للملك فؤاد، ورائد الأمير فاروق ولي العهد وأمير الصعيد، ثم أمينه

الرجل الذى يُغَيَّرُ الوزارات ويُسْقَطُها رغم أنه كان حريصًا على أن يبدو فى صورة الزاهد المترفع عن أمور الساسة والسياسة. عُدَّ بحكم مولده من عامة الشعب، لكنه تزوج من السيدة لطيفة يسرى ابنة الأميرة شويكار مطلقاً الملك فؤاد وحفيدة محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية، وطلقها رغم أنه كان يحبها، ورغم أنه كان مقدراً لها أن تترك الملايين بعد وفاة والدتها، ليتزوج - عُرْفِيًّا - من والدته الملك فاروق - الملكة نازلى - بناء على رغبتها، وبناء على طلب الملك فاروق نفسه، علّه يستطيع أن يكبح جماح نزواتها التى كانت تسمى للأسرة المالكة. حاول فى يوم من الأيام أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوروبا إلى مصر، وسقطت به الطائرة مرتين فى فرنسا وإيطاليا، ونجا من الموت فيهما بأعجوبة، وأصلح عطب الطائرة وقرر استئناف رحلته، لولا أن الملك فؤاد أرسل إليه برقية يأمره فيها بالعدول عن الطيران والعودة إلى مصر على أول باخرة. كان بطل مصر فى لعبة "سلاح الشيش"، والمصرى الوحيد الذى اشترك فى الدورة الأولمبية الخامسة التى أقيمت فى أستوكهولم عام ١٩١٢، ورئيس النادى الأهلى المصرى. كان كل هذا وأكثر، لكن الأوراق لا تتسع للحديث عن هذا الرجل، إلا أنه من بين كل قصصه التى شارك فى صنعها أو حُكِيت عنه لا نستطيع إغفال قصة بعينها لعلها هى السبب الرئيسى فى هذه الرحلة وهذا الكتاب. ففي عام ١٩٢١ قرر أحمد محمد حسنين بك التوجه فى رحلة إلى واحدة "الكفرة" التى تقع فى قلب الصحراء الليبية، وكان صاحب الفكرة ومنظم الرحلة وقائدها، وفى أثناء إعداده لها طلبت منه السيدة "روزيتا فوربس" الإنجليزية أن تذهب معه، ونظرًا لأنها

كانت تحمل خطاب توصية من صديق عزيز عليه وافق على أن ترافقه في هذه الرحلة؛ فتستر عليها وزعم أنها زوجته وأنها مسلمة، وألبسها ثياباً عربية، وأسدل على وجهها حجاباً كثيفاً، وإلا لما سمح البدو لهذه الأجنبية بالتوغل في عالمهم، وعاش أحمد حسنين مع "روزيتا فوربس" أسابيع عديدة، تجمعهما خيمة واحدة، لكنه لم يحاول الاقتراب منها، أما هي فقد حاولت، لكنه أبى وترفع، وعندما سئل هل قد قميصك من دبر، أجاب ضاحكاً بأن المسألة لم تصل إلى هذا الحد، وعندما تعجب السائل من هذا الرد وقال له "ولكن كيف هذا؟ فقد كنت في عنفوان شبابك وروزيتا امرأة جميلة، وكنتما في الصحراء أسابيع عديدة تجمعكما خيمة واحدة كثيراً من الليالي، والبدو الذين يرافقونك يعتقدون أنها زوجتك وما أنت بولى أو قديس"، فضحك قائلاً لأن الأزهر انتصر هذه المرة على أوكسفورد؛ أى أن نشأته وجذوره غلبت على ثقافة صباه وموطن علمه، وعندما عادت روزيتا إلى إنجلترا وضعت كتابين هما "سر صحراء الكفرة"، و"الطريق إلى الكفرة عبر الصحراء الليبية"، نسبت فيهما فضل هذه الرحلة لنفسها، وادّعت أن أحمد حسنين كان أجبرها ومترجمها فقط، وأخذت برأيها صحف عديدة في أوروبا وأمريكا، وألح بعض الإنجليز - من أصدقاء أحمد حسنين الذين كانوا يعرفون حقائق الرحلة، وأنه صاحب الدور الرئيسى والفضل الأول والأخير فيها - على أن يرد على هذه الادعاءات ويفند مزاعم روزيتا، لكنه رفض. فقد شعر وقتها أنه إن تكلم فكأنما يتسول حقه، وهو من تأبى كرامته مثل هذا السلوك، كما رفض أن يجتر أحزانه ويمكث بجوارها ينعى حظه؛ فهو المقاتل بالغريزة، وقام في العام التالى - بمفرده - برحلة ثانية، ولكن

بالغريزة، وقام فى العام التالى - بمفرده - برحلة ثانية، ولكن هذه المرة قرر أن يعبر مناطق لم يألف البدو أنفسهم عبورها، ونجح فى رصد الكثير من الظواهر الطبيعية والبشرية، وكان لهذا الاكتشاف دوى كبير فى مصر وجميع أنحاء العالم، حتى إنه قد نظمت حفلة على شرفه فى دار الأوبرا الملكية، حضرها الملك فؤاد الأول، وألقى فيها أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة مدح فيها أحمد محمد حسنين بك كان مطلعها:

أَقْدِمُ، فَلْيَسَّ عَلَى الْإِقْدَامِ مُمْتَنِعٌ وَاصْنَعْ بِهِ الْمَجْدَ فَهُوَ الْبَارِعُ الصَّنْعُ
لِلنَّاسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ عَجَائِبِهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَأَمْرِئٍ فِي خَاطِرٍ يَقَعُ

وأفاض شوقى بك فى وصف هذا الإنجاز الذى تحقق خاصة فى قوله:

أَكْبَرْتُ مِنْ (حَسَنِينَ) هِمَّةً طَمَحَتْ	تَرَوْمُ مَا لَا يَرَوْمُ الْفَتِيَّةُ الْقَنَعُ
وَمَا الْبُطُولَةُ إِلَّا النَّفْسُ تَدْفَعُهَا	فِيمَا يُبْلَغُهَا حَمْدًا فَتَنْدَفِعُ
وَلَا يُبَالِي لَهَا أَهْلٌ إِذَا وَصَلُوا	طَاحُوا عَلَى جَنَابَاتِ الْحَمْدِ أَمْ رَجَعُوا
رَحَالَةَ الشَّرْقِ، إِنَّ الْبَيْدَ قَدْ عَلِمَتْ	بِأَنَسِكَ اللَّيْثُ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ الْفَزَعُ
مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الدَّوِّ السَّحِيقِ، وَمِنْ	قَقَرٍ يَضِيقُ عَلَى السَّارَى، وَ يَتُّسَعُ؟
وَهَلْ مَرَرْتَ بِأَقْوَامٍ كَفِطَرْتَهُمْ	مِنْ عَهْدِ آدَمَ لَا خُبْتُ وَلَا طَبَعُ؟
وَمِنْ عَجِيبٍ لِغَيْرِ اللَّهِ مَا سَجَدُوا	عَلَى الْفَلَا، وَلِغَيْرِ اللَّهِ مَا رَكَعُوا
كَيْفَ اهْتَدَى لَهُمُ الْإِسْلَامُ، وَأَنْتَقَلَتْ	إِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعُ؟
جَزَّتْكَ مِصْرُ ثَنَاءٍ أَنْتَ مَوْضِعُهُ	فَلَا تَذُبُ مِنْ حَاءٍ حِينَ تَسْتَمِعُ
وَلَوْ جَزَّتْكَ الصَّحَارَى جِنَّتْنَا مَلَكًا	مِنْ الْمُلُوكِ، عَلَيْكَ الرِّيشُ وَالْوَدَعُ

كما تسابقت الدول والمؤسسات لتكريمه والاحتفاء به؛ فاجتمعت الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ومنحته ميداليته الذهبية، وهي أسمى وسام يمكن للجمعية أن تقدمه لكبار المستكشفين، وانهالت عليه الأوسمة والأنواط والنياشين من دول العالم المختلفة تقديرًا لهذا الاكتشاف، ومنها وسام "سان لازار" الذى منحته إياه الحكومة الإيطالية، وهو يعد من أرفع الأوسمة الإيطالية شأنًا. وفى إحدى المناسبات التى نظمت على شرفه، التقى أحمد حسنين مع روزيتا فوربس، وكان يضع على صدره وسام "سان لازار" فسألته فى سخرية "عن أى عمل استحققت عليه هذا الوسام؟" فأجابها أنه استحقه لطهارته وعفته، ورغم أنه اعترف فيما بعد أنه ندم على هذا القول، فإنه وجد نفسه مدفوعًا لقوله إزاء ترفعها وادعائها، وقرر أن يكتب كتابًا باللغة الإنجليزية يصف فيه رحلته الأخيرة ليكون بمثابة ردٍّ على كتابات فوربس.

وقبل أن ننهى حديثنا عن أحمد حسنين بك فلا بد أن نشير إلى أن القدر أبى أن يترك هذا الرجل يرحل عن عالمنا دون أن يجعل من نهايته قصة عجيبة تُضاف إلى رصيد القصص التى ارتبطت به؛ ففي ١٩ فبراير ١٩٤٦ توفى إثر حادث سيارة فوق كوبرى قصر النيل، أشار كثيرون إلى الشبهات التى كانت تحوم حوله، وبمجرد أن وصل الخبر إلى الملك فاروق توجه على الفور إلى دار أحمد حسنين، وأمر بجمع كل أوراقه الخاصة، ومن بينها عقد زواجه العرفى من الملكة نازلى، وأنعم على أحمد حسنين بالوشاح الأكبر "نیشان محمد على"،

ورغم أن هذه المقدمة القصيرة قد لا تفي المؤلف حقه، فإننا حاولنا - قدر الإمكان - أن نترك للقارئ الفرصة الأكبر ليرافقنا داخل صناديق القصص الحقيقية أو عوالمها.

وقبل أن نبدأ رحلتنا ينبغي أن نوضح للقارئ أن هذه الرحلة امتدت عبر أربع دول هي على الترتيب وفق الوضع السیادی الحالي: مصر، وليبيا، وتشاد، والسودان.

وعلى الله قصد السبيل،

المترجمان

شكر وتقدير

أدين كثيرًا للدكتور جون بول JOHAN BALL مدير المساحة الصحراوية المصرية الذى تفضل بإيجاز النتائج العلمية لبعثتى، كما كانت نصائحه وتعليماته التى أعطانى إياها لاستخدام الأدوات العلمية لا تقدر بثمن؛ إذ كنت بالفعل سعيد الحظ أن أعتمد على علمه الغزير.

فخريطة رحلتى - أحد مرفقات هذا الكتاب - تفضل بإعدادها كل من الدكتور بول والسيد برون BROWN بالإضافة إلى الزملاء الآخرين فى إدارة المساحة المصرية.

كما قام كل من الدكتور هيوم HUME والسيد مون MOON من إدارة المساحة الجيولوجية المصرية بتصنيف العينات الجيولوجية التى أحضرتها معى، وأعدا تقريرًا جيولوجيًا مهمًا. ومن خلال مساعدتهما الطوعية أضافا الكثير إلى نتائج بعثتى.

بينما كان اللواء سبينكس SPINKS باشا، وميشلانى MESHALANI بك من إدارة المدفعية بوزارة الحربية مسئولين عن إعداد الصناديق والحاويات وكل تجهيزات التخيم التى استخدمتها، والتى أثبتت كفاءتها فى كل الأحوال، وأنا ممتن للعناية من الأفكار التى بذلها فى الإعداد لهذا الأمر.

أما صديقى القديم السيد الشريف الإدريسى، وابنه السيد مرغنى الإدريسى فقد واصل مشورتها الأمانة ومساعدتهما الحاضرة دائمًا، والتى سبق أن حظيت بها منهما فى أثناء رحلتى للكفرة عام ١٩٢١.

وخلال بعثتى تلقيت أكثر المساعدات فاعليةً وودًا من كل من الكولونيل هنتر HUNTER باشا مدير إدارة المناطق الحدودية السابق، والكولونيل م.ماكدونيل M.MACDONNELL مدير الصحراء الغربية السابق، والميجور ألبرت HALPERT والكابتن أتون HUTTON من قيادة السلوم، والكابتن هاريسون المسئول عن السيارات المدرعة فى السلوم، وكل من السيد عبد العزيز فهمى أفندى، والسيد أ.كامل أفندى مأمورى السلوم وسيوة، والملازم لاولر LAWLER من سيوة.

وعندما وصلت إلى السودان كان طريقى أكثر سهولةً ويسرًا من خلال عطف صاحب السعادة الفريق لى ستاك LEE STACK باشا السردار والحاكم العام للسودان، ولا أستطيع أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أعبر عن شكرى الحار لكل الموظفين الرسميين فى الحكومة السودانية على امتداد طريقى، خاصة اللواء ميدوينتر MIDWINTER باشا نائب الحاكم العام للسودان، واللواء هودلستون HUDDLESTON باشا نائب السردار، والقائم مقام م. حافظ بك من الفرق العسكرية فى الخرطوم، والسيد هـ.أ. ماك مايكل H. A. MAC MICHAEL وكيل مساعد الوزارة المدنية، والكابتن ج. إى. فيليبس J.E. PHILIPPS و صموئيل عطية بك، وأحمد السيد من الخدمة المدنية السودانية، والسيد شارلز دوبويس CHARLES DUPUIS نائب الحاكم فى دارفور، والصاغ أ. حلمى فى الفاشر، والسيد ج. د. كرايج J.D. CRAIG حاكم كردفان، والبمباشى أ. خليل فى الأبيض، والضباط، والمسؤولين، والأعيان فى "الفاشر" و"الأبيض".

كما أنني ممتن للبمباشى ج. ف. فولى G.F FOLEY من وحدة
المدفعية فى "الفاشر".

وأدين على وجه الخصوص لكل من السيد هارولد هولاند
HAROLD HOWLAND والسيد و. ه. ل. واطسون W.H.L.WATSON
صديقى القدامى فى أوكسفورد لمساعدتهما التى لا تقدر بثمن
ونصائحهما القيمة فى إعداد هذا الكتاب.

الصحراء

«فى رحلتى الأولى للصحراء الليبية^(١) أخذت على
نفسى عهدًا بأننى لن أعود إليها مرة أخرى».

كنا قد ضللنا طريقنا وفقدنا كل آمالنا، ولم تبدُ أية إشارة للواحة
التي ننشدها أو علامة على وجود أية بئر قريبة، بدت الصحراء
قاسيةً لا ترحم أو تقبل اللين، ووقتها أقسمت ألا أعود إليها مرة أخرى
إذا ما كُتب لنا أن نخرج منها على قيد الحياة.

وبعد سنتين من هذا التاريخ كنتُ قد عدتُ إلى الصحراء ذاتها،
وإلى الموضع نفسه الذى ضللنا فيه طريقنا، وتحديدًا عند البئر ذاتها
التي أنقذت حياتنا فى المرة السابقة؛ فالصحراء تدعوك إليها، ولكن
ليس من السهل سبر غور فتنتها وسحرها.

ولعل أروع ما فى حياة الصحراء هو ليلها؛ فأنت تسير طوال
اليوم بأقدام متفرحة؛ لأن السير أقل ألمًا من امتطاء الإبل، وتجارى
القافلة بأعين نصف مغلقة، وتتبع إيقاع خطوات الإبل على نحو آلى،
وحثك يحترق ظمًا، ولا توجد بئر مياه على مرمى البصر. أما
الرجال الذين يتبعونك فلا مزاج لهم للغناء، وجوههم مجعدة، وأعينهم
محتقة بالدم، وهى تتطلع - بلا تعبير، وبلا هدف - إلى تلك
التدرجات اللونية الباهتة التى تتراوح بين صفرة الرمال الشاحبة
وزرقة السماء، بينما قرب المياه مدلاة على جانبى الإبل.

(١) كانت هذه الرحلة عام ١٩٢١.

إننا لا نتحدث كثيرًا في الصحراء؛ فهي تُتجنب الصمت وتعلمه، وعندما نكون في مشكلة ما فإننا نتجنب النظر إلى أعين الآخرين؛ فلا حاجة بنا إلى الخطب أو الكلمات الرنانة. فالكُل يعرف ما يحدث، والكُل يتحمّله بجلد وكبرياء؛ لأنك لو تدمرت فأنت تلقى باللوم على الله، سبحانه وتعالى، وهو الأمر الذي لا يجرؤ أن يقترفه أى بدوى، فهذه هي الحياة التي أعدت من أجله. إنه الطريق الذي كتبه الله عليه أن يسلكه؛ لذا يجب عليه أن يقبله، ربما يقوده إلى الموت الذي اختاره له الله سبحانه وتعالى، إلا أنه لا يوجد من يستطيع الفرار مما كتبه سبحانه وتعالى، والبدوى يردد دائمًا قوله تعالى: «أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ»،^(٢) لكن في مثل هذا الوقت قد تقسم أنك لو نجوت بحياتك، فإنك لن تعود إلى هذه الصحراء مرة أخرى.

عندما يصل يوم العمل إلى نهايته، يُتصب المخيم، ولا ترتفع أية خيمة؛ فالرجال منهكون للغاية، ولا يُبالون بما أصاب أجسادهم. ويُرخى الليل سدوله، وقد تكون ليلة ترصعها النجوم، وقد يكون هناك قمر، وتدرجياً تعمُ السكينة، ويبدأ الحديث بعد يومٍ من الصمت، تتقارع النكات الواهنة وتتبادل، وفجأة يغامر أحد الرجال - ربما أصغرهم سنًا - بإلقاء نكتة أكثر بهجة من الآخرين بصوت أعلى من أصواتهم، وبلا وعي يرفع البدو أصواتهم بالضحك، وتزداد طبقة الصوت وارتفاعه. إنها الصحراء وهي تمارس سحرها!

نسمات الليل الرقيقة تنعش أرواح القافلة، وخلال دقائق تُستخدم الفناطيس الفارغة كطبول ليبدأ الرقص والغناء.

(٢) سورة النساء: آية ٧٨.

ومع أول صوت للموسيقى قد يكون الرجال فى عملهم: يعتنون بالإبل أو يصلحون أحمالهم أو سروج إبلهم، ولكن أول نغمة موسيقية تجلب القافلة بأثرها حول لهيب النار المتقد. كل فرد يبحث عن رفيقه، ليتأكد أنه لا يزال سعيدًا وعلى قيد الحياة، يحاول أن يبدو أكثر مرحًا من جاره ليمنحه مزيدًا من الثقة. إنها لعبة الثقة عندما تبدو شاحبة في بدايتها؛ فنحن نجبر أنفسنا على أن تبتهج، نستخف بمشاكلنا ومعاناتنا فيقول أحدهم "الإبل كلها بخير ... لقد رأيت ذلك الجرح، وهو ليس خطيرًا كما كنت أظن"، ويقول آخر "إن بوحسان قال إنه لمح علامة تشير إلى وجود بئر ليس بعيدًا من يميننا"، نجهد أنفسنا أكثر وأكثر حتى نوهمها أن كل شيء على ما يُرام بالفعل. إن الأمر برمته خدعة - ربما من بدايته إلى نهايته - لكنه سحر الصحراء عندما يهيمن.

إن الأمر أشبه برجل متيم بامرأة فاتنة، لكنها قاسية، تعامله معاملة سيئة والعالم ينهار بين يديه، بينما تبتسم له فى المساء ليصبح العالم كله جنة. وعندما تبتسم الصحراء فلا يوجد موضع على الأرض يعادل العيش فيها.

يستنزف الرقص والغناء من أفراد القافلة ما تبقى من النشاط الذى سلبه اليوم منهم، تنهك أرواحهم حتى يسقطوا نيامًا، ينامون تحت قبة السماء الجميلة التى ترصعها النجوم، وقليل من أفراد الحضر يعرفون متعة الجلوس والتطلع للنجوم. ولا عجب أن العرب برعوا فى علم الفلك! فعندما ينتهى يوم العمل فإن البدوى الوحيد لا يتبقى له شيء سوى الجلوس ومراقبة حركة النجوم، والشعور بالسمو والسكينة التى تمنحها للروح.

وهذه النجوم تصبح مثل الأصدقاء الذين يقابلهم المرء كل يوم، وعندما يرحلون فإن الأمر ليس مؤلماً كإيلام الرجال عندما يودع بعضهما بعضاً عند الفراق، بل إنه أشبه بمشاهدة صديق يغيب تدريجياً عن البصر مع الأمل في رؤيته مرة أخرى في الليلة القادمة.

"حي على الصلاة ... الصلاة خير من النوم"

كانت هناك بضعة نجوم لا تزال صامدة في السماء، عندما انطلق تكبير أول رجل استيقظ في القافلة، نهض الجميع، وليس هناك عبارة تصف حالهم أكثر من القول إنهم كانوا يجمعون شتات أجسادهم؛ فأوصالهم تؤلمهم، وحلوقهم لا تزال جافة، ومع هذا فماذا غير حالهم على النحو الذي أصبحوا عليه؟ أصبح هناك أمل لديهم، بل ربما ثقة، أو قل يقين داخلي أن كل شيء سوف يصير على ما يُرام.

في هذه الأثناء كان العالم لا يزال رمادياً فارغاً، ولا توجد سوى نيران الصباح وهي تقاوم نسمات الشمال الباردة، وعيوننا تتجه غريزياً صوب الشرق حيث تشرق الشمس، وإذا لم تكن هناك سحب فإن السماء تتلون بصفرة باهتة تلقى ظلالاً طويلة محيرة خلف الإبل والرجال، شاحبة للغاية حتى تستطيع بالكاد تسميتها ظلالاً، ثم يأتي اللون الضارب إلى الحمرة الذي يمنح الدفء للمكان والألوان تظهر بالضبط في الفترة ما بين بزوغ الفجر وشرق الشمس؛ إذ بمجرد أن تشرق الشمس لن تجد شيئاً سوى امتدادات لا تنتهي من اللونين الأصفر والأزرق، ويظل اللون الأزرق يتلاشى ويتلاشى حتى تصبح السماء - في منتصف النهار تقريباً - بلا ألوان.

يجلب الصباح معه النشاط، بينما يجلب الليل السلام والسكينة، وهو الوقت الذى يعرف فيه المرء سحر الصحراء.

ففى صمت هذا الفضاء الشاسع المفتوح تصبح الحواس البشرية أكثر حدة، وفى النهاية يستطيع المسافر فى الصحراء أن يشعر باقترابه من بعض الواحات المأهولة بالسكان، بمثل ما تخبره غريزته عن وجود أى كائن حى على بعد بعض مئات من الأميال. وفى الصمت اللامتناهى للصحراء يتطهر الجسد والعقل والروح، ويشعر المرء أنه قريب من الله - سبحانه وتعالى - يشعر بحضرة قوته الجبارة، التى لا يستطيع أى شىء بعد ذلك أن يحول انتباهه عنها، وتدرجياً تُفضى هذه الجبرية الحتمية والإيمان الراسخ بحكمة الله - سبحانه وتعالى - إلى الترفع؛ حتى إنه قد يقدم حياته للصحراء دون تذمر. نعم هناك أوقات يشعر فيها المرء بالفعل أن الأمر لا يهم!.

تُخرج الصحراء أفضل ما فى الإنسان، بينما تدفع الحضارة البشر إلى مجابهة الخطر، حتى يقا تل كل فرد من أجل نفسه ومن أجل سلامته، بينما فى الصحراء تصبح الذات أقل أهمية؛ فالكل يحاول أن يقدم أقصى ما يستطيعه من أجل رفاقه. دع كارثة تهدد قافلة ما، وقد يكون لدى أحد الرجال فرصة لأن ينجو بنفسه، لكننى لا أصدق أن هناك بدويًا يهجر رفاقه حتى ينقذ حياته، ومن أكثر الأمور المروعة التى قد تحدث فى الصحراء نقص المياه، وقد تعتقد فى هذه الحالة أنك سوف تحاول الاحتفاظ بما معك من مياه من أجل نفسك، إلا أنه بدلاً من ذلك سوف تجد نفسك مع زمزميتك المفضلة، تأخذها بيدك، وتدور بها على الرجال متسائلاً إن كان أى منهم يرغب فى الشرب

أم لا، تفعل ذلك بشكل غير مبالٍ كما لو كان هناك الكثير من الماء ومخزونه؛ فمسألة السلامة الشخصية تتضاءل، وأيًا كان ما يحدث.. فليحدث للقافلة بأسرها؛ فأنت لا تريد أن تفر بمفردك؛ ذلك هو الشعور الذي يملكك.

لذا لم أكف مطلقاً عن الإعجاب بسكينة البدو وشجاعتهم اللتين لا يعكرها شيء.

* * *

عند السفر في الصحراء هناك ثلاثة عناصر رئيسية هي: الإبل والماء والدليل؛ أما الإبل - فهي أهمها، إذ قد تفقدها دون أن تدري سبباً لذلك، كما حدث عندما مات أحد أفضل إبلي في الليلة التالية لمغادرتي "الكفرة"، بينما في المقابل صمد أضعف إبل القافلة لمسافة تربو على ٩٥٠ ميلاً قطعها من "الكفرة" إلى "الفاشر" وهو يترنح تحت وطأة حمولته، وعلى الرغم من توبيخي لمالكه لأنه ضم للقافلة مثل هذا الحيوان الذي يرثى له، فقد أجاب وقتها بأن الله سوف يحرسه، وللحق فقد حماه الله، إلا أن موت أحد الإبل في الصحراء يعد خطباً جليلاً؛ لأنه يعنى ضياع معظم أو كل حمولته.

أما الماء فيحمل - في الغالب الأعم - في قرب مصنوعة من جلد الضأن، ومعظم هذه القرب تختبر لأيام وأسابيع عديدة قبل استخدامها، وقد تكتشف فجأة أن الماء بدأ يتسرب أو يتبخر من بعضها، أو قد يرتطم جملان ببعضهما خلال رحلة الليل مما ينجم عنه انفجار قريبة أو اثنتين.

أما الدليل فقد يقول لأسباب عدة إن " رأسه قد دارت ودارت"، وهو ما يعنى أنه قد ضل وجهته، خصوصًا إذا ما كانت هناك سحب قد أخفت الشمس لبضع ساعات، أو قد يؤدي خطأ ما فى إحدى العلامات الأرضية إلى أن يضل الدليل طريقه.

ولكن هناك أمرًا يظل أكثر أهمية من هذه العناصر الثلاثة - الإبل، والمياه، والدليل - وهو الإيمان، الإيمان العميق الذى لا حدود له.

* * *

يمكن للصحراء أن تكون جميلة وكريمة حين تسير القافلة نشيطة وسعيدة، إلا أنها يمكن أيضًا أن تكون قاسية ومهلكة، والقافلة التعسة التى ضربها سوء الحظ تتقدم وهى تترنح فى يأس. يحدث ذلك عندما تتدلى رءوس إبلك من الإجهاد والعطش، وعندما ينفد مخزون مياهك، ولا تلمح أية إشارة أو علامة للبئر التالى، وعندما تقتر همة رجالك ويصبحون بلا أمل، وعندما تجد الخريطة التى تحملها بيضاء؛ لأن الصحراء التى تجتازها لم يطرقتها أحد من قبل، وعندما تسأل دليلك عن الطريق فيجيبك بهز كتفيه: "الله أعلم"، وعندما تمشح الأفق وكل ما يحيط بك وأينما تنظر فلا تجد سوى خطوط متدرجة بين زرقة السماء الشاحبة وصفرة الرمال، وعندما لا توجد أية علامة أرضية أو إشارة تعطى شيئًا طفيفًا للأمل، وعندما يبدو هذا المدى الفسيح مثل دائرة يزداد إحكامها حول حلقك الجاف، عندها يشعر البدوى أنه فى حاجة إلى قوة أكبر حتى من هذه الصحراء متحجرة القلب، وعندها سوف يصلى البدوى لربه القوى لينقذه، وعندما يتلو صلاته الأخيرة

ولا تُقبل، يلف "جيرده" حوله، ويغوص في الرمل منتظراً - في
رباطة جأش مذهلة - الموت المحتوم، هذا هو الإيمان الذي يجب أن
تتخذه الرحلة التي تعبر الصحراء.

لكل هذا فالصحراء قاسية لا ترحم، إلا أن كل مَنْ عرفها ذات
مرة لابد أن يعود إليها.

الفصل الأول

التخطيط للرحلة

«هذه هي قصة الرحلة التي قمت بها عام ١٩٢٣، من "السلوم" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، إلى "الأبيض" في السودان، وتبلغ تلك المسافة نحو ٢٢٠٠ ميل"، وخلالها أسعدني الحظ أن أكتشف واثنين مفقودتين هما: "أركينو"، و"العوينات" اللتان كانتا في السابق مجهولتين للجغرافيين تماماً».

ورغم أن رحلتي هذه كانت في المقام الأول رحلة للاستكشاف العلمي، فقد حاولت - في هذا الكتاب - ألا أضجر القارئ بالأمور التقنية، وأن أسرد الأحداث على نحو مباشر، والتي قد تكون في بعض أجزائها شيقة حتى لأولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن مصر أو السودان أو الصحراء الليبية.

كان أقصى طموحاتي أن أصل إلى "الكفرة" - مجموعة الواحات التي توجد في الصحراء الليبية - التي لم يزرها أي مستكشف من قبل سوى الرحالة الألماني الجسور رولفس ROHLFS الذي نجح في الوصول إليها عام ١٨٧٩، ولكنه استطاع بالكاد أن ينجو بحياته، ودُمرت كل مذكراته وملاحظاته العلمية.^(٣)

(٣) في عام ١٨٧٣ قام المستكشف الألماني جيرارد رولفس Gerhard Rolfs بدعم من الخديو إسماعيل بمحاولة عبور بحر الرمال العظيم لكي يصل إلى "الكفرة" عبر واحة "الدخلة"، إلا أن جملة المحمل بأحمال ثقيلة عجز عن عبور الكثبان الرملية العالية،=

وفى عام ١٩١٥ أسعدنى الحظ أن ألتقى فى القاهرة بالسيد إدريس السنوسى الزعيم الشهير لإخوان السنوسية، بينما كان فى طريق عودته من مكة بعد أدائه مناسك الحج، و"الكفرة" هى عاصمة السنوسية. وفى عام ١٩١٧ ذهبت فى مهمة رسمية لمقابلة السيد إدريس بمرافقة الكولونيل ميلو تالبوت MILO TALBOT - الضابط المتميز الذى تقاعد من الجيش المصرى ثم عاد إلى الخدمة مرة أخرى إبان الحرب العالمية - فى "زويتينا"، ذلك الميناء الصغير القريب من واحة "جدابيا" التى تقع فى "برقة"، ووقتها جددت تعارفى بهذا الرجل البارز، وانتهزت الفرصة وصارحته بطموحي، وكان السيد إدريس بالغ المودة معى، وطلب منى أن أخبره بالموعد الذى أعتزم فيه القيام برحلتى، حتى يقدم لى المساعدة والدعم اللذين قد تكون الرحلة إلى "الكفرة" دونهما أمرًا بعيد المنال.

قابلته مرة أخرى فى "أكراما" بالقرب من "طبرق"، وأخبرته وقتها أننى سوف أبدأ الرحلة بمجرد أن أتحرك من مسئولياتى العسكرية، وكان معى فى "طبرق" آنئذ السيد فرانسيس رود FRANCIS RODD أحد أصدقاء الدراسة القدامى فى باليول^(٤) BALLIOL، وقررنا وقتها أننا سوف نذهب سوياً.

=وأجبرته القبائل على أن يستدير صوب الشمال، وأن يسافر بين ممرات الكثبان الرملية إلى "سيوة" لينجو بحياته، وفى النقطة التى أجبر فيها على تغيير اتجاهه، أطلق عليها Regenfeld أو حقل المطر إذ أمطرت السماء بشدة فى هذا اليوم، وهناك شيد رولفس نصباً تذكاريًا كتب عليه أنه زار هذه المنطقة عام ١٨٧٤، ورغم فشله فى هذه المحاولة فإنه أعاد تكرارها من جديد وسلك اتجاهًا مغايرًا هذه المرة؛ إذ بدأ رحلته من الشمال وسار صوب الجنوب إلى أن وصل إلى "الكفرة" ليصبح أول رجل أوروبى يصل إلى هناك وذلك فى عام ١٨٧٩. "المترجمان"
(٤) إحدى كليات جامعة أوكسفورد. "المترجمان"

وعندما انتهت الحرب، حملت إلى السيدة روزيتا فوربس ROSITA FORBES " (التي تدعى الآن السيدة أ. ماك جراث) خطاب توصية من السيد رود وطلبت الإذن في أن ترافقنا؛ لذا شرعنا ثلاثتنا في التخطيط لتلك الرحلة، ولكن عندما حل موعد الرحيل وانضمام السيد رود إلينا حالت الظروف دون ذلك، وفي النهاية نجحت أنا والسيدة فوربس وبالتعاون الصدوق من السلطات الإيطالية، وبدعم السيد إدريس ومساعدته - الذي زودنا بقافلتنا - في أن نخرج للرحلة عام ١٩٢٠، وأن نصل إلى "الكفرة" في يناير ١٩٢١.

لكن رحلتى إلى "الكفرة" بما حملته من إثارة أغرتنى باكتشاف تلك الصحراء المجهولة الشاسعة التى تمتد خلفها، كما كانت هناك شائعات أيضاً عن واحات مفقودة لا يعرف عنها سكان "الكفرة" أنفسهم شيئاً سوى ما يقال ويتردد فيما بينهم. عدت إلى القاهرة عازماً على أن أجهز حملة أخرى، تتوجه مباشرة صوب الجنوب عبر صحراء غير معروفة إلى أن تصل إلى الوادى والسودان بدلاً من العودة مباشرة إلى "الكفرة" كما فعلت أنا والسيدة فوربس من قبل.

إلى جانب هذا، كان كل ما معى فى رحلتى الأولى من أدوات علمية يقتصر على بارومتر معدنى،^(٥) وبوصلة

(٥) جهاز يُستخدم لقياس الضغط الجوى، ونظراً لأن الضغط الجوى يختلف من منطقة إلى أخرى بحسب منسوب ارتفاعها عن سطح البحر، فتستخدم قراءة هذا الجهاز لمعرفة مناسيب الأماكن المختلفة، وعلى الرغم من أن النتائج المتحصلة من هذا القياس لا تعد دقيقة للغاية إلا بعد معالجتها بالكثير من المعاملات الحسابية، فإنها تعد من أفضل الطرق وأسهلها فى عمليات استكشاف المناطق غير المأهولة بالعمران، خاصة تلك المناطق التى لا تتوفر لها خرائط طبوغرافية دقيقة. "المترجمان"

منشورية؛^(٦) لذا لم أتمكن من جمع ملاحظات علمية دقيقة، وكل ما عدت به كان بضع نقاط عن أحداثيات للطريق رصدتها بالبوصلة تعتمد على القياسات التي قمت بها. وكنت متلهفاً على التحقق من صحة ملاحظات "رولفس"، وأن أحدد بصورة قاطعة موضع "الكفرة" على الخريطة.

وفي عام ١٩٢٢ عرضت خطتي - لرحلة تعبر الصحراء من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى السودان - على صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، الذي كان كريماً للغاية بما أبداه من اهتمام بأولى رحلاتي، ومنحني وسام الاستحقاق، وتعاطف بشدة مع مشروعي، وأمر بمنحي إجازة طويلة من واجباتي الرسمية، وبعد ذلك أمر بأن تتحمل الخزانة المصرية تكاليف الرحلة بالكامل، وبالفعل فإن رحلتي ما كان لها أن تلقى النجاح الذي لاقتة لولا دعم جلالته الذي لا يقدر بثمن.

استكملت استعداداتي، وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٢٢، كنت قد جمعت حقائبي في منزل والدي بالقاهرة كي يتم مباركتها طبقاً للعرف القديم لبني جلدتي قبل أن أخرج لرحلتي عبر الصحراء الليبية.

(٦) بوصلة يمكن بواسطتها قياس زوايا انحراف أى جسم فى الطبيعة عن الشمال المغنطيسى؛ لذا يمكن استخدامها فى توقيع أية ظاهرة جغرافية على سطح الخريطة، وقد سميت بهذا الاسم نظراً لأنه من ضمن مكوناتها منشور ثلاثى من الزجاج. "المترجمان"

الفصل الثانى

مباركة الأمتعة: "الله يسدد خطاك"

كانت الكلمات العربية تخبو فى جلال هواء الحجارة الكبيرة - الخالية من الأثاث - حيث أضواء الشموع وسُحب البخور المتصاعدة يتنافسان على السيادة، بينما تكومت بطول الحوائط مجموعات غريبة من الأمتعة: صناديق كبيرة، صناديق صغيرة، قُرَب من جلد الأغنام، فناطيس معدنية لحمل المياه، أكياس مليئة بالأطعمة المحفوظة، بالات من الخيام، حقائب جلدية ومعدنية تحتوى على معدات علمية وأدوات الشخصية، وبعد صخب محاولة جعل كل شىء ملفوفاً ومحكم الربط ومرتباً فى نظام، أطبق الصمت علينا حيث كنا نقف فى منتصف الغرفة، وفى الخارج كان الليل المصرى قد أرخى سدوله بالفعل، وعَبَرَت الحديقة همهمات باهتة من حياة ليل القاهرة لتدخل من نافذتنا.

كنا ثلاثة: أنا، وعبد الله - وهو نوبى من أسوان، وكان من أكثر من كنت أثق فيهم من الرجال - وأحمد - وهو من أسوان أيضاً، وإن بدا نصف محطم بعد أن نادته حياة المدينة، بينما كان يقف بجوارنا، رغم أنه برهن بعد ذلك على أنه طاهٍ ماهر، وأنه من يضىف البهجة والحيوية على الرحلة.

كان يقف أمامنا رجل عجوز طويل القامة ذو لحية بيضاء، يرتدى قفطاناً حريريًا برتقاليًا داكن اللون، ملامحه ذات التجاعيد الرقيقة تتحدث عن السلام الذى يأتى من الورع، وكانت أصابعه النحيفة الطويلة تقبض برفق على حبات مسبحة من الكهرمان، بينما تتصاعد حلقات رقيقة من الدخان الأبيض تنبعث من مبخرة فضية تزينها النقوش يحملها أحد الخدم الواقفين بجواره، وضع الرجل الورع مسبحته جانبًا ورفع كفيه وذراعيه عاليًا صوب السماء، وبصوت أوهنه الزمن، وإن كان يشع إيمانًا، بدأ يردد الدعاء من أجل أولئك الذين كانوا على مشارف الرحيل:

"ربنا يسد خطاكم، ويتوج جهودكم بالنجاح، ويردكم إلينا سالمين غانمين".

ثم بدأ يدور داخل الغرفة وهو يحرك المبخرة فى إيقاع منتظم أمام كل كومة من الأمتعة، ويتلو بعض الأدعية. كانت تلك هى المراسم التقليدية لمباركة الحقائق، تكرست عبر عقود من خروج العرب فى القوافل، وعلى الرغم من هجر ذلك التقليد فى هذه الأيام الأخيرة، فإنه فى دار والدى الذى أمضى حياته فى تشرب هذه الثقافة وسير الرسل والأنبياء، كان ذلك من أكثر الأمور الطبيعية فى العالم التى يجب أن تُمارس عندما يزعم ابنه الوحيد على السفر إلى الصحراء.

وبينما كنت أقف أمام الرجل الورع لأتلقى مباركته، شعرت بأننى لم أعد بعد الآن مصريًا من أبناء اليوم، بل صرتُ بدويًا بصدد العودة للصحراء، حيث نصب آباء آبائه خيامهم. وتأملت والدى؛ فمئذ

خمسة عشر عامًا، أرسلنى إلى أوروبا لأدرس وأتعلّم، ونادرًا ما التقت طرقنا منذ ذلك الحين، وفى بعض الأحيان كنت أتمنى لو أننى درست شيئًا يدخل فى دائرة اهتمامه فربما استطعت الانتفاع بعلمه العميق، إلا أنه قال يومًا لأحد زملائه فى الدراسة: " إنه سوف يعيش فى جيل آخر، دعه يحظّ بالتعليم الذى سوف يحتاج إليه آنذاك"، ولكن الآن بينما أتأهب للعودة إلى الصحراء التى جاء منها آبائنا، يعرف كلانا ما يجول بذهن الآخر ويفهمه.

وبعد دقيقة من الصمت، وضع يده على كتفى ودعا لى قائلاً: "تصحبك السلامة، وربنا يرشد خطاك، ويقويك، وينجح مقصدك". وهكذا بوركنا الأمتعة.

أخذ أحمد وعبد الله الأمتعة الثقيلة وتوجها إلى "السلوم"، وتركنا معى المعدات العلمية والكاميرات التى تتطلب عناية خاصة فى حملها.

وفى ١٩ ديسمبر غادرت الإسكندرية بالسفينة متوجهًا إلى السلوم.

الفصل الثالث

المؤن والتجهيزات

«بحلول يوم الحادى والعشرين كنت أهبط سُلّم السفينة فى السلوم، ذلك الميناء الصغير الذى يقع بالقرب من الحدود الغربية لمصر، وهناك كنا سنأخذ الإبل ونتوجه عبر طريق "جغوب" إلى "جالو"، ذلك المركز المهم فى تجارة الصحراء، حيث سيتم تجهيز قافلتنا، وتبدأ الرحلة الكبيرة صوب الجنوب».

ورحلة مثل رحلتى هذه دائماً ما يكون لها العديد من نقاط البداية، تقترن بكل منها مشاعر وخبرات متباينة؛ ففي الحجرة ذات الضوء الشاحب ورائحة البخور الذكية بمنزل والدى كانت المغامرة نوعاً من الحلم الجميل فاتناً فى احتمالاته، ولكن بالكاد يمكن اعتباره حقيقة، بينما فى السلوم جاءت الحقيقة العملية من خلال تجميع المؤن والتجهيزات، وحزمها وإعادة حزمها حتى يصبح كل شىء فى أصغر حجم، وأفضل شكل للحمل، والتحقق منها جميعاً للتأكد من أننا لم ننس شيئاً، والترتيب مع مالكى الإبل من أجل المرحلة الأولى من الرحلة، بينما فى "جالو" سوف تأتى البداية الثالثة مع قافلتى الخاصة والطريق إلى "الكفرة"، الذى على الرغم من أننى قد سبق أن اجتزته من قبل فإنه لا يزال غير مألوف لى، ثم تأتى البداية الأخيرة لكل ما سبق عندما أنطلق من "الكفرة" وأتوجه صوب المجهول الذى لم يُكتشف بعد.

كان عبد الله وأحمد قد سبقاني بالفعل إلى " السلوم " مع الحقائق الثقيلة، وتم ترتيب أمر الإبل، إلا أن الاتفاق كان ينتظر تصديقي عليه، وشرعنا بعد ذلك في ترتيب تجهيزاتنا ومؤننا.

* * *

ولعله قد يكون من الشيق أن أقدم بعض الوصف للمصريين اللذين رافقاني خلال هذه الرحلة.

عبد الله: نوبى من أسوان، قوى البنية، مفتول العضلات، ذو عينين صغيرتين عميقتين، تخفيان ما يتسم به من مكر ودهاء بالإضافة إلى قدر كبير من اللامبالاة أو قل السمو. كان الرجل فى نحو الأربعين، جيد التعليم، يعرف القرآن جيداً، التقيت به للمرة الأولى عام ١٩١٤، عندما كان مرافقاً لعائلة الإدريسي فى مصر، وقد أعجبت به كثيراً؛ نظراً لروح المرح المتأصلة فيه وولائه لسيده. وكان أميناً بكل ما تعنيه الأمانة من معنى؛ لذا أوكلت إليه مسئولية المؤن. وفى صندوق أدوات عبد الله، يستطيع المرء دائماً أن يجد كل ما يحتاج إليه، بدايةً من قطع الجلد ومسلات البدو البدائية التى تستخدم فى إصلاح الأحذية، إلى الاختراعات المعقدة اللازمة لإصلاح عمود خيمة محطم، علاوة على ذلك كان مستعداً بالأكاذيب ليسوى كل المواقف، سواء أكان يريد منى أن أتخذ مظهر البدوى الرحالة من مصر، أم التاجر الجائل، أم رجل الدولة ذى المكانة العالية عندما حللنا وسط طبقة الموظفين فى "السودان". وكان عبد الله يتسم بشيء فريد؛ فبين غروب الشمس وساعة أو ساعتين بعد ذلك، كان يبدو أنه من العسير أن تبقى مستيقظاً، حتى ولو كان يجلس

ويشارك فى مناقشة ما، فسوف ينعس قليلاً فى أثناء جلوسه؛ ففى إحدى المناسبات، وكنا قد انتهينا للتو من تناول طعام الغداء، ومضت ساعة تقريباً، وكنوع من المزاح أخذ زروالى - وهو أحد البدو الأوفياء الذين انضموا إلى قافلتنا فى "جالو" - كمية كبيرة من الزعتر (معطر قوى يستخدم لإضافة نكهة إلى الشاي) ووضعها فى شاي عبد الله خلال إغفائه، وعندما استيقظ الأخير وتذوق شايه أدرك ما حدث، إلا أنه لم يقل شيئاً، لكنه ببساطة شديدة أعاد كوبه إلى موضعه، وبعد فترة التفت عبد الله حوله ثم قال لزروالى: "أحسب أنك تنتظر أحدهم، أظن أننى سمعته قادمًا"، وعندما نهض زروالى ليستطلع الأمر، قام عبد الله فى هدوء باستبدال الأكواب حتى يعود زروالى ويشرب من كوب الشاي الذى به نسبة كبيرة من الزعتر، بينما عاد عبد الله للنعاس فى سلام مرة أخرى.

وقد برزت غريزة عبد الله الوظيفية على أفضل نحو عندما وصلنا إلى إحدى المناطق المأهولة بالقرب من نهاية الرحلة، وكان هناك نقص فى الطعام؛ فقد جمع كل بقايا القافلة بما فيها الصفائح الفارغة، وزجاجات الدواء، بل حتى أمواس الحلاقة المسنعة، واستبدلها مع السكان المحليين: بزبد، ولبن، وبهارات، وجلود.

وعبد الله أيضاً هو ذلك الشخص الذى استاء للغاية عندما عرضت فيلمى السينمائى الخاص ببعثتى الاستكشافية خلال المحاضرة التى ألقيتها فى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول بدار الأوبرا الملكية فى القاهرة؛ فعندما وجد عبد الله أنه يظهر فى كثير من المشاهد وهو يرتدى قميصاً بالياً، ساءه أن يظهر فى ثوب غير لائق

أمام مليكه، وسأل إن كان هناك شيء من الممكن فعله حتى يظهر في قميص نظيف وليس باليًا على هذا النحو!.

أما أحمد فهو أيضًا نوبى من أسوان، نحيل القوام، لا يعرف الاستسلام مطلقًا، كان خادمي وطباخي الخاص، ورغم أنه كان جيد التعليم، فقد أصبح طاهيًا لأنه أحب أن يحيا حياة حرة كما قال؛ إذ إنه لو أصبح رجل دين كما كان والده يتمنى، لكان لزامًا عليه أن يحيا وفق نمط معين، وهو ما كان جليًا أنه لا يتفق مع طبيعته؛ فقد كان مر/حًا دائمًا، وعلى الرغم من أن أحدًا في القافلة لم يلق لعنات منه، فإن/البدو لم يلقوا إليه بالآ، بينما لو صدرت كلمة مثل التى قالها أحمد من أى شخص آخر، لكانت هناك إراقة دماء، ولكن البدو اعتادوا على طريقته فى الحديث، ولم يتشاجروا معه سوى مرة واحدة.

وقد اعتاد أحمد بعد أن ينتهى من الطهى أن يجلس مع البدو ويزدرى معلوماتهم عن الدين، ويبرهن على تفوقه بتلاوة مقاطع - من الذاكرة - من الشعر العربى وبعض الأحاديث النبوية الشريفة. ولم يفشل أحمد مرة واحدة فى أن يعد لى قدحًا من الشاي حتى فى أحلك الظروف، حتى إنه فى إحدى المرات كان يعانى آلامًا مبرحة فى قدميه نتيجة للسير طوال الليل، وبينما كنا ننصب الخيام أخبرته أننى لا أريد أى إفطار أو شاي حتى أنام، وأمرته بأن يتوجه إلى الفراش على الفور، ومع ذلك وبينما كنت أتأهب للذهاب إلى مخدعى وصل أحمد ومعه كوب من الشاي الساخن.

وعلى الرغم من أنه لعن البدو جميعًا وآباءهم وأجدادهم، فإنه ما سقط بدوى منهم مريضًا إلا وكان أحمد يبذل كل ما فى وسعه حتى

يسعفه؛ فقد تعلم تدريجيًا استخدام مثل هذه الأدوية كما تعلمتها، وكثيرًا ما كان يحضر لى زجاجة صغيرة ليسألنى - عندما يخلط عليه الأمر - هل هذا هو الكينين أو أنه الأسبرين؟

* * *

متطلبات الترحال فى الصحراء بسيطة، وقائمة الأشياء التى يجب أن يصبها المرء معه تكاد أن تكون شائعة؛ فبالنسبة للطعام هناك قبل كل شىء: الدقيق، والأرز، والسكر، والشاى. وعلى الرغم من أن كل سكان الصحراء مقيمون باللحم، فإنه بالطبع لا يمكن حمله وعلى المرء إما أن يصيده فى طريقه أو يرحل بدونه. أما الشاى فهو يعد مشروب الصحراء اللببية قياسًا بالقهوة، ومرد ذلك إلى سببين: الأول دينى والثانى عملى. فقد حرّم السيد بن على السنوسى - مؤسس الطريقة السنوسية التى تتحكم فى الإقليم الذى كنت أسافر خلاله - على أتباعه كل وسائل الرفاهية، واشتمل تحريمه على التبغ والقهوة، ولكن لسبب ما لم يحرم الشاى؛ لذا فإن أتباعه يعدون من "شاربى الشاى" إذا جاز لنا أن ندعو بالاسم ذاته السائل الباهت الرقيق المعطر الذى يزين موائد الشاى فى أوروبا وأمريكا، وذلك السائل داكن اللون المر الذى يؤازر البدوى فى أثناء سيره وينعشه فى نهاية يومه. أما السبب الثانى فهو أن الشاى مشروب منبه للعمل، بينما القهوة ليست كذلك. والشاى هو ذلك الشىء الذى تنتهى به كل وجبة فى الصحراء، وهو الذى ينعش المسافر المرهق فى نهاية يوم سفر شاق، بينما القهوة فهى للحياة الأقل قسوة فى الواحة والدار.

وبعد هذه المؤن يأتي التمر أو ربما يجب أن يوضع في البداية؛ فالإبل تعيش على التمر بمثل ما تعيش عليه القافلة بأسرها، عندما تنفذ الأطعمة الأخرى أو لا يكون هناك وقت للتوقف وطهي الطعام. ولكن التمر ليس هو ذلك الدسم الحلو الذي اعتاد المرء تناوله كحلوى أو في أثناء النزهات الرقيقة في الغرب؛ إذ إن التمر الذي يجب على المرء أن يستخدمه عند السفر في الصحراء به نسبة قليلة من السكر؛ لأن السكر يسبب العطش، وحيث الآبار تبعد أيامًا فإن مؤن المياه لا يسرف في استخدامها.

كما اصطحبت معي أيضًا بعض المعلبات " بلوبيف، خضراوات، فاكهة"، إلا أن المعلبات كانت ثقيلة الوزن، واصطحاب عدد كاف منها لرحلة طويلة، كان سيتطلب عشرين جملاً إضافيًا أو أكثر لحملها. كما ضم مخزوننا القليل من القهوة، إلا أنه نادرًا ما كنا نشرب القهوة، واستخدمت معظمها كهدايا للأصدقاء الذين اكتسبناهم طوال الطريق، وكان معي بعض زجاجات من الحبوب الجافة الممزوجة باللبن، التي أثبتت فائدتها كوجبة للطوارئ عندما كان الطعام يقل، ومع ذلك فقد كان البدو غير متيمين بها؛ فقد قالوا " إنها تشعرهم بالامتلاء دون لذة التذوق".

تلك هي قائمة المؤن التي كانت معنا باستثناء بعض الملح والتوابل خاصة الفلفل من أجل العصيدة، وهي مزيج من الدقيق المغلي والسمن يجعلها الفلفل حارة المذاق.

كان هناك بعض التنوع، إلا أن التنوع أمر يجب على المرء أن يقلع عنه عندما تحمل مؤنه دواب عليها أن تحيا هي ذاتها - بصفة رئيسية - على ما تستطيع حمله.

لم تكن هناك أية رفاهيات فى الطعام، مهما كان مقدار السرور الذى قد تبعثه للتخلص من رتابة الأرز، والخبز الجاف، والتمر، والشاي. فإذا ما كان لدى المرء خبرة بالسفر فى الصحراء، والحكمة المستخلصة منها، فعليه ألا يأخذ معه أى طعام لا يكفى لإطعام كل فرد فى القافلة؛ فعند السفر فى الصحراء لا يوجد تميز حسب المكانة أو الطبقة سواء أعلى أو أدنى.

إلا أن الاستثناء الوحيد لقاعدة "الرفاهية" تلك كان هو التبغ؛ فطالما أنه كان لا يصاحبنى سوى رجل واحد فى أثناء السير فقد كان يدخل معى متى عنى ذلك، وعلى أية حال فإن ذلك لا يعد انتهاكاً حقيقياً لتلك القاعدة. وقد وفر لى مخزون السجائر المصرية والتبغ الذى كان معى متعة بالغة طوال الرحلة.

بعد ذلك يأتى الماء، وهو المشكلة الكبيرة والمتواصلة عند السفر فى الصحراء؛ فالرجال قد يصمدون دون طعام لأيام لا يمكن تصور عدها، سواء أكان للضرورة أم لغرابة الأطوار، ولكن الرجل الذى يستطيع الاستمرار لمدة أربعة أيام دون مياه يعد أعجوبة؛ فالصحراء تسمى صحراء فقط بسبب ندرة الماء؛^(٧) لذا على المسافر إلى الصحراء أن يفكر أولاً - وقبل كل شىء - فى مؤن شربه.

وقد حملنا الماء معنا بوسيلتين: المؤن المألوفة حملت فى خمس وعشرين قربة، وهى وسيلة حمل المياه التقليدية فى الصحراء وتصنع من جلد الضأن، ويتسع كل منها لما يتراوح بين أربعة وستة

(٧) يعرف الجغرافيون الصحراء بأنها ذلك النطاق من الأرض الذى يقل فيه معدل سقوط الأمطار عن ١٠ مم فى العام ويندر به الماء. "المترجمان"

جالونات، وكان من السهل انفجارها إذا ما اصطدم جملان من الذين يحملون تلك القرب في الظلام على أحد الطرق الصخرية؛ لذا فقد حملت مؤن المياه الاحتياطية الخاصة بالطوارئ في فناطيس، وهى عبارة عن حاويات طويلة من القصدير ذات شكل مستطيل أو بيضاوى، ومقطع عرضى يسمح بأن تعلق منها بسهولة على جانبي الإبل، وكان لدينا أربعة فناطيس يتسع كل منها لحمل أربعة جالونات، وأربعة أخرى يتسع كل منها لحمل اثنا عشر جالوناً؛ لذا كانت مؤننا الكاملة نحو مائتى جالون تقريباً. كانت تكفى لإعالة قافلتنا - عندما تم إعدادها فى النهاية - فى المسافة الممتدة من بئر إلى أخرى، والتي كنّا نأمل أن نصادفها. وقد حملنا مؤننا الاحتياطية فى الفناطيس فقط، فإلى جانب أنها أقل عرضة للتلف، فقد كانت القرب تأخذ مساحة قليلة عندما تصبح فارغة، حتى إنه كان يمكن حمل خمسة وعشرين قربة كلها فوق جمل واحد، بينما لا يوضع سوى فنطاسين على كل جمل سواء كانا فارغين أو مملوءين.

كانت هناك أيضاً بعض زجاجات المياه الفردية، ولكن سرعان ما تم التخلص من معظمها لأن الرجال أنفوا حملها، وقد احتفظ ببعضها من أجل مائها البارد؛ فقد كان تبخر الرطوبة من قماش الخيام الذى يحيط بالزجاجات أو الحقائق يجعل درجة حرارة الماء فى داخلها مستساغاً؛ خاصة عندما أصبح الجو حاراً بعد ذلك.

أما الخيام فقد كانت أربعاً: اثنتان على شكل الجرس، واثنتان على شكل المستطيل، بالإضافة إلى العديد من أوانى الطهى، والتي يأتى على رأسها "حلة" نحاسية ضخمة لغلى الأرز.

وللطوارئ الصحية كان هناك صندوق للأدوية به " كينين، ويود، وقطن، وضمادات، وساليسيلات البزموت لعلاج الدوزنتاريا، وأقراص مورفين، وسرنجات حقن، ومصل مضاد للدغ العقارب - الذى ألقانى فى مازق خطير ثم أنقذنى منه - ومرهم زينك لعلاج الإكزيما، وحبوب لعلاج عسر الهضم، وملح إبسوم. كما كان معى أدوات جراحية بسيطة، وأدوات وأدوية لعلاج الأسنان أعطانى إياها أحد أصدقائى من أطباء الأسنان. كنت مجهزاً للعناية بالأمراض اليومية البسيطة، أما إذا حدث شىء أكثر خطورة فكان على أن أقول: "الله هو الشافى".

وللصيد والدفاع عن النفس أخذت معى ثلاث بنادق، وثلاثة مسدسات أوتوماتيكية، بالإضافة إلى بندقية رش، أهديتها خلال رحلة العودة، أما باقى الأسلحة فقد زادت إلى ست بنادق، ومسدس واحد، ومن الطريف أنه عندما وصلت البنادق إلى ميناء السلم فى صناديقها الخشبية ذات الشكل المميز، سرت على الفور إشاعة فى البلدة مفادها أننى أحمل معى مدفعاً أوتوماتيكياً لغرض غامض، أسهب المثرثرون فى تفسيره.

وبهدف إعداد تقرير قوى وصادق - قدر الإمكان - عما وجدته ورأيتَه أخذت معى خمس كاميرات، كانت ثلاث منها من إنتاج شركة "كوداك"، وقد ظلت تعمل على الوجه الأكمل حتى نهاية الرحلة، وواحدة أخرى كانت متطورة بعض الشىء ذات عدسة مسطحة - دُمرت نتيجة لتسرب الرمال إليها، أخيراً كانت هناك ماكينة تصوير سينمائى، ولكل هذه الكاميرات اصطحبت معى أفلاماً من إنتاج شركة

أفلام إيست مان كوداك EASTMAN KODAK FILMS، وقد حُزِّمت بعناية مدروسة؛ إذ لُفَّت أولاً بقصدير لعزلها عن الهواء، وبعد ذلك وضعت في عبوات من القصدير مليئة بنشارة الخشب، وفي النهاية في صناديق خشبية، إلا أن هذا الحرص في التغليف أثبت أنه لم يكن جيذا للغاية، بالنظر إلى درجة الحرارة الشديدة التي تعرضنا لها في الجزء الأول من الطريق، والمطر والرطوبة التي واجهناها بعد ذلك في "السودان". وقد أخذت معي نحو ٩٠٠٠ قدم من الأفلام من أجل كاميرا التصوير السينمائي، وقد حالفني الحظ في العمل الفوتوغرافي كله، وعلى الرغم من أن الأفلام لم تحمض إلا بعد أن عدت إلى مصر بعد ثمانية أشهر من ذلك، فإن نسبة الفشل كانت ضئيلة ومعقولة.

وبالنسبة للملبس أخذت معي الزي البدوي التقليدي، الذي يتكون من القمصان البيضاء والسراويل الطويلة، وكلها مصنوعة من القطن، بالإضافة إلى "جيرد"^(٨) صوفى، وجاكيت حريري، وصديريات وبنطلونات من القماش مثل تلك التي تُستخدم عند ركوب الخيل ولكنها تصل إلى رسغ القدم، والأخيرة كنت أستخدمها فقط في المناسبات الرسمية عند دخول الواحة ومغادرتها.

لم أرغب في ارتداء ملابس الصحراء حتى نهاية المرحلة الأولى من الرحلة؛ فقد تركت السلوم في معطف كاكي وبنطلون ولّى بالفعل

(٨) قطعة طويلة من القماش يبلغ طولها نحو ثلاثة أمتار، بينما يبلغ عرضها نحو مائة وعشرين سنتيمتراً، وهي تصنع في الغالب الأعم من الصوف الناعم، وتلف حول الجسم بطريقة خاصة بغرض التدفئة والحماية من رياح الصحراء. "المترجمان"

أيام مجدهما، وكان فى قدمى خف بدوى أصفر اللون، وهو الوحيد الذى يصلح ارتداؤه عند السفر فى الصحراء، وعلى رأسى قبعة مصنوعة من جلد النمر، نظراً لأن الجو كان قارص البرودة فى ذلك الوقت، ولا شك أن شكلى كان مضحكاً للغاية عندما بدأنا رحلتنا.

عند السفر إلى أرض مجهولة - خاصة فى الشرق - من المهم أن تكون قادراً على تقديم هدايا إلى الأشخاص البارزين الذين سوف تقابلهم، وقد اصطحبت معى ما كان يبدو كمية هائلة من الحرائر، والأوعية النحاسية، والمباخر المزينة بالفضة، وزجاجات العطر، والمناديل الحريرية، والأباريق الفضية، وأكواب الشاي، والأجراس الفضية التى كان البدو يسرون باستخدامها فى استدعاء عبيدهم بدلاً من التصفيق المعتاد بالأيدى. وعندما رأيت كل هذه الهدايا وهى تحزم، شعرت - بيقين - أننا سوف نعود بنصفها، ولكن عندما وصلنا إلى "الكفرة" اكتشفت أن أمر الهدايا لا يقتصر على من كانوا فى الحسبان، بل إن كل فرد قدّم لى خدمة تافهة خلال رحلتى السابقة، كان يتوقع أن يُكافأ على الخدمة التى سبق أن قدمها. ولم يكن لدينا الكثير من البضائع التى ذكرتها من أجل هذه الهدايا، وعلى الرغم من ذلك فلم أشعر أن تلك الهدايا كان لها دور فعال فى جعل رحلتى أكثر سهولة، بقدر أنها كانت مجاملة من البدوى الذى جاء من الحضر إلى أخيه البدوى فى الصحراء.

ثم تأتى بعد ذلك الأدوات العلمية التى كانت أكثر أهمية من كل ما سبق جميعاً لقيمتها فى رصد الظواهر الطبيعية التى مررنا بها خلال الرحلة.

امتلاً الأسبوعان اللذان أمضيتهما فى " السلوم " بالأيام المزدحمة
والبسيطة كما كانت أدواتنا؛ فكل شىء يجب أن يكون أقرب إلى
الصواب ويلقى العناية اللازمة؛ فالأشياء سوف تحمل فوق ظهور
الإبل فى كل صباح، وتوضع عنها كل مساء، وترص كحواجز
لمواجهة الطقس والهجوم المحتمل؛ لذا يجب أن تُحزم بشكل محكم
وآمن، كما أنه فى نهاية يوم الترحال غالباً ما يؤدي عدم مبالاة
الجمالين أو إجهادهم إلى أن يتركوا الصناديق والأحمال تسقط من
فوق الإبل دون عناية بدلاً من أن يتعاملوا معها بالاهتمام اللائق.

الفصل الرابع

الخطط والنذر

«لقد وضعتُ خططى كلها على أساس التوجه مباشرة صوب الجنوب إلى "جغبوب"، إلا أنه حدث أمر ما - قبل موعد الرحيل بيومين - قد أزعجنى».

ففى إحدى الأمسيات كنت أجلس فى حجرتى بإحدى الاستراحات الحكومية الصغيرة مشغولاً بتأمل ملاحظاتى العلمية، حيث سمعت طرّقاً على الباب، لم أستطع تصور من ذا الذى يريدنى فى هذه الساعة، لكنى توجهت إلى الباب وفتحته قليلاً، فوجدت أحد البدو الذين لا أعرفهم يقف هناك وهو يلف نفسه - وفق الطريقة البدوية - بجيرده، أغلقت الباب سريعاً، وسألته "من أنت؟"

فأجاب "صديق"، ولا أدرى لماذا لم أطمئن إلى رده.

سألته ما اسمك؟ وماذا تريد؟

فأردف زائري عبر الباب الموصد "أنا صديق ولدى شىء أريد إخبارك به، ويجب أن تعرفه".

فتحت الباب وسألته عما يريد إخبارى به.

فدخل وقال "سوف تأخذ الطريق المباشر إلى جغبوب؟" قالها متسائلاً.

أومات بالإيجاب.

فوجدته يقول بقوة " لا تذهب".

سألته " لماذا؟".

فأجاب "اليه رجل غنى، يحمل معه قدرًا كبيرًا من نعم الله، والإشاعات تقول إن معك صناديق كثيرة مليئة بالذهب، والبدو جشعون".

ورأيت أنه نصف مصدق لهذه الإشاعات على الرغم من تظاهره بعدم تصديقه لها.

"وقد اتفق الجمالون مع بعض أصدقائهم على الطريق أن يكمنوا لك ليسرقوك، وسوف تفقد مالك، إن لم تكن حياتك".

فأجبتته ملوحًا " يستطيع المرء دائمًا القتال".

فوافقتنى قائلاً "ربما يكون ذلك ممكنًا إذا كان معك عدد كبير من الرجال".

ولم يكن معى عدد كاف من الرجال؛ لذا سألتته عن معلوماته الأخرى؛ فقد بدت القصة مقنعة إلى حد ما، وعندما علمت أن زائرى قريب لأحد الأفراد الذين سبق أن أسديت إليه صنيعة فى مهمتى السابقة للسوسى، شعرت أنه قد يكون من الحكمة تصديقه؛ لذا شكرته على تحذيره، وبعدها رحل فى ظلام الليل، وجلست أقلب أمر هذا الموقف الميلودرامى الذى لم يكن فى الحسبان.

فأهل الصحراء سريعون فى تعقب دوافعك إذا ما استطاعوا، وإذا لم يستطيعوا فسرعان ما تتسج الأقاصيص المتخيلة ليقدروا من أنت؟

وما معك؟ وماذا تتوى فعله؟ ونظرًا لأن معظم أمتعتنا كانت فى صناديق، والصناديق لعقل البدوى تعنى كنوزًا، وإذا كانت ثلاث بنادق فى صناديقها ترجمت إلى مدافع حربية، فما المانع من أن تترجم صناديق الكاميرات والأدوات العلمية إلى ذهب وأوراق بنكوت؟ لذا لم يكن غريبًا أن أصحاب الإبل التى استأجرناها، كانوا مقتنعين أننى ذاهب إلى الصحراء بثروة طائلة لسبب غير معلوم، وليس من المستبعد أن يكونوا قد خططوا لسرقتى، وكان الشجار - مهما نكن موفقين فيه - قد يعد بداية رديئة لمشروعنا؛ لذا رأيت أنه من الأفضل تجنب هذه العقبة عوضًا عن مواجهتها.

ومن غير إبطاء - فى اليوم التالى - وجد أصحاب الإبل الذين اكتشفت خطتهم الصغيرة أنهم قد أعفوا من الرحلة، وتم استئجار آخرين مع إبلهم ليقلونى إلى "سيوة" بدلاً من الطريق المباشر إلى "جغبوب"، فقد كنا سنسير بطول ضلعي مثلث يشغل رعوسه كل من "السلوم"، و"سيوة"، و"جغبوب". وكان هذا الأمر بالفعل يزيد من طول الجزء الأول من رحلتنا، إلا أن أمر الطول والزمن كانا أقل أهمية من الوصول بسلام؛ فالطريق عبر "سيوة" به العديد من المميزات؛ فهو يمتد داخل الحدود المصرية وليس داخل إقليم مأهول بالقبائل التى ينتمى إليها الجمالون السابقون، الأمر الثانى أنه يمتد عبر حدود يمر بها كثيرون؛ حيث سيصبح كمون المتأمرين على قافلتنا أمرًا محفوفًا بالمخاطر، أما النقطة الأخيرة فهى أن سرعة رحيلنا بعد تعديل خططنا على هذا النحو لن يتيح الوقت للمتأمرين أن يعدوا خطة جديدة إذا ما أرادوا ذلك، لكل هذا بدت الخطة آمنة، وقد أثبتت أنها آمنة بالفعل.

مع حلول الأول من يناير سبقتنى القافلة، وبعد ثلاثة أيام من ذلك تفضل الملازم أول باثر BATHER باصطحابى فى سيارة لألحق بها، وقد وجدناها عند " ديجنيش " التى تبعد نحو ستة وثلاثين ميلاً، وبعد أن ودعت الملازم استأنفت الرحلة.

كان لا يزال هناك نحو ستة أيام سفر قبل أن نصل إلى "سيوة"؛ لذا استثمرنا وقت فراغنا خلال هذه الفترة فى تمويه صناديقنا وحقائبنا لنشبه أمتعة البدو المألوفة، والحادثة الوحيدة الجديرة بالذكر خلال هذه الأيام الستة هى حدوث أول فال حسن من ثلاثة أمور اعتُبرت مؤشراً على أن رحلتنا سوف تتوج بالنجاح.

فى ظهيرة اليوم الخامس، رأيت غزالاً يرعى على مسافة قريبة من قافلتنا، فسعيت خلفه دون أى تفكير مسبق سوى الأمل فى الحصول على لحم طازج، وفى هذه الأثناء سمعت صياح الرجال من خلفى يحاولون أن يُثثوني عن هذا الأمر، لم أستطع فهم سبب معارضتهم فى الذهاب خلف هذا الصيد، خاصة وأن البدو يعشقون اللحم، وتخيلت أنهم يخشون من أن ذهابى بعيداً عنهم قد يوقف تقدم القافلة، ولم يبدُ لى هذا السبب كافياً؛ لذا تابعت سعيّ، وبعد عدة مطاردات صوبت بندقيتى نحو الغزال وأصبته فى مقتل.

وبينما كنت أقترّب من القافلة عائداً بما اصطدته، دهشت مرة أخرى؛ فقد وجدت الرجال يعدون نحوى وهم يلوحون بأذرعهم ويصيحون مرحاً وتهنئةً، لم أستطع فهم سلوكهم الحالى بقدر عجزى عن فهم سلوكهم السابق، حتى جاءنى التفسير، وعلمت عندها أن من تقاليد البدو أن أول طلقة نار تطلق نحو صيد ما بعد رحيل القافلة

تعد طلقة حرجة؛ لأنها لو طاشت فإنه سوف تحل كارثة ما بالقافلة - بلا شك - قبل أن تنتهى الرحلة، أما إذا أصابت الهدف فإن الحظ السعيد سوف يبتسم للمهمة بأسرها؛ لذا كان رجال القافلة كارهين أن يرونى أضع حظنا على المحك بهذه السرعة، ووقتها قلت لنفسى إننى لو تذكرت قواعد السفر عند البدو لكنت ادخرت أولى طلاقى لأطلقها عندما نصل إلى " الفاشر"، بعد ستة أشهر من ذلك.

أمضينا ثلاثة أيام فى " سيوة" ^(٩) حيث استأجرنا إبلاً أخرى للرحلة إلى "جغبوب"، بالإضافة إلى استكمال بعض الاستعدادات النهائية؛ فقد كانت "سيوة" هى النقطة الأخيرة من العالم الذى سوف أتركه خلفى؛ فهنا سوف تنتهى الخدمات البريدية والبرقية، وبعد هذه النقطة لا يوجد شىء يُشترى سوى منتجات الصحراء، وبعض الأرز أو القماش، وربما كان ثمنها باهظاً جداً.

خلال هذه الأيام الثلاثة استمتعت بالضيافة والمساعدة الكريمة التى حظيت بهما من إدارة المناطق الحدودية ممثلة فى شخص المأمور كامل أفندى والموظفين الرسميين فى المدينة والملازم أول لولر LWLER قائد القوات هناك.

* * *

تعد "سيوة" أكبر الواحات وأكثرها سحرًا: بينابيع مائها الرائعة، وفاكهتها الممتازة، وتمرها الذى يعد أفضل نوع فى العالم، بما يجعلها

(٩) تقع سيوة على خط طول ٢٥,٣٠° وخط عرض ٢٩,١٢°، وهى تبعد عن السلوم جنوبًا بنحو ٢٠٠ ميل وعن القاهرة فى الاتجاه الجنوبى الغربى بنحو ٣٥٠ ميلًا، ويبلغ مستوى منسوبها قياسًا لمنسوب سطح البحر نحو ٤٢ مترًا. "المترجمان"

جديرة بأن تكون مشهدًا لصورة رائعة، كما أن بها أكثر التقاليد غرابة وطرافة؛ فعلى سبيل المثال إذا فقدت امرأة زوجها فإنها تظل أربعين يومًا دون اغتسال ودون أن يراها أحد؛ حيث يُلقى الطعام إليها من خلال شق في باب مسكنها، وعندما تنتهى هذه الفترة تذهب للاغتسال عند إحدى الآبار، وفي رحلتها هذه يحاول كل فرد تجنب مسارها؛ لأنها تدعى في هذا الوقت " غولة"، ويُعتقد أنها تجلب الحظ السيئ لكل من يراها في هذا اليوم " اليوم الأول لاستحمامها".

وفي سوق التمر الذى يُسمى "مسطاح" تعرض كل أنواع البلح معًا - أفضلها وأرداها - فى أكوام، ولا يُفكر أحد فى لمس أى بلح لا يخصه، أو فى خلط البلح الجيد بالبلح الرديء لتحقيق ربح أكبر، بينما فى المقابل يستطيع أى فرد أن يدخل السوق ويأكل ما شاء له من أفضل الأنواع دون أن يدفع مليمًا واحدًا، ولكن عليه فقط ألا يأخذ معه أى شيء إلى خارج السوق.

كما يوجد فى "سيوة" ضريح لأحد الأولياء يضع عنده الأفراد متعلقاتهم كأمانة؛ فإذا كان المرء ذاهبًا إلى أحد الأماكن البعيدة يستطيع اصطحاب حقائبه وأكثر الأشياء قيمة ويضعها بالقرب من هذا المقام، ولا يستطيع أى فرد حتى أن يحلم بلمسها، وحرفيًا إذا ترك أى فرد سرّة مليئة بالذهب هناك فلن يلمسها أحد، ومرد ذلك اعتقاد بسيط - لكنه غير قابل للدحض - فيما بينهم، بأنك إذا ما لمست أى شيء قريب من الضريح وهو لا يخصك، فإن سوء الحظ سوف يصيبك ما حييت.

عندما كنت أتأهب لمغادرة "سيوة" كانت مجموعتى الصغيرة من الرجال قد تضاعف عددها؛ ففي "السلوم" أضفت إلى عبد الله وأحمد

رجلاً يُدعى حامد من قبيلة "مونافا"، وقد تميز بأنه كان أكثر من يعمل بمفرده في القافلة بأثرها؛ فلم أره يوماً متعباً، وقد كلفته بالعناية بجملى، ثم بعد ذلك بالفرس الذى حصلت عليه فى "الكفرة"، والشخص الرابع فى المجموعة كان إسماعيل وهو من "سيوة"، ورغم أنه كان يبدو ضعيف الجسم، فقد كان آخر من يستسلم على الطريق ويمتطى الإبل، وإسماعيل هو ذلك الشخص الذى اعتدت أن أطحبه معى عندما كنت أذهب لاستطلاع مواضع العينات الجيولوجية، أو عندما كنت أجمع بعض الملاحظات العلمية عن بعض المواضع؛ فقد جاء من واحة تقع عند الحدود المصرية، حيث البريد والتلغراف هناك جعلاه على اتصال بالعالم الخارجى؛ لذا كانت شكوكه البدوية الفطرية أقل من الشكوك الفطرية التى يتسم بها البدو الآخرون، تلك التى قد تحيل كل فعل بسيط غير مفهوم إلى شيء ذى دوافع مختلفة، ذات مرة سألتنى "لماذا يجمع البيه شظايا الصخور؟" ما لم يكن هناك ذهب فى داخلها أو ينوى العودة ليحتل البلاد؟ وعندما قلت له الأمر ليس كذلك يا إسماعيل؟ أجاب "إذا كان البيه يريد بعض الصخور، فما على البيه إلا أن يطلبها منا."

رحلت مع قافلتى الجديدة عن "سيوة" يوم ٤ ايناير، لنقطع بذلك آخر صلة لنا بالعالم الخارجى، وعند أول توقف، نزلت عنى سترتى الكاكي وارتديت الزى البدوى، وعندها شعرت أننى أصبحت جزءاً من حياة الصحراء، وكان أثر ذلك على الرجال فوراً؛ فقبل ذلك كانوا يقتربون منى بحرج وتكلف، أما الآن فقد عادوا إلى طبيعتهم يُقبّلون يدي على الطريقة البدوية، ويقولون "الآن أصبحت واحداً منا".

أما الفأل الحسن الثانى فقد حدث لنا علي بعد بضعة أميال خارج "سيوة"؛ إذ وجدنا بعض التمر فى طريقنا، خلفه أحد التجار سيئى الحظ الذى أصابته حادثة بينما كان متوجهاً بحمولته إلى السوق. والتمر على الطريق بمثابة وعد بحظ جيد فى الرحلة المزمعة؛ فمن الشائع عندما يرحل بدوى مع قافلته أن يسبقه أصدقاؤه سرّاً ويلقون بعض التمر فى الطريق الذى يُفترض أن يمر به.

لذا فمع طلقتى الأولى والغزال الذى اصطدته، والتمر الذى عثرنا عليه على الطريق أصبح لدينا مبرر جيد لأن نكون متفائلين، لكن أفضل هذه البشائر على الإطلاق كان على وشك الحدوث. فقد سبق وأن أرسلت رجلين ليسبقانا برسالة إلى السيد إدريس فى "جغبوب" أعلمه فيها باقترابى؛ فالمرء فى الصحراء لا يتوجه لزيارة شخص ذى مقام رفيع، أو حتى صديق له فجأة وعلى نحو غير متوقع؛ فلا بد أن يكون هناك وقت لكليهما ليرتديا ملابس جديدة لائقة، ويذهبا إلى اللقاء كسيدين كريمين.

وبعد أن غادرنا "سيوة" بيومين، كنت أسير خلف القافلة على مسافة ما، عندما فوجئت بتوقفها، وعندما سألت عن سبب ذلك التوقف غير المعتاد جاءنى الرد بأن الرسولين جاءا يقولان إن السيد إدريس سوف يكون هنا خلال ساعة، وكان مجيء رئيس السنوسية بنفسه للمقائنا فى بداية رحلتنا هو أسعد مبشر بيمن الطالع، أما بقية الرسالة فكانت تعكس آداب السلوك فى الصحراء؛ فقد تضمنت الطلب بأن نخيم حتى يحضر إلينا الرجال.

وفى التو نصبنا خيامنا، وقبل مرور فترة طويلة ظهرت طليعة قافلة السيد إدريس وهى تقترب، وخيمت على مسافة قريبة منا، وبعد

نصف ساعة من ذلك تقدم السيد إدريس بنفسه ترافقه حاشيته صوب خيمتي، وذهبت للقاءه.

قابلني السيد إدريس بمودة بالغة، واستأنفنا التعارف الذي تم في اللقاء السابق، مع تقدير بالغ من جانبي وسعادة ظاهرة من جانبه، فما كان لرحلتي السابقة أن تتجح مطلقاً لولا مؤازرته ومساعداته التي قدمها لنا.

تغدينا في خيمته؛ حيث تناولنا الأرز، والدجاج المطهى، والكعك البدوي الحلو، ثم شربنا الشاي المعطر بالنعناع وماء الورد، وأبلغته بخططي، وأخبرته عن أنباء العالم الخارجى، وكان مهتماً بأن يعرف النتائج النهائية لمؤتمر السلام فى فرساي.

وبناء على اقتراحه أحضرت كل رجال قافلتى إلى خيمته لينالوا بركته، وبينما كنت أصغى معهم إلى الكلمات المألوفة التى تقال فى هذه الظروف وهى تتدفق من بين شفتيه، تبادر إلى ذهنى فى تلك اللحظة صورة الحجرة التى كان يعبقها البخور فى القاهرة وصورة أبى وهو يبارك رحلتى، وكيف قفز خيالى آنئذ صوب الصحراء والإبل وحياة البدو، أما الآن فالحاجة للتخيل قد ولت؛ فقد كنت فى ملابس بدوية وخلفى إبل قافلتى، بينما يمتد أمامى الطريق إلى الهدف الذى أنشده.

أما الرجال فقد كانت تجربة أن يُباركوا من السيد إدريس ذاته، دليلاً قاطعاً على النجاح الذى سوف نحققه؛ فلا شىء يمكن أن يؤذينا الآن ولا شىء يُضارع مقابله.

عند الغروب ودّع كل منّا الآخر، وتم تفكيك المخيمين، لتمضى كل قافلة فى مسيرتها؛ حيث اتجه السيد إدريس شرقاً إلى مصر، بينما اتجهت غرباً إلى "جغبوب"، داخل الصحراء، وحيثما كنا نسير أصرّ رجالى على تتبع الآثار التى خلفتها قافلة السيد إدريس، حتى ينالوا أكبر قدر من حسن الطالع الذى حدث لنا.

الفصل الخامس

السنوسية

«ربما لا تكتمل أية قصة عن الصحراء الليبية ما لم تتضمن جزءًا عن السنوسية، صاحبة النفوذ الأعظم في هذا الإقليم، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع معقد، وأن الإنصاف يقتضى تناوله في مؤلف كامل، فإننا في هذا الفصل المحدود سوف نمر مرور الكرام على النقاط المهمة من تاريخ السنوسية».

السنوسية ليست عرقًا، أو وطنًا، أو كيانًا سياسيًا، أو دينًا، على الرغم من أنها تجمع في ثناياها بعضًا من هذه الخصائص الأربع؛ ففي الواقع يعد السنوسيون - على وجه الحصر - بدوًا مسلمين، يتركز معظمهم في الصحراء الليبية، ويمتد نفوذهم على مساحة كبيرة من هذا الإقليم، كما تعترف بهم الحكومات المحيطة باعتبارهم قوة حقيقية في شئون النطاق الشمالى الشرقى من أفريقيا، وربما كان أفضل وصف موجز للسنوسية هو أنها سلطة دينية، قيادتها وراثية، تهيمن على البشر في الصحراء الليبية.

ويمكن تقسيم تاريخ إخوان السنوسية إلى أربع مراحل اتخذت كل منها ملامحها من شخصية قائدها؛ هم على التوالى: السيد بسن على السنوسى وهو مؤسس الطريقة، ثم السيد المهدي ابنه، ثم السيد أحمد ابن أخى الأخير، وأخيرًا السيد إدريس وهو ابن المهدي والرئيس الحالى لإخوان السنوسية (في هذا الوقت).

السيد محمد بن علي السنوسي: يُعرف بالسنوسي الكبير، ولد في الجزائر^(١٠) عام ١٢٠٢ هجريًا الموافق ١٧٨٧ ميلاديًا، ويعود نسبه إلى رسول الله ﷺ،^(١١) نال تعليمًا دينيًا رفيع المستوى في جامع القرويين بفاس بالمغرب، وفي مكة المكرمة؛ حيث تتلمذ على يد الإمام العالم سيدي أحمد بن إدريس الفاسي، وقد طورت نزعته ومال نحو الزهد والتصوف، وزادت قناعته بأن ما يحتاج إليه دينه هو العودة إلى الصورة النقية للإسلام كما تتمثل في تعاليم رسول الله ﷺ.

وفي الواحد والخمسين من عمره أرغم على ترك مكة بناء على معارضة الشيوخ الكبار الذين تحدوا تشدده؛ لذا عاد إلى برقة - مارًا بمصر - وبدأ في إنشاء مراكز لنشر تعاليمه بين البدو.

وفي هذه النقطة سوف نوضح معنى ثلاث كلمات سوف ترد بعد ذلك في النص، وهي: "الزاوية"، "الإخوان"، "الوكيل".

الزاوية:^(١٢) هي بناية تتكون من ثلاث حجرات، وغالبًا ما يرتبط

(١٠) بلدة "مستغانم". المترجمان "

(١١) يرد ذكره بأنه الإمام المجتهد الولي الصالح الداعية سيدي محمد بن علي السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن القطب الشهير السيد يوسف بن القطب السيد عبد الله بن الخطاب بن علي بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا علي بن أبي طالب وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت إمام المرسلين ﷺ. المترجمان "

(١٢) يقول الإمام السنوسي في إحدى رسائله " والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحضر والباد، ولأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان"، وقد وضع الإمام السنوسي مجموعة قواعد لتشييد الزوايا وعملها، من بينها:

أ - تشيد الزاوية على قطعة من الأرض يتم الاتفاق عليها مع القبيلة أو القبائل =

حجمها بأهمية المنطقة التي توجد فيها: تخصص الأولى للدراسة حيث يتلقى فيها أبناء البدو تعاليمهم على يد الإخوان، بينما تستخدم الثانية نزلاً للزائرين حيث يتلقى فيها المسافرون الضيافة لمدة ثلاثة أيام كما تقضى بذلك تقاليد البدو، بينما فى الثالثة يقطن إخوان السنوسية.

وتُشيد الزاوية عادةً بالقرب من إحدى آبار المياه حيث من الطبيعى أن يتوقف المسافرون، وتلحق بها فى الغالب الأعم قطعة أرض صغيرة يزرعها الإخوان.

الإخوان: هم الأعضاء النشطون فى الجماعة، القائمون على تعليم مبادئها ونشر تقاليدها، وتأتى كلمة "الإخوان" دائماً بصيغة الجمع، ولا تستخدم بصيغة المفرد مطلقاً حيث تستخدم الكلمة للمفرد والجمع.

الوكيل: هو الممثل الشخصى أو نائب زعيم السنوسية داخل المنطقة التى توجد بها الزاوية.

=صاحبة الشأن، ويُفضل أن يختار لموضعها ربوة عالية تُشرف على ما حولها، ويتوفر بها المناخ الصحى، وتعتبر قطعة الأرض التى بنيت فوقها الزاوية والمساحة المتفق عليها أن تتبع الزاوية من الجهات الأربع وقفاً، لا يستطيع أحد أخذه، ويسرى عليه حكم الأبدية بإذن الله سبحانه وتعالى.

ب - تتكفل القبيلة أو القبائل صاحبة الشأن بتكاليف بناء الزاوية.

ج - الحرم المتفق على تخطيطه حول الزاوية يصبح حرماً آمناً لمن دخله واستجار به، ولا يجوز أن يُطلق الرصاص فى داخله أو أن يُشهر السلاح أو التشاجر، أو رفع الصوت بالغناء أو بالخناق، كما يمنع فيه رعى الحيوان.

د - لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزوايا المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى على حدود الآخرين.

هـ - على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنوياً، كلهم أو بعضهم، إذا ما رأوا وجوب ذلك.

و - تتكون موارد الزاوية من الزراعة، ورعى الأغنام، والهبات الخيرية، والزكاة الشرعية.

وقد وجد السنوسى الكبير أن المسلمين فى " برقة " قد سقطوا فى البدع، كما زاد الانحلال والانحطاط الفكرى فيما بينهم، ليس فقط من وجهة النظر الدينية، بل أيضاً من وجهة النظر الأخلاقية، ولعلنا نورد بعض الأمثلة الصغيرة لإيضاح هذه النقطة.

فقد شيد بعض زعماء البدو من أصحاب النفوذ فى الجبل الأخضر،^(١٣) الذى يقع شمال برقة، بنياناً أشبه بالكعبة الحقيقية الموجودة فى مكة المكرمة، وعملوا على ترويج فكرة مفادها أن الحج إلى هذه الكعبة الزائفة، قد يعد بديلاً عن الحج إلى الكعبة المشرفة التى تعد قبلة القبل، ومن الثابت أنه على كل مؤمن أن يحج إليها متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كما أنه على الرغم من التسليم بأن صوم رمضان - الذى يعد وقتاً للتقشف والتأمل الدينى - وأحد الأركان الرئيسية فى إيمان المسلم، فقد اعتاد البدو أن يذهبوا قبل بداية شهر رمضان المعظم إلى واد يُقال له " وادى زازا"، الذى يشتهر بترديد جدرانه لصدى الأصوات التى تطلق فيه، ثم يصيحون بالسؤال التالى: وادى زازا، يا وادى زازا هل نصوم شهر رمضان أو لا؟ وبالطبع فإن رجع الصدى يُعيد ترديد الكلمة الأخيرة من السؤال وهى "لا..لا..لا.."، وعندها يعود من أجابهم الله من خلال وسيطه إلى ديارهم وهم يحملون تبريراً على عدم الصوم.^(١٤)

(١٣) يتوارث بعض المتصوفة الليبيين حتى الآن رواية مفادها " أن هذا الجبل يعد من الجبال المباركة، وأن كل الأولياء عبدوا فيه الله سبحانه وتعالى ولو ساعة. " المترجمان

(١٤) ويشبه هذا الأمر ما كان يعتقد الإغريق من وجود "أوركل" أو وسيط تجيب الآلهة من خلاله. " المترجمان

كما وجد أيضاً بعض العادات المنتشرة بين البدو التي تعود إلى الجاهلية مثل وأد البنات، لإثناذهن من الشر الذي قد تجلبه حياتهن، وبالطبع كان كل ذلك يقف حائلاً بين التزامهم بالتعاليم القويمة للإسلام.

وفي ظل هذه الظروف فإن ما كان يدعو إليه مؤسس إخوان السنوسية في تعاليمه ووعظه هو العودة إلى خيمة الإسلام النقية، وهو ما التقى مع الاحتياجات الملحة للإيمان القويم في هذه المنطقة.

وقد شيد السيد بن علي السنوسي أول زاوية في أفريقيا في "سيوة"، التي توجد في مصر بالقرب من حدودها الغربية، ومن هذه النقطة تحرك صوب الغرب إلى "برقة" فأنشأ زوايا في "جالو" و"عجيلا"، ثم أكمل مسيرته صوب الغرب فشيّد زوايا في كل من طرابلس، وتونس. وتدرجياً انتشرت تعاليمه بين البدو في كل هذا النطاق؛ حيث كانت تسبقه سمعته بوصفه رجلاً ورعاً وعالماً جليلاً، حتى إن زعماء البدو تنافسوا فيما بينهم على استضافته.

وعندما عاد إلى "برقة" عام ١٨٤٣ أنشأ في الجبل الأخضر بالقرب من "درنة" زاوية كبيرة سُميت بـ "الزاوية البيضاء"، وحتى ذلك الوقت لم يكن لديه مركز لقيادة السنوسية، بل كان يحيا حياة المعلم الجوّال، إلى أن استقر به المقام في "الزاوية البيضاء"، واستقبل فيها زواره من قادة البدو ووجهاء برقة.

ودعا السنوسي الكبير إلى العودة إلى صورة الإسلام النقية، والالتزام بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولا شك أن أفضل نموذج عن تعاليمه هو ذلك المقطع المقتبس من رسالة بعث بها إلى شعب "واجانجا" في "واداي" - وقد رأيت نصها الأصلي في "الكفرة" - قال فيها: "إنا ندعوكم بدعوة الإسلام لطاعة الله ورسوله، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (١٥) وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (١٦) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (١٧).

والطاعة هي الامتثال لأمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وأداء زكاة الأموال وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور... وغير ذلك مما حرم الله سبحانه وتعالى. فبذلك تنالون الخير الأبدى والربح السرمدي الذي لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان".

وكان الاهتمام الرئيسي لمؤسس الطريقة السنوسية يتعلق بالعبد الديني للحياة؛ فهو لم يسعَ لأن يكون قائدًا سياسيًا، أو يحظى بسلطة دنيوية، فقد دعا للتقشف في الحياة بمثل الحماس الذي مارسه به، وهو لم يعلمهم مذهبًا دينيًا محددًا، كما لم يلزمهم بقبول عقائد خاصة، لكنه

(١٥) سورة محمد: آية ٣٣.

(١٦) سورة النساء: آية ٨٠.

(١٧) سورة النساء: آية ٦٩.

اهتم كثيرًا بسلوك أتباعه مقارنة باهتمامه بالأمور المذهبية، وإضافته الوحيدة للشعائر الإسلامية هو دعاء واحد كتبه بنفسه، ويسميه السنوسيون "الحزب"، وهو لا يتعارض مع أى من تعاليم الفقهاء، كما لا يضيف جديدًا لما ورد بالقرآن الكريم، لكنه ببساطة يكرر بعض ما ورد به فى صياغة مختلفة.

وفى خطابه لشعب "واجانجا" - الذى أقتبس منه المقولة التالية - التى يصف فيها المهمة التى ألقاها الله - سبحانه وتعالى - على عاتقه بقوله "تنبه الغافل، ونعلم الجاهل، ونرشد الضال".

وقد حرم كل صور الرفاهية فى العيش على أولئك الذين أخذوا على عاتقهم أن يكونوا من الإخوان؛ فقد حرم امتلاك الذهب والمجوهرات - باستثناء المخصص لزيينة النساء - وتناول التبغ وشرب القهوة، ولم يفرض أى طقس، وكل ما طلبه هو العودة إلى الصورة البسيطة للإسلام كما وردت فى تعاليم رسول الله ﷺ، ولم يكن متسامحًا فى التعامل ليس فقط مع المسيحيين واليهود بل أيضًا مع ذلك الجزء من العالم الإسلامى الذى - وفقًا لقناعته - حاد عن المعنى الحقيقى للإسلام.

وفى عام ١٨٥٤ أنشأ السيد بن على زاوية فى "جغبوب"، تطورت فى النهاية لتصبح مركزًا تعليميًا لتعليم إخوان السنوسية، ولم يأت اختياره "لجغبوب" عشوائيًا، أو على سبيل المصادفة، ولكنه يبين حكمته وذكاءه العملى؛ فقد كان مقتنعًا أنه يأتى على رأس أولوياته أن يسوى النزاع بين القبائل المختلفة فى الصحراء، وأن ينشر السلام فيما بينها. ونقتبس فقرة أخرى من خطابه لإيضاح هذه

النقطة: " لقد عزمنا على نشر السلام بينكم وبين العرب (يعد شعب واجانجا الموجه الخطاب إليهم من السلالات السوداء) الذين يغزون حدودكم، ويأخذون أبناءكم عبيدًا وأموالكم؛ إعمالاً لقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١٨) وأيضًا سوف نتبع طريقه " اتقوا الله، وأفشوا السلام فيما بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين".

وقد كانت "جغوب" نقطه إستراتيجية لغرضه؛ فهي تقع فى منتصف الطريق بين القبائل فى الشرق والغرب، الذين كانوا فى صراع دائم، وبجعل مركز قيادته هناك يستطيع السنوسى الكبير أن يبسط نفوذه ليضع حدًا لهذا الصراع، وينفذ أمر رسول الله ﷺ "وأفشوا السلام فيما بينكم"، إلا أنه من وجهة النظر العملية فإن "جغوب" لم تكن مكانًا واعدًا ليصبح مركزًا تعليميًا للأنشطة الدينية كما يأمل السنوسى الكبير؛ فهي لا تملك كثيرًا من مقومات الواحة، إذا جاز لنا أن ندعوها واحة بالفعل؛ فأشجار النخيل نادرة هناك، والماء مالح قليلًا، والتربة قاسية على الزراعة، إلا أن أهميتها الإستراتيجية - على كل حال - كانت واضحة، ودون تردد اختارها موضعًا لتمرّكه، ومن خلال تأثيره استطاع أن يضع حدًا للغارات المتبادلة بين القبائل فى الشرق والغرب، وسوى العديد من الضغائن والصراعات القديمة ليس فقط بين هذه القبائل بل أيضًا بين القبائل الأخرى فى "برقة".

(١٨) سورة الحجرات: آية ٩.

عاش السيد بن علي ست سنوات بعد أن استقر في "جغبوب"، وبسط نفوذه طويلاً وعرضاً؛ فقبائل الزوي، الذين اشتهروا بأنهم قطاع طرق "برقة"، وأنهم لا يخافون الله أو البشر، دعوه ليأتى إلى "الكفرة"، ويصبح زعيماً عليهم، وليؤسس زاوية هناك، واتفقوا فيما بينهم على أن يَقلعوا عن الغارات واللصوصية والهجوم على القبائل الأخرى،^(١٩) وعرضوا عليه ثلث ممتلكاتهم في "الكفرة" إذا ما قبل أن يأتى إليها، وبرغم أنه لم يستطع الذهاب شخصياً فقد أرسل نيابة عنه أحد الإخوان الشهيرين وهو سيدى عمر بوهوا الذى أنشأ أول زاوية سنوسية في "الجوف" بالكفرة، ومنها بدأت تنتشر تعاليم السنوسى الكبير بين الزوي، كما كُفَّ إخواناً آخرين بالذهاب إلى مناطق أخرى في الصحراء الليبية، وقبل موته كان كل البدو المنتشرين على التخوم الغربية لمصر وفي برقة قد أصبحوا من أتباعه. وقد وافته المنية عام ١٨٥٩، ودفن في الضريح الذى ترتفع فوقه القبة البيضاء في "جغبوب".

(١٩) يرى الدكتور جمال حمدان في كتابه "أنماط من البيئات" أنه يمكن تصنيف النهب والغزو في الصحراء باعتباره حرفة بكل ما في الكلمة من معنى، فعدم كفاية الموارد المشروعة يشرعها للبدوى بحيث لا تعتبر عاراً بل غاراً؛ لهذا جعل البدوى من النهب نظاماً - ويقول البعض تهكماً بل فناً جميلاً، وهدف الغزو إما مناطق الاستقرار المجاورة للصحراء، وإما القوافل التى يفرضون عليها إتاوات باهظة أو ينهبونها، وإما الواحات. وآلة قراصنة الصحراء هؤلاء هي الخيل، ومن أهم غنائم الغزو الرقيق؛ فهؤلاء القراصنة في موضع القوة الذى يسمح لهم بأسر أعداد كبيرة، لكنهم ليسوا في موضع الغنى الذى يسمح لهم باقتنائهم وغنائمهم؛ لذا تصبح النخاسة هي الحل الوسط؛ مما سبق يتضح مدى ما غيرته السنوسية في هذه القبائل، وما أضافته للمنطقة. " المترجمان "

سيدى محمد المهدي: تولى أمر السنوسية خلفاً لوالده، ورغم حداثة سنه آنذاك، حيث كان يبلغ من العمر ستة عشر عاماً عندما توفي والده، فإن اختياره خليفة لوالده دعمه أمران: أولهما يعود لواقعة حدثت في نهاية مقابلة مع والده، وكان المهدي بصدد مغادرة الحجرة، عندما نهض السنوسى الكبير وكلفه بإعداد خفه الذى كان قد خلعه عندما دخل، ووقتها خاطب مؤسس الطريقة الحضور بالكلمات الآتية "أشهدوا أيها الرجال الحاضرون كيف أن ابن على السنوسى رتب خفى ابنه المهدي" وقد اعتبروا أن ذلك لا يعد فقط إشارة إلى أن المهدي سوف ينجح في خلافة أبيه، بل إنه سوف يفوقه في ورعه وتقواه.

ثم كانت هناك أيضاً تلك النبوءة القديمة بأن المهدي الذى سوف يعيد للإسلام مجده، سوف يبلغ سن الرشد في الأول من محرم عام ١٣٠٠ هجرياً، ويولد من أبوين يدعيان محمد وفاطمة، ويمضى العديد من السنوات في مكان منعزل، وكان كل جزء من هذه النبوءة ينطبق على شخص المهدي، الذى وقع الاختيار عليه ليكون خليفة للسنوسى الكبير.

وعندما بلغ السيد المهدي سن الرشد كان يوجد في برقة نحو ٣٨ زاوية، وفي طرابلس نحو ١٨ زاوية، وفي مصر ما يقرب من ٢٠ زاوية، بالإضافة إلى العديد من الزوايا الأخرى التى تتوزع في شمال أفريقيا، وكان عدد أتباع السنوسية في هذا الوقت يتراوح بين مليون ونصف وثلاثة ملايين نسمة يدينون بالولاء الروحي لرأس الإخوة السنوسية، وعندما تولى المهدي هذا المنصب أصبح أكثر أفراد عائلة السنوسى شهرة.

وقد رأى منذ البداية أن هناك مجالا أكبر لمد تأثير السنوسية في اتجاه "الكفرة" والأقاليم التي تقع جنوبها مقارنة بالأقاليم التي تقع شمالها؛ لذا قام في عام ١٨٩٤ بنقل مركز قيادته من "جغبوب" إلى "الكفرة"، وقبل رحيله حرر كل عبيده، ولا يزال يعيش العديد منهم ومن أبنائهم في "جغبوب" حتى الآن.

وقد عُدَّ انتقاله إلى "الكفرة" بمثابة بداية مرحلة مهمة في تاريخ السنوسية، وأيضًا في تنمية التجارة بين السودان وساحل البحر الأبيض المتوسط عبر طريق "الكفرة"؛ فالطريق القاسي الخالي من المياه الممتد بين بئر "بوطفل" الذي يوجد بالقرب من "جالو" وبئر "زبغن" الذي يقع شمال "الكفرة" أصبح خلال عهد المهدي طريقًا تطرقه باستمرار وانتظام العديد من القوافل التجارية، بالإضافة إلى المسافرين القادمين لزيارة مركز السنوسية، حتى إن أحد البدو قال لي ذات مرة "إن المرء كان يستطيع السير لمسافة نصف يوم من نهاية قافلة إلى بداية الأخرى".

كما كان الطريق الممتد من جنوب "الكفرة" إلى "الواداي" يعد من الطرق الخطرة والقاسية في هذه الأيام، وقد تسبب المهدي في حفر بئرين على هذا الطريق في المسافة الممتدة من "الكفرة" إلى "تيركو" هما: "بيشرا" و"سارا".

وكانت هذه المجموعة من الواحات تعد مركزًا رئيسيًا للصوصية في الصحراء الليبية إبان حكم قبيلة زوى البدوية، الذين انتزعوا "الكفرة" من قبائل التبو السوداء؛ فقد كان الزوى من القبائل المولعة بالحرب، وفي الأيام التي سبقت قدوم السنوسى كان هناك قانون فيما بينهم يهددون بموجبه كل من يمر بحدودهم؛ فكل قافلة تمر عبر "الكفرة" سواء كانت قادمة من الشمال أو الجنوب كانت تتهب، أما

سعيدة الحظ منها فكانت تُجبر على دفع دية مرور للزوى، وقد أُنقِص المهدى المسيطرين على "الكفرة" بأن يُقلعوا عن فرض هذه الإتاوات، وأدرك أهمية تنمية تجارة الواحات والطرق التي تقطع الصحراء الليبية من الشمال إلى الجنوب، وناضل ليجعل السفر في الصحراء آمناً، حتى إن بوماتارى زعيم الزوى أخبرنى - عندما كنت فى "الكفرة" - أنه فى أيامه أمكن للمرأة أن تسافر من "برقة" إلى "الوادى" دون أن يتحرش بها أحد.

كما نجح المهدى فى مد دائرة نفوذ السنوسية إلى العديد من الاتجاهات؛ فقد أرسل الإخوان إلى الخارج لإنشاء الزوايا من المغرب فى أقصى الغرب إلى إيران فى أقصى الشرق، إلا أن جهده الأعظم كان فى الصحراء الليبية بين البدو وقبائل السود التى توجد فى الجنوب من "الكفرة"، وهو لم ينجح فى أن يجعل من السنوسية قوة روحية فى هذه الأقاليم، وذات تأثير قوى من أجل السلام والوئام بين القبائل فحسب، بل جعلها كذلك منظمة تجارية قوية محفزة على تنمية التجارة وازدهارها، وفى السنوات الأخيرة من حياته عمل شخصياً على مد نفوذ الإخوة صوب الجنوب، فقد ذهب إلى "جيرو" التى تقع إلى الجنوب من "الكفرة"، وعندها وافته المنية فجأة عام ١٩٠٠ م.

وكان أبناء المهدى فى هذا الوقت قاصرين؛ لذا أصبح ابن أخيه السيد أحمد رأس الإخوة السنوسية، باعتباره الوصى على السيد إدريس،^(٢٠) الذى كان الوريث الشرعى نظراً لأنه أكبر أبناء المهدى سناً.

(٢٠) كان السيد إدريس - أكبر أبناء المهدى - يبلغ من العمر فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عاماً. "المترجمان"

وقام زعيم السنوسية الجديد بانحراف مفاجئ عن سياسة من سبقوه؛ فقد أراد أن يجمع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وعندما استولى الإيطاليون على حكم برقة وطرابلس من الأتراك حاول السيد أحمد أن يوحد قوته الروحية كرأس للإخوة مع ما تبقى من القوات العسكرية التركية. وعندما اندلعت الحرب العالمية حثه مبعوثو الألمان والأتراك على مهاجمة الحدود الغربية لمصر، ولكن سعيه فشل فشلاً ذريعاً، وأجبر السيد أحمد على المغادرة إلى الآستانة في غواصة ألمانية.

وقد رأى ثالث زعماء السنوسية الأمور بصورة مختلفة عن السنوسى الكبير وأكبر أبنائه؛ حيث أدرك أن القوة الروحية لا يمكن هزيمتها على أرضها، فى حين أنه إذا ما نزل الميدان طالباً السيادة الدنيوية، فالأمر لا يتطلب سوى بضع قوات عسكرية مجهزة لتدمر سمعته؛ فقوة السيد بن على السنوسى والسيد المهدي تكمن فى أنفسهم وفى تأثيرهم الروحى الذى ينبع من ذاتهم، بينما تنازل السيد أحمد عن هذا التأثير وعول على الجيوش والذخيرة الحربية والظروف المحيطة، وعندما فشل كل هذا، لم يتبق له شىء.

وقد سلمت قيادة السنوسية بعد ذلك من يد السيد أحمد إلى وريثه المباشر السيد إدريس الذى يستمد جزءاً كبيراً من مكانته بلا شك من حقيقة كونه ابن المهدي، لكنه حتى دون هذه الميزة فإنه يمتلك من السمات الشخصية ما يكفى كأساس للنجاح فى ذلك المنصب المهم الذى تقلده؛ فهو يجمع بين كرم الأصل ودمائة الخلق مع شخصية حازمة لأعلى الدرجات، وهو لا يحظى بولاء ودعم ومؤازرة إخوان السنوسية فحسب بل يحظى بمثل ذلك أيضاً من سكان الصحراء الليبية.

وفى عام ١٩١٧ أبرمت اتفاقية بين الحكومة الإيطالية والسيد إدريس بوصفه رأس إخوان السنوسية، يحق له بمقتضاها أن يدير شئون واحات "جالو"، "وعجيلا"، و"جدابيا"، و"الكفرة"، واعترف بذلك بوضوح، وتم التصديق على هذه الاتفاقية مرة أخرى بعد عامين من ذلك فى "رجيما"، وللأسف الشديد فقد حدث سوء فهم عام ١٩٢٣ بين جانبى هذا الاتفاق تسبب فى تجميده، لكنه يؤمل على أية حال أن يتم توقيع اتفاق جديد بين السيد إدريس والسلطات الإيطالية لعله يعيد لهذه الواحات التى توجد فى الصحراء الليبية^(٢١) سلامها وازدهارها.

ولا مجال للسؤال عن أن تأثير إخوان السنوسية على حياة البشر فى هذا الإقليم كان جيداً، ولم يقتصر دور إخوان السنوسية على تعليم البشر الدين والمعلومات العامة، بل إنهم حكموا وتوسطوا بين الرجال

(٢١) هاجر السيد محمد إدريس بعد ذلك إلى "مصر" بعد شعوره أن الإيطاليين يتآمرون عليه، وفى عام ١٩٤٠ اتفق مع الإنجليز على تكوين جيش ليبى من المهاجرين الليبيين فى "مصر" و"سوريا"، سُمى بالجيش السنوسى، كما اتصل به الجنرال شارل ديغول وعرض عليه مساعدة "فرنسا" له فى طرد الإيطاليين، وفى عام ١٩٤٣ تخلصت "ليبيا" من الاستعمار الإيطالى إثر هزيمة "ألمانيا" وإيطاليا فى الحرب العالمية الثانية من دول الحلفاء "إنجلترا"، و"فرنسا"، و"الاتحاد السوفيتى"، و"الولايات المتحدة الأمريكية"، وخضعت كل من ولاية "طرابلس" وولاية "برقة" لإدارة عسكرية إنجليزية، بينما خضعت ولاية "قزان" لإدارة عسكرية فرنسية، وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م أعلن استقلال ليبيا المتحدة بولاياتها الثلاثة والمناداة بمحمد إدريس السنوسى ملكاً على "ليبيا"، وظلت تحمل اسم المملكة الليبية المتحدة حتى صدر قرار ملكى فى ٢٧ أبريل ١٩٦٣ م، بإنهاء الاتحاد وأصبح اسمها المملكة الليبية، ولكن الوعى الوطنى بدأ يطفو على السطح منذ عام ١٩٦٦، وفى عام ١٩٦٧ قاد "سليمان المغربى" المحامى المستعلم فى "الولايات المتحدة الأمريكية" أول إضراب لعمال النفط فى ليبيا، وفى الأول من سبتمبر عام ١٩٦٩ م اندلعت الثورة الليبية التى أطاحت بالملك إدريس، وقاد مجلس قيادة الثورة العقيد معمر القذافى. "المترجمان"

والرجال وبين القبائل والقبائل، كما وضحت ذلك بجلاء تلك الفقرة التي اقتبسناها من الخطاب الموجه إلى سكان "واجانجا" كيف جعل السنوسى الكبير من وظيفة صنع السلام واجبًا على إخوان السنوسية، وقد تطور هذا الأمر وأصبح أكثر أهمية على يد ابنه العظيم المهدي.

ومما لا شك فيه أن الدور الذى لعبته السنوسية فى حفظ الهدوء والسكينة بين البشر فى الصحراء الليبية من الصعب حصره أو تجاوزه.

الفصل السادس

سلام جغبوب^(٢٢)

«بعد ظهر اليوم التالى للقائنا مع السيد إدريس شاهدنا القبة البيضاء لجامع "جغبوب" ترتفع أمامنا، وطبقاً لتقاليد البدو خيمنا على مسافة قريبة من البلدة، وأرسلنا رسولا ليسبقنا ويعلن وصولنا، وبعد ساعتين عاد الرسول ليخبرنا أنهم جاهزون لاستقبالنا».

تقدمت القافلة، ومع اقترابها من الأسوار بدأنا فى إطلاق بنادقنا فى الهواء،^(٢٣) وكان فى استقبالنا عند البوابة سيدى حسين الوكيل أو ممثل السيد إدريس فى البلدة، ترافقه مجموعة من الإخوان الذين

(٢٢) كانت واحة "جغبوب" حتى ذلك الوقت تعد من الأراضي المصرية، وقد انتقلت تبعيتها إلى الحكومة الليبية عام ١٩٢٥، أثر توقيع "معاهدة جغبوب" لترسيم الحدود بين مصر وليبيا، بعد أن تنازل عنها الملك فؤاد إلى الجانب الليبي، الذى طالب بها نظراً لأنها تضم رفات عميد الأسرة السنوسية، وقد ساعد على إبرام هذا الاتفاق عدة عوامل لعل أبرزها ما يلى:

— ارتباط الملك فؤاد بعلاقات ودية طيبة مع الأسرة السنوسية والإيطاليين الذين كانوا يحتلون ليبيا فى ذلك الوقت.

— كان ترسيم الحدود بين "مصر" و"ليبيا" يعد أمراً مهماً للإنجليز الذين كانوا يهيمنون على السلطة فى مصر فى ذلك الوقت نظراً لوجود الإيطاليين على حدود مصر الغربية.

— تنازلت "ليبيا" فى المقابل للحكومة المصرية عن مرتفعات "السلوم".

"المترجمان"

(٢٣) تستخدم هذه الوسيلة للإعلان عن اقتراب القافلة. "المترجمان"

يدرسون فى المدرسة، بينما اصطف التلاميذ على طول الطريق، وظلوا يهتفون لنا بينما كنا نمر بينهم، وكان دفء ترحيبهم يتردد صداه فى قلوبنا.

كان الدخول إلى "جغبوب" بالنسبة لى بمثابة العودة للديار؛ فمنذ عامين كانت أقرب نقطة إلى نهاية رحلتى، والآن تقف بوصفها نقطة بداية أو واحدة من عدة نقاط. إنها الحقيقة؛ فهى مازالت تعد نقطة بداية للرحلة العظيمة التى ستبدأ.

وتقترن ذكرى زيارتى الأولى "الجغبوب" بالشعور الذى يملك المرء عندما تنتهى رحلة طويلة، أما الآن فإننى أدخلها وأنا مترقب المرحلة التالية من رحلتى ومستثار لى أبداً. ولا شك أن نهاية الرحلة وبدايتها لحظتان عظيمتان، ولكن المشاعر التى تقترن بكليهما مختلفة.

كنت متلهفاً لأبدأ من جديد، ولكن مر شهر وأربعة أيام قبل أن أستطيع العودة للطريق؛ لأنه لم يكن هناك أية إبل تنتظرنى، رغم أننى قبل أن أترك السلوم أرسلت رجلاً يدعى السيد على السيتى عبر الطريق المباشر "الجغبوب" ليقوم باستئجار الإبل المطلوبة، ويجعلها تنتظر إلى أن أصل من الطريق الطويل عبر "سيوة"، ولكن علياً هذا تحول بقدرة قادر إلى هواء، وبقدر ما علمت فقد ذهب لما يقرب من "جدابيا" دون تحقيق أى نجاح يُذكر؛ لأنه لم يجد أى بدوى على طريق "السلوم" يقبل أن يؤجر له الإبل التى أريدها، كما لم يجد أية إبل متاحة فى "جدابيا" أيضاً، انتظرت أسبوعين ولم تبدُ أية إشارة لعلى، ثم اكتشفت أن سبب عدم حصوله على الإبل يعود إلى أن استخدام

الطريق من "جغبوب" إلى "جالو" مقصور على بدو قبيلتي "الزوى" و"المجبرة"، ولا يجرؤ أى بدوى آخر على المغامرة بالسير فيه.

ورغم تلهفى على الرحيل من جديد، فإننى لم أستطع مقاومة سحر المكان وسكينته، الذى وجدت نفسى محتجزاً فيه.

وتعد جغبوب مركزاً تعليمياً ودينياً، فلا يوجد هنا تجارة أو زراعة، باستثناء بعض القطع الصغيرة من الواحة التى يزرعها العبيد السابقون - الذين أعتقهم السيد المهدي عند انتقاله إلى "الكفرة" - بالخضراوات، بالإضافة إلى بعض النخيل؛ فحياة البلدة تتمحور حول المسجد الذى يوجد بها، والذى يتسع لما يتراوح بين خمسمائة وستمائة فرد، والمدرسة التى تعد بمثابة مركز السنوسية للتعليم الدينى، وبالقرب من المسجد توجد بضعة منازل تخص عائلة السنوسى، والإخوان، بالإضافة إلى بعض المنازل الخاصة المتناثرة داخل الأسوار وخارجها، إلى جانب مجموعة من البنايات التى تتجمع بالقرب من المسجد، وتضم العديد من الحجرات التى تتسع لسكنى نحو مائتين أو ثلاثمائة طالب.

وقد بلغت "جغبوب" قمة مجدها عندما اتخذها السيد بن على "السنوسى الكبير" مركزاً لإخوان السنوسية، وعندما خلفه ابنه السيد المهدي استمرت أهمية البلدة بضع سنين حتى نقل مركز أنشطة الإخوان إلى "الكفرة"، ثم عندما تولى السيد أحمد الشريف - بصفته الوصى على السيد إدريس الصغير - السلطة، ازدهرت "جغبوب" مرة ثانية باعتبارها عاصمة للسنوسية. وقد تغيرت أهميتها عبر السنين من خلال حضور أو غياب رأس الأسرة السنوسية داخل

أسوارها. وإذا ما اتخذها السيد إدريس مرة أخرى مقرًا لقيادة السنوسية، فخلال شهرين سوف تفيض البلدة والمدرسة بالإخوان والطلبة والزوار لضريح السنوسى الكبير.

لكن خلال وقت زيارتي لم يكن هناك سوى ثمانين من صغار البدو، الذين يتراوح أعمارهم بين ثمانى وخمس عشرة سنة، يدرسون تحت إشراف الإخوان، وإذا ما كان هناك طلبة أكثر فسوف يكون هناك مدرسون أكثر، ولكن عند زيارتنا كان رأس عائلة السنوسية - الذى قابلناه فى طريقه إلى مصر - قد نقل مقر قيادته إلى "جدابيا" التى تقع بعيدًا صوب الغرب.

أما المسجد فى إحدى حجراته الداخلية يوجد قفص من النحاس المزخرف يطوق الضريح؛ حيث يُسجى جسد ذلك الرجل العظيم الذى نشد لقومه العفاف، والزهد، والصورة البسيطة للإسلام التى لم يلوثها أى اتصال بالعالم الخارجى، وإلى هذا الضريح يأتى كل متشيع للطريقة السنوسية متكبدًا مشقة الرحلة من أجل أن يبايع ويجدد القسم.

ويحضر تلاميذ المدرسة إلى "جغبوب" لأحد هذين الغرضين: إما أن يعدوا أنفسهم ليصبحوا من "الإخوان"، أو ببساطة ليعودوا بعد ذلك إلى ديارهم فى الواحات بعد أن يصبحوا رجالاً متعلمين وقادة روحيين فى مجتمعاتهم. (٢٤)

(٢٤) ساهم هذا الأمر فى نشر الإسلام فى كل من "واداي"، و"باجرامى"، و"بورنو" ونواحى بحيرة تشاد؛ فقد كانت طريقة السنوسيين فى نشر الإسلام بين الأفارقة تعتمد على عدة طرق منها: شراء الأرقاء الصغار من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من قبائل السود ويربونهم فى تلك الزوايا، فإذا ما بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعادوهم إلى بلادهم لكى يهدوا أهلهم، وينشئوا الزوايا السنوسية بين القبائل الأفريقية. "المترجمان"

وباستثناء الإزعاج الذى سببته لى مشكلة عدم إمكانية الحصول على إيل لاستكمال رحلتى إلى "جالو" التى تبعد نحو ٣٥٠ كيلومتراً صوب الغرب، كانت حياتى فى "جغبوب" سلاماً داخلياً واستعداداً للمشروع القادم.

فالصحراء تتطلب وتستدعى تأهيلاً ذهنياً وروحياً مختلفاً عن حياة المدينة بصخبها وتلاحقها؛ لذا كنت كثيراً ما أتجول حول البلدة الصغيرة أو خارجها حيث الواحة التى تحيط بها، أو أقف فى منطقة ظليلة باردة بجوار المسجد أو أجلس فى بعض الأوقات فى البرج الذى يعلوه أتحدث مع البدو المتعلمين، أو أراقب الليل وهو يسقط فوق القبة ناصعة البياض والكتل البنية للمباني التى تشرف عليها، حين أتخلص من كل القلق والحيرة والمشاكل التى تجلبها الحياة المتكلفة فى الأماكن المزدهمة.

كانت الأيام تمضى يوماً تلو الآخر على النحو التالى: تمشية فى الصباح، يعقبها صلاة فى منتصف النهار بالمسجد، وجبة طعام هادئة، عمل قليل باستخدام أدواتى العلمية أو الكاميرات، صلاة بعد الظهر، تمشية أخرى، وجبة طعام توزع بعدها أكواب الشاي الصدوقة على رجالى طبقاً للتقاليد البدوية، صلاة مرة أخرى، وبعد ذلك تأمل هادئ فى سماء المساء بنجومها المسالمة، ثم أتوجه للنوم الذى لا يعرف مذاقه ساكن الحضر.

* * *

من بين كل الإخوان الذين قابلتهم وتحدثت معهم فى "جغبوب"، كان هناك على وجه الخصوص رجل أثار فضولى؛ لأنه كان يتجنب

الجلوس أو الحديث معي، كما لم أستطع معرفة سبب عزله الغريبة ممن سألتهم من الإخوان، وأخيراً وبالمصادفة عرفت قصة سيدي آدم بوجميرة.

وسيدي آدم عجوز هرم ذو وجه يكسوه الكبرياء، وتقطر منه المرارة، كما لو أن الحياة لم تكن كريمة معه في أيام شيخوخته.

وفي زيارتي الأولى "لجغبوب" مكثت في داره الفارغة مدة ثلاثة أيام، ولم تتح لي وقتها الفرصة لأن أجرى معه محادثة طويلة، وفي هذه المرة جاء ليراني ليلة وصولي ويرحب بعودتي إلى "جغبوب"، وشعرت وقتها أن هناك مأساة وراء هذا الكهل، كان أحد أفراد قبيلة "باراسا" التي تعد من الصفوة بين البدو، وكان معتزاً بنفسه كأى فرد منهم، ورغم هذا فلم يكن راضياً بقدره، ولبعض الوقت كنت أتساءل كيف أصبح على هذا النحو؟ فالبدو لم يكن من شيماتهم ذلك؛ فكل من حولى في "جغبوب" كانوا بشراً مطبوعين على القناعة والرضا وفعل الخير، بينما وقف سيدي آدم بمفرده بعيداً عن إخوانه، يمثل صورة مأساوية لانهازام الكبرياء!

وفي نهاية إحدى الليالي بينما كنت عائداً من المسجد بعد الصلاة، قابلت مبروكاً - وهو عبد عجوز من عبيد سيدي المهدي - بادرته بالتحية "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"؛ فرد عليّ "وعليكم السلام يا سيدي ورحمة الله وبركاته"، بعدها جلست معه، وبدأنا نتحدث عن المساحات الصغيرة المزروعة في الواحة وأى منها يتولى العناية بها، فتعجب قائلاً "إيه! ليس لدينا طعام كثير، ولكن بمباركة سيدي المهدي فإن القليل الذي لدينا مثل الكثير الذي في أى مكان آخر".

وفى هذه الأثناء مرَّ سريعًا شخص ضعيف طويل القامة يرتدى عباءة بيضاء بدا كشبح يعبر الساحة، كان هو آدم بوجميرة، فقلت وأنا أشير إليه "إن سيدي آدم يسير هناك"، ثم تساءلت "إنه لم يبدُ فى صحة جيدة عندما حضر لرؤيتى اليوم، ترى ماذا أصابه؟" لا، إنها ليست صحته يا سيدي، إنه شخص سيئ الحظ؛ فقد حلَّ به عدم رضا سيدنا - يقصد زعيم السنوسية - فالرجل المسكين يعانى من سوء ولاء أخيه".

وعندها بدأت قصة آدم بوجميرة تتكشف أمامى بواسطة مبروك.

"سيدي بوسيف بوجميرة شقيق سيدي آدم كان فى أحد الأيام موضع ثقة سيدي المهدي ووكيله القوى فى "جغبوب"، وعندما كان طفلاً صغيراً، سقط جدار عليه وتحطم فوق رأسه، ولحسن الحظ كان سيدي السنوسى الكبير - مؤسس الطريقة - فى الجوار، فأخذ رأس الطفل وضمها معاً، قائلاً "هذه الرأس سوف تصبح فى أحد الأيام ينبوعاً للعلم والمعرفة، وتحققت نبوءته؛ فقد أرسل والد بوسيف الطفل إلى "جغبوب"، وعندما استقر السنوسى الكبير هناك تركه يدرس فى جامع "جغبوب"، حتى أصبح قائداً للإخوان فى الواحة ومعلماً كبيراً فى "جغبوب"، كما كان أيضاً شاعراً لا يُبارى، وبعد وفاة السنوسى الكبير، أخذه سيدي المهدي وجعله وكيله الوحيد فى "جغبوب" عندما رحل إلى "الكفرة"، وائتمنه على كل ممتلكاته وإدارتها، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يجعل منه عبرة للإخوان الآخرين ومثالاً لمن يخون ثقة الأسياد، فقد انساق خلف العالم وغواياته، فبدد الكثير من ممتلكات سيدي المهدي، وباع الكثير من عبيده ووضع ثمنهم فى

جيبه الخاص، وكان لابد من أن يُعاقب. فقد كتب خطابًا إلى الحاكم الكبير في مصر يخبره فيه أن سيدي المهدي يوجد بعيدًا في واحة "الكفرة"، ولا يوجد أحد في "جغبوب" يدافع عنها، وأن الوقت ملائم لاحتلال المكان، لماذا فعل مثل هذا الأمر غير المتصور، طالما أنه لم يكن هناك أحد يطمع في احتلال "جغبوب"؟ لا أحد يعلم، إلا أنه ما من شك في أن بوسيف ظن أنه قد يجنى شيئًا من هذا الأمر.

وفي هذا الوقت كان يقيم في "جغبوب" سيدي محمد العبيد السنوسي ابن أخى سيدي المهدي، وسمع أن بوسيف كتب خطابًا ما وسوف يرسله إلى مصر، وأنه رتب مع رسول لأن يأخذه عبر الحدود عندما يحل الظلام، وفي التو أرسل محمد العبيد رجلين من الإخوان ليكمنا للرسول ويحضرا الرسالة التي معه، وبعد يومين من ذلك أعيد الرسول، وأطلع محمد العبيد على الرسالة، لكنه لم يقل شيئًا لبوسيف، لكنه ببساطة أمر بإعداد قافلة للتوجه إلى "الكفرة"، وطلب من بوسيف أن يرافقه في هذه الرحلة، وحاول الأخير الاعتذار بدعوى كبر سنه واعتلال صحته، ولكن محمد العبيد أصر على أن يرافقه؛ لذا لم يكن لديه خيار سوى الذهاب، وخرجا معًا في رحلة صامتة عبر الصحراء، وعندما وصلت القافلة إلى "الكفرة"، أطلع سيدي محمد العبيد سيدي المهدي على الخطاب.

وفي يوم الجمعة الذي تلا وصولهم، وبعد صلاة الظهر في مسجد التاج "بالكفرة"، جمع سيدي المهدي الإخوان كلهم بمن فيهم بوسيف.

"سيدي بوسيف أنت تعرف ما فعلته"، وفي هذه الأثناء خيم الصمت على الجميع؛ فكل فرد في المسجد شعر بالاستثارة، وأن شيئًا

ما سوف يحدث، " لكننا لن نعاقبك، بل سوف تحيا، وتتلقى المال والطعام طبقاً لتقاليدنا، والله وحده هو الذى سوف يعاقب من يخون ثقتنا، ولكن عليك أن تقرأ بصوت عال لهذا الجمع من الإخوان الخطاب الذى كتبته بيدك".

ولم يكن أمام بوسيف خيار آخر سوى قراءة الخطاب، كان الإخوان صامتين على الرغم من الدهشة من أمر هذا الشخص الذى كان يُعتقد أنه أكثر الرجال الذين يثق بهم سيدى المهدي.

وقال سيدى المهدي ليصرفه " من الآن سوف تُعفى من مشاكل الاهتمام بشئوننا، وعاد بوسيف بعد ذلك إلى منزله مريضاً، وبعد بضعة أيام من ذلك وافته المنية، كما توفي ابناه فى الشهرين التاليين، أما ابنتاه فقد صارتا زوجتين لفردين من عائلة السنوسى، بينما آلت كل ممتلكاته ومكتبته - التى يقال إنها كانت أكبر مكتبة فى نطاق السنوسية - إلى عائلة السنوسى، والرجل الوحيد الذى تبقى من تلك العائلة هو سيدي آدم أخوه، الذى ورث المنزل الفارغ فى "جغبوب" بالإضافة إلى العار، وبموت آدم فإن الأسرة بالكامل سوف تنقرض.

الفصل السابع

الغذاء والدواء

«خلال توقفنا في الواحات كنا نحظى بصور عديدة من الحفاوة التي تدل على كرم الضيافة الذي يتحلى به قادة السنوسية في "جغبوب"».

وهناك أنماط مختلفة من الضيافة بين البدو تتوقف على مكانة كل من المضيف والمضيف بالإضافة إلى مناسبة الدعوة؛ فعندما يصل مسافر إلى واحة أو بلدة ما في الصحراء فإنه يصطحب معه قافلته المزودة بكل احتياجاته المعيشية، وهو لا ينزل في فندق أو يذهب إلى دار صديق للسكنى، بل يعتمد على أدواته، سواء نصب خيامه وأقام بها مخيمًا، أو شغل إحدى الدور التي توضع تحت تصرفه بواسطة أحد سكان المنطقة، كما حدث لي في "جغبوب" و"جالو" و"الكفرة"، ثم بعد ذلك تأتي الضيافة والتكريم من أصحاب المقام الرفيع في المجتمع؛ فقد يوجهون الدعوة للفرد لتناول طعام الغداء أو العشاء في دورهم، أو يرسلون الطعام للمضيف في داره أو مخيمه، والنمط الأول من الضيافة سوف أصفه عندما نصل إلى "جالو"؛ حيث احتفى بي هناك نحو اثني عشر أو خمسة عشر شخصًا من أصحاب المكانة الرفيعة على التوالي، بينما النمط الثاني هو ما لقيته في "جغبوب"، وهذان النمطان من الضيافة قد يستمران للفرد من ثلاثة إلى سبعة أيام، بحسب منزلة كل من المضيف والمضيف.

فبعد عدة أيام من وصولي إلى "جغبوب" زارني كل من سيدي إبراهيم، وسيدي محيي الدين أصغر أبناء السيد أحمد الوصي الرسمي على السيد إدريس، والذي كان في ذلك الوقت في "أنجارا". كان الصبيان في الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما، وقد حضرا للاحتفاء بي في داري البدوي الخاص بقبيلة "باراسا"، يرافقهما ممثل رسمي لمضيفي بالإضافة إلى عشرين محملين بالطعام، وقد وضعا أمامي وليمة لا يقل عدد أطباقها عن عشرين، ودعيت لتناول الضعام، بينما جلس ممثل مضيفي والصبيان في وقار، دون أن يلمسوا كسرة خبز واحدة، وتذوقت الطعام الواحد تلو الآخر، والذي أظن أنه لا يوجد فرد على وجه الأرض يستطيع تناوله كله ويظل على قيد الحياة، كانت وظيفته كنائب عن مضيفي أن يرى إن كان ينقصني شيء ليصبح الطعام مرضيًا ومقبولاً، وليرفه عني بالحديث بينما أتناول الطعام، وهو من قبيلة "باراسا" الذين يعدون من الطبقة الأرستقراطية في الصحراء، وهم طوال القامة، مشوقو القوام، وسيمون، فخورون بأنفسهم، يتسمون بشجاعة الأسود وروحها؛ فإذا ما كان فرد الباراسا بمفرده وسط قبيلة أخرى وتعرض للإهانة فإنه لن يتردد في مقابلة هذه الإهانة أو المعاملة الجافة بتحد فوري، وأن يحارب الجميع بيديه العاريتين إذا ما وصل الأمر إلى هذا الحد.

وتحت حصار عينيه الفطنة وانتظار العبدین اللذين رافقاه، تناولت طعامي.

ولست متأكدًا من أنني أستطيع تذكر كل الأصناف التي وضعت أمامي، إلا أنها كانت تشتمل على: مرق لحم دسم أضيف إليه الزبد

والأرز، طبق ضخم من اللحم المسلوق، وعاء كبير من الأرز عليه قطع صغيرة من اللحم، بيض سلق لفترة طويلة ثم قُشّر وُحْمَر بالبيض والبصل والأعشاب، كرشة، قطع لحم مطهوه فى صلصة الطماطم، كتل لحم مفروم يكسوها البيض ومقلية فى السمن، سَجَق، خضروات (كوسة، بامية، ملوخية)، كوسة مطهوه بالأرز وقطع اللحم، كسكسى "طبق عربى مميز مصنوع من الدقيق المطهو على البخار"، سلطة، نوع من المهلبية المصنوعة من دقيق الذرة واللبن، فطائر بدوية بالعسل، أرز بلبن، نوع من المعجنات المصنوعة من الدقيق الممزوج بالزبيب واللوز، والأخير يعد طبقاً مصرياً أكثر من كونه صنفاً من أصناف الصحراء، وقد أعده خصيصاً لى العبد الذى طها الطعام لمعرفته أننى مصرى، وقد بذل ما فى وسعه ليسرنى، وقد بلغ ذروته فى هذا الصنف المصرى الشهى، والذى نسميه فى الوطن "سد الحنك" أى الذى يملأ الفم، وهو يملأ روح من يذوقونه بالبهجة أيضاً.

واللحم هو العنصر المهيمن على كل الأطعمة فى المطبخ البدوى، ولحم الضأن والحملان بصفة عامة؛ فالضيافة الحقيقية بلا لحم تعد أمراً يستحيل تخيله لدى قاطنى الصحراء؛ فاللحم هو حجر الزاوية ليس فقط فى الضيافة البدوية بل أيضاً فى الحياة البدوية، فيما عدا عندما يكون المرء على سفر ويتعذر الحصول عليه، ويجب أن يقدم اللحم للضيف، وأن يكون لحمًا أعد خصيصًا من أجله؛ فعندما يوجه البدوى الدعوة لأحدهم لتناول الطعام معه، فإنه يذبح خروفاً خصيصاً من أجل زائره، وطبقاً للعرف فإنه إما أن يذبح الحيوان ويعد الطعام قبل أن يصل هذا الشخص انطلاقاً من أنه لا مجال للشك

فى أن هذه التجهيزات قد أعدت خصيصاً للضيف، وإما أن يتابع مجاملته إلى النقطة التى يطلب فيها من الضيف الذى سوف يشاركه الطعام - عند وصوله - أن يعيره سكيناً لى يذبح بها الخروف؛ لأن الضيافة تتطلب أن يقتنع الضيف أن كل هذا التكريم قد أعد من أجله.

والتنوع الكبير للأصناف فى قائمة الطعام البدوية يعد من الأمور الجوهرية عندما تتم ضيافة صديق أو أحد الغرباء رسمياً. وكلما زاد تنوع الأطباق المقدمة كانت الضيافة أفضل، وكلما علت مكانة الأفراد الموجهة الدعوة إليهم لحضور الوليمة المعدة كان التكريم أعلى.

ويتركز الترفيه البدوى نفسه على الطعام؛ لأنه فى الصحراء لا يوجد شىء على طريق البهجة فيما عدا تناول الطعام؛ فالأكل فى البيئة البدائية المحيطة بالواحة هو القصة كاملة.

* * *

خلال الشهر الذى أمضيته فى "جغبوب" أثارت انتباهى حادثتان بيننا كيف يتشابه الشرق والغرب فى سلوكهما رغم الاختلاف فيما بينهما. الحادثة الأولى كانت كوميدية بينما الأخرى ضمت المأساة والمرح جنباً إلى جنب.

كنت قد أعطيت تعليماتى بأنه يجب ألا يرد أى فرد يأتى إلى منزلى طالباً الدواء، وقد لجأ إلى سيدي زويلا، وهو أحد إخوان السنوسية، لأعينه على السعال، فأعطيته زجاجة شراب مضاد للسعال، وبعد يومين ظهر مرة أخرى قائلاً إن الجرعات القليلة التى أخذها فى المرة الأولى جعلته أفضل بكثير مما كان عليه حتى إنه

أنهى الزجاجة سريعًا، وسأل إن كان من الممكن أن يحصل على زجاجة أخرى، وكان عبد الله حاضراً هذا اللقاء، فوجدته بعد رحيل الرجل يتذمر بتعليق ساخر "نعم، وجده حلوًا، ولذيذ المذاق، فأخذه كشراب وليس كدواء". ومن المحتمل أن يكون تعقيبه صحيحًا؛ ففي أثناء السنوات التي أمضيتها في "إنجلترا" سمعت أن كثيرًا من الأطفال كان سعالهم يستمر بقوة طالما كان الدواء حلو المذاق ولذيذاً.

وكان أكثر ما يؤرقني هو اعتياد رجالي التفاخر بالأشياء التي يمكن فعلها بما معنا من مؤن؛ فقد جاء إليّ البشكاري طالبًا مني شيئًا يعالج به إحدى إماءته من التوهان، بعد أن قام أحمد بجر رجله نحوى بدعوى أن معي دواء لكل شيء، ولم أستطع وقتها سوى أن أجيبه بأنه من واقع خبرتي في مناطق مختلفة من العالم فإن علاج خادم من النسيان أشبه بصعوبة منع المياه من التسرب في الرمال.

أما الحادثة الثانية فقد ربطت وقائعها بين رجلين مختلفين اختلاف الليل والنهار؛ ففي أحد الأيام حضر إلى منزلي عبد سيدى حسين "الوكيل"، وقد أرسله سيده ليستشيرني في أمر لم يجرؤ على مكاشفتي به شخصيًا؛ فتقاليد البدو تحرم على الرجل التحدث مع آخر عن زوجاته أو حتى عن أية امرأة أخرى غير معروفة لكليهما، ولكن العبد يستطيع أن يقول على لسانه ما قد يحرم عليه وقاره أن يتحدث فيه شخصيًا، كانت رسالة العبد أن زوجة الوكيل لا تلد أطفالاً، وهو الأمر الذى كان يخيب أمل الزوج بشدة، وبلا ريب أن سيده ظن أن معي علاجًا في صندوق دوائى الملىء بعجائب علوم الغرب، يصلح لعلاج حالة تلك المرأة المسكينة التى لا تلد.

استرجعت ذاكرتى للتو ذكرى أيامى الأخيرة فى أوكسفورد؛
فبينما كنت أستعد لرحلة العودة للوطن، جاءنى خادم الكلية العجوز
وكان زوجًا صالحًا، لكنه كان خجولًا للغاية، وبعد أن بذل جهدًا جهيدًا
فى استجماع شجاعته عرض على طلبه قائلاً " إذا كان من الممكن أن
تأذن لى يا سيدي أن أطلب منك معروفًا.. زوجتى وأنا ليس لدينا
أطفال، وعجز الأطباء عن مساعدتنا، ولم يعد لديهم شيء ليقترحوه
علينا، والآن يا سيدي تستعد للعودة إلى وطنك.. وقد سمعت أن لديكم
هناك تعويذة رائعة تستطيع فعل كل الأشياء.. ورغم أنني لست من
الأفراد الذين يؤمنون بالسحر.. لكن هذه حالة خاصة جدًا.. فهل تظن
أنه بإمكانك أن تجد لى هذه التعويذة وترسلها إلى؟.. هذا إذا لم يكن
طلبى فيه الكثير، يا سيدي؟ "

وإزاء تلهفه، والشجاعة التى بذلها ليحطم أسوار خجله ليفاتحنى
فى هذا الأمر، لم أستطع سوى أن أجيبه بوقار وإن لم يخل من
تعاطف بأنى سوف أرى ما أستطيعه فى هذا الأمر، ولكن الحاجة لم
تقض فقد توفى الرجل - مذكورًا بالخير من كل رجال باليول قديمهم
وحديثهم - قبل أن أعود مرة أخرى إلى أوكسفورد.

أما فى حالة سيدي حسين فلم يكن من الممكن تجاهل هذا الأمر؛
فالعبد كان ينتظر الرد، ولا شك أن سيده كان ينتظره، فكرت على
عجل، وأعطيت العبد نصف زجاجة مليئة بأقراص الحبوب المجففة
الممزوجة باللبن مع تعليمات صارمة بأنه على السيدة أن تأخذ ثلاثة
أقراص منها فى اليوم الواحد حتى نفاد الكمية.

وبعد رحيل العبد تأملت ذلك التوازي المذهل بين هاتين الحائتين؛
فهناك فى أوكسفورد بعد أن استنفد الغرب كل ما يقدمه العلم فى

مواجهة هذه الرغبة الكونية فى الإنجاب حاول أن يتجه صوب المصادر الروحية الموجود فى الشرق، بينما هنا فى "جغبوب" - الشرق - بعدما وجد الشرق أن سعيه الروحى غير مُجد استدار صوب علم الغرب باحثاً عن العون؛ إذًا - شرقاً وغرباً - كلنا متشابهون فى إيماننا بقوة المعجزات الكامنة فى المجهول!

ورغم كل هذا فإن الحياة الهادئة والسارة، وحفاوة الضيافة، لم تسفر عن العثور على إيل، رغم أننى أرسلت رسلاً إلى المناطق المحيطة لطلب هذه الدواب، جاعلاً عرضى المالى لاستئجارها أعلى وأعلى مع مرور الوقت، لكننى لم أستطع الحصول على إجابة مرضية. ناشدت سيدى حسين أن يساعدى فى هذا الشأن، إلا أنه أعلن صراحة أنه لا حيلة له، أرسلت رسولا ليعود إلى "سيوة" ببرقية إلى السيد إدريس فى "مصر" أخبره فيها بمأزقى، وأطلب مساعدته، وأسرع مما كنت أتوقع جاء الرد مباشرة إلى سيدى حسين متضمناً أن يمنحنى كل المساعدة التى فى استطاعته، ورغم هذا بدا الوكيل عاجزاً عن مساعدتى.

وفى النهاية عندما بدا الأمل يتلاشى، وصلت إلى الواحة قافلة من قوافل الزوىّ قادمة من "جالو" فى طريقها إلى "سيوة" من أجل الحصول على التمر. وكنت أريد هذه الإبل، ولكن مالكيها بالطبع لم يكن لديهم أية رغبة فى العودة من طريقهم دون الحصول على التمر الذى حضروا من أجله، ومع ذلك فقد وجدت طريقة لإقناعهم؛ فقد اتصلت بهم عن طريق سيدى حسين بما له من نفوذ، كما أن تواتر الأخبار عن صدور أمر من الحكومة المصرية بتحريم دخول أفراد

قبيلة زوى الحدود المصرية حتى يسوا الخلاف بينهم وبين أفراد قبيلة (أولاد على)، الذين يعيشون فى مصر، وعلى عدااء معهم، وطالما أنهم لن يستطيعوا الذهاب إلى "سيوة" التى تقع داخل الحدود المصرية، دون الخوف من العقاب؛ لذا كان لزامًا عليهم المكوث فى "جغبوب" دون أى شىء يفعلونه سوى العودة من الطريق الذى جاءوا منه، والذى كان على وجه الدقة هو الطريق الذى أبغى أن يذهبوا إليه، ومن ثم أصبحت التركيبة التى أثرت فيهم هى أمر الحكومة المصرية، ورسالة السيد إدريس والحث الذى قام به سيدى حسين، والوعد بمبلغ باهظ نظير استئجار إبلهم، والذين نجحوا فى انتزاعه منى نظرًا لحاجتى الشديدة لإبلهم، كل هذا عمل فى النهاية على موافقتهم على اصطحابى إلى "جالو".

وأخيرًا، وصلت إلى نهاية الأيام الهادئة من التأمل والتفكير تحت ظلال القبة البيضاء، والأيام القلقة من النضال للبحث عن معنى لإكمال رحلتى. وفى ٢٢ فبراير، أى بعد نحو ثلاثة وأربعين يومًا من دخولى "جغبوب" أدت وجهى نحو الغرب وخرجت صوب "جالو".

الفصل الثامن

الطريق إلى جالو والعواصف الرملية^(٢٥)

«غادرتُ "جغبوب" وفقاً لأفضل التقاليد؛ فقد كان أحد أيام العواصف الرملية، والبدو يقولون إن من حسن الحظ أن تبدأ رحلتك في عاصفة رملية، ورغم أنني لست واثقاً من أن هذا الأمر يعد من المميزات على أي نحو، فإنه أشبه بقول الإيطاليين "من حسن الحظ أن ترحل والشمس ساطعة"، أو بقول الإسكتلنديين "عندما تمطر"! ورغم أن العواصف الرملية شيء مألوف في الصحراء، فإنه من واقع الخبرة لا يوجد فيها شيء مألوف على الإطلاق».

فالنهار ييزغ والسماء صافية، ولا توجد أية بارقة لسريخ أو عاصفة، والصحراء تبتسم عند رحيلنا، والقافلة تتقدم بابتهاج. وقبل أن تمضي فترة طويلة، تهبُّ نسمة منعشة من أحد الاتجاهات غير المعلومة، ثم ترحل هامسة فوق الرمال، وبالكاد تُدرك قوتها، ورغم هذا يظل هناك شيء غير سار في هبوبها، ثم ينظر المرء لأسفل عند قدميه، فيجد أن سطح الصحراء قد تغير على نحو غريب، كما لو أنه قد وضع تحته أنابيب بخار ذات آلاف الفوهات التي تنبعث منها

(٢٥) في هذا الجزء من الرحلة يعبر المؤلف الحدود المصرية الليبية، ويتوجه إلى واحة "جالو" التي تقع داخل الحدود الليبية. "المترجمان"

نفثات ضئيلة من البخار، تجبر الرمال على القفز فى تدفقات دوامية صغيرة، وبوصة تلو الأخرى يزداد الاضطراب كلما زادت الرياح من قوتها، حتى يبدو سطح الصحراء بأثره كأنه نهض امتثالاً لقوة أسفله ترفعه لأعلى؛ فالحصى الكبير يرتطم بالسيقان والركب والأفخاذ، بينما رذاذ حبات الرمال المتطايرة يتسلق الجسم حتى يرتطم بالوجه ويتجاوز الرأس. تظلم السماء، ويختفى كل شيء عن الرؤيا ماعدا أقرب الإبل إليك، يمتلئ الكون بالألم، والرجم، والوخز، واللدغ، كأنها حشود من العذاب. وخير للمسافر وقتها أن تهب الرياح من خلفه؛ فعذاب الرمال العاتية فى مواجهة وجهه كان مؤلماً للغاية. ونادراً ما يستطيع المرء أن يبقى عينيه مفتوحتين رغم أنه لا يجرؤ على غلقهما؛ لأنه أسوأ من وخز ذرات الرمال، هو أن يضل المرء طريقه.

من حسن حظنا أن الرياح كانت تهب فى شكل نوبات عاصفة، متباعدة فى مجموعات تتكون من ثلاث أو أربع، مع بضع ثوانٍ من فترات الهدوء المباركة بعد كل مجموعة.

فى أثناء هجوم العاصفة، يدير المرء وجهه بعيداً، بعد أن يلف أحد أطراف كوفيته أمامه كستار، وبالكاد يحبس أنفاسه. وعندما يرجع الهدوء فإنه يعيد الكوفية لموضعها، ويلقى نظرة سريعة حوله ليرى ما إذا كان قد حافظ على اتجاهه، ثم يستعد بسرعة كبيرة للهجوم التالى.

إن الأمر أشبه بوحش ضخمة ذو حجم خرافى وقوة غير أرضية، ينفخ هذه العواصف المؤلمة من الرمال على رءوس المسافرين.

وصوتها يشبه الصوت الناجم عن تحريك مارد جبار لأصابعه القاسية
فى إيقاع منتظم فوق حرير مشدود بإحكام.

عندما تهب العاصفة، فلا يوجد شىء تفعله سوى أن تقاومها
بعناد. بينما تجمع الرمال المندفعة حول أى جسم ثابت، سواء كان
عمودًا أو جملاً أو رجلاً، وتتراكم بعضها فوق بعض حتى لا تتبقى
سوى كومة ناعمة مستديرة. وإذا كان العذاب هو أن تتقدم فالموت
ذاته هو أن تتوقف.

ومن المرجح أن تصبح العاصفة الرملية فى أوج قوتها بعد
خمس أو ست ساعات، وفى أثناء تواصلها، لا تستطيع القافلة سوى
التقدم، فى بقطة بالغة، حتى لا تخطئ الاتجاه. وعندما تصبح
العاصفة فى عنفوانها نادراً ما يُحتاج لدفع الإبل للتحرك؛ فغريزتها
تخبرها أن الموت فى التوقف - فهى غريزياً حكيمة - وهو ما
يظهره حقيقة أنه بمجرد أن تمطر السماء، فإنها تشعر أنه لم يعد
هناك خطر يحدق بها، فتقف على الفور فى موضعها وربما تبرك.

تدفع العاصفة الرمال إلى كل شىء يمتلكه المرء؛ فهى تملأ
الملابس والطعام والحقائب والمعدات وكل شىء. كما أنها تفتش عن
كل نقطة ضعيفة فى درع المرء، حتى يشعر المرء بها، يتنفسها،
يأكلها، يشربها... يكرهها، بل إن الذرات الدقيقة تخترق مسام الجلد،
وتتفذ خلالها لتسبب آلاماً مزعجة.

هناك قواعد ثابتة تتعلق بسلوك العواصف الرملية، يعرفها كل
بدوى، وهو مستعد تماماً لأن يشى بها للغريب عن الصحراء؛ فالرياح
التي تسبب العاصفة سوف تنشط مع بداية اليوم وتهدأ مع ظهور

الشمس، ولن تكون هناك عواصف رملية في الليالي القمرية، كما أنها لا تتواصل مطلقاً من بعد الظهر إلى المساء. وهي قواعد ممتازة، لكن في أثناء رحلتنا إلى "جالو" تحطمت كلها؛ فقد كانت هناك عواصف والقمر ساطع، وعواصف أخرى عندما كانت الليالي مظلمة، وكانت هناك عواصف تبدأ قبل الفجر، وعواصف لا تتوقف إلا بعد فترة طويلة من غروب الشمس، كانت لدينا عواصف لا تصل فقط الظهر والمساء، بل تمحو أيضاً الخطوط الفاصلة بينهما، كانت لدينا عواصف صغيرة وعواصف كبيرة، بل أسوأ ما رأيته حتى الآن: عواصف قصيرة وعواصف طويلة، عواصف في النهار وعواصف في الليل. ولكن حتى تحت هذا الوابل اللامتناهي، لم أفقد أبداً الافتتان بسحر الصحراء؛ ففي بعض الأمسيات بعد أن نكون قد تصارعنا - لمدة ساعات - بعناد مع أسراب الرمال المتطايرة، تتوقف الرياح تماماً كما لو كان هناك سيد أشار إليها بإصبعه. بعدئذٍ ولمدة ساعة أو ما يقرب منها يهب الغبار الدقيق ببطء مثل سقوط الضباب. وبعدئذٍ قد يبرز القمر وتحت سحر فيض ضوءه الشاحب، ترتدى الصحراء شخصية جديدة، هل كانت هناك عاصفة؟ من يستطيع التذكر؟ هل تستطيع هذه الامتدادات المسالمة من الجمال أن تكون قاسية؟ من يستطيع تصديق ذلك؟

لم تكن الرحلة إلى "جالو" رحلة سهلة؛ فالعواصف الرملية كانت دائمة الإزعاج، وخطرة في بعض الأحيان. وكان الجزء الأخير من الطريق يمتد عبر نطاق من الكثبان الرملية، وكان على القافلة أن تسير وسطها وتتعطف حولها. ولكي يحافظ المرء على تقدمه المباشر

صوب النقطة الصحيحة وفق البوصلة، على الرغم من هذا التلوى والتثني، فإن الأمر كان يتطلب مهارة ويقظة طوال الوقت.

ورغم قسوة الرمال المهاجمة، فقد كانت هناك ساعات من البهجة في هذه الرحلة لا يستطيع المرء نسيانها؛ فذكرى الليالي الجميلة عندما كنا نجتمع سويًا حول نيران الحطب، من أجل شرب الشاي بعد العشاء، وتدور القصص بيننا، ويبدأ مجيب العجوز - مع ضوء النار المتراقصة على شعر لحيته الرمادية الشعثاء - في رواية أجزاء من تاريخ "الزوى"، وقت أن كان جده معتادًا على الذهاب إلى "الواداي" لمقاتلة قبائل السود، والعودة بالإبل والعبيد؛ وصالح برواياته عن الأرباح الطائلة التي حققها ابن عمه في رحلته الأخيرة إلى "الواداي"، عندما لم يكن عليه أن يقاتل أحدًا، بل عاد فقط بجلد، وريش نعام، وعاج، وباعها في "برقة"، وهي الاسم العربي "لسيريناكا".

ثم أستدير إلى عليّ، وأطلب منه أن ينشد إحدى أغاني الحب؛ فقد كان يعد من الشعراء، فيتطلع عليّ إلى عمه من أجل الإذن له بأن يمتثل لرغبتى، فيجد العجوز مشغولاً بمسبحته، ومتظاهرًا بأنه غافل عما يحدث، فلا يليق بكرامة البدوى ذى الشعر الرمادى أن يجلس ويصغى لأغاني الحب من جيل أصغر منه، ولكن احترامه لى منعه من أن يغادر الجمع.

وفي النهاية تتم وهو يعبث بلحيته "غنّ للبيه، مادام يحب سماع أغانينا البدوية"، ارتفع صوت عليّ العذب في هواء المساء، بينما انسابت حبات مسبحة مجيب العجوز بين أصابعه بتأنٍ منتظم يميز الرجل الذى لا يبالي بشيء سوى نسكه.

وأنشد على:

أريد أن أغنى

ويلتف كل الرجال ليسمعونى

إنها "خضرة"

التي تنتزع الأغاني من روحى

وجناتها حمراء مثل الدماء المسفوكة

نحيفة وملفوفة مثل العود

ليست طفلة وليست عجوزاً

لن تعرفها

لكننى لو قابلتها فى الطريق

فسوف أتباهى بها

كما أتباهى بنصل رمحى

وبينما كان صوته يتلاشى، بدا كأنه خيالى أو أن حبات المسبحة
بين أصابع مجيب تتحرك أسرع قليلاً؟! وبعد فترة من التوقف عاد
على الغناء مرة ثانية:

أنت نرجسة رشيقة فى بستان الكبرياء

من فمك يتدفق العسل

فوق أسنان من العاج

خصرك النحيل

مثل الأسد وهو يعدو خلف الفريسة.

أتكونين لى؟

أم تفكرين فى غيرى؟
قوامك ملفوف مثل سوط
النوم على صدرك
هو الجنة ذاتها،
الحب لا يمكن إخفاؤه
ولكن القدر فى يد الله

كان هناك صمت فى المخيم باستثناء طقطقة النيران التى بدأت
تخبو واصطكاك حبات المسبحة، ولكن إيقاع الحبات تغير مغزاه
الآن؛ فمع اقتراب نهاية أغنية على توقفت أصابع مجيب تمامًا لبرهة
ثم أسرعت بعد ذلك بعصبية كما لو أنها تتكرر توقفها. كان العجوز
عاشقًا كبيرًا فى زمنه، وأغنية الصبى أهاجت دمائه بالذكريات،
وربما كان من حسن حظ الآخرين الذين يلتفون حول هذه النار أنه لم
يكن معهم مسبحة تصطك حباتها وتفضحهم.

بعد بئر "بوسلامة" التى تبعد مسيرة يوم من "جغبوب"، سرنا
عبر إقليم كانت توجد به بقايا غابة متحجرة، وفى الطريق مررنا
بكتلة حجرية ضخمة منتصبة مثل إشارات التوجيه على طول
الطريق، والتى كانت قبل عصور أشجارًا يانعة، أما الآن فقد حولتها
قوى الطبيعة من مملكة النبات إلى مملكة المعادن، وكانت تتناثر
حولها بعض القطع الأصغر من الخشب المتحجر، ولكن معظمها كان
يختفى تحت الرمال، بينما ظلت قطع الأشجار الأكبر مرئية بسبب
تقاليد الصحراء التى تفرض على أى فرد يمر بمثل هذه العلامة
الملقاء أن يعيدها منتصبة مرة أخرى، كما أنه من التقاليد الجيدة

لحديثي السفر بالقافلة أن يشيدوا بعض الأكوام الصغيرة من الأحجار في الفواصل كإشارة إلى من سيمرون بعد ذلك بأن الطريق يمتد من هنا. وفي بعض الأحيان قد يمر المرء بشجرة أو شجيرة علقت عليها قصاصات أو قطع من القماش، والمرء هنا ملزم بأن يضيف إليها خيطاً أو بقايا من ملابسه. فهذا التراكم يؤخذ كرموز مؤكدة على أن الشجرة علم لمن سوف يأتون بعد ذلك، كما أنها تمنح التشجيع لمن يمرون بها من خلال فكرة أن آخرين قد مروا من هذا الطريق من قبل. ففي هذا القفر المميت ومع رتابة الصحراء يعد أي دليل على مرور أحد في هذه المنطقة حادثة سعيدة. فعلمة روث الإبل، أو بقايا عظامها المصقولة،^(٢٦) أو حتى الهياكل العظمية للمسافرين قليلي الحظ، كلها أمور تُسرُّ العين لرؤيتها؛ لأنها على الأقل تبين أن قافلة ما قد مرت من هذا الطريق.

بعد أن غادرنا "جغبوب" بفترة وجيزة مررنا "بعلم" من نوع آخر، وهو يتكون من صف من الروابي الرملية الصغيرة التي تشبه روابي النمل المتقاطعة على اتجاه الطريق. وتسمى "علم بوزافار"، وهي رمز وإشارة لأحد تقاليد البدو السارة. ففي أي رحلة على القادم الجديد لأي طريق أن يذبح خروفاً لأفراد القافلة الذين مروا قبل ذلك من هذا الطريق، وتسمى هذه العادة "بوزافار". وإذا لم يتنبه المبتدئون

(٢٦) تعد هذه الظاهرة أيضاً من صور فعل الرياح في الصحراء؛ إذ تقوم بنحت الأجسام الموجودة في الصحراء وتغير أشكالها، ويساعدها في ذلك ما تحمله من رمال، ويمكن ملاحظة ذلك التأثير بوضوح في أعمدة التليفونات الخشبية التي توجد في الصحراء، التي يتآكل سطحها خاصة الأجزاء السفلى منها القريبة من سطح الأرض. "المترجمان"

من غير إبطاء لمسئوليتهم فإن المحنكون يُلمَّحون لهم، حيث يتقدم فرد أو اثنان منهم القافلة، ويُشيد صفاً من أكوام الرمال يتقاطع مع الطريق. وعندما تصل القافلة إلى هذه العلم المحدد يصيحون بشكل إيحائي "بوزافار، بوزافار"، ليؤكدوا التلميح، فيُذبح الخروف، وتقام مراسم الوليمة.

وفي قافلتنا كان هناك العديد ممن لم يطأوا هذا الطريق من قبل - ومن ضمنهم أنا بالطبع - لذا اشتريت خروفاً قبل أن نغادر "جغبوب" حتى نستطيع نحن حديثو العهد بهذا الطريق أن نؤدي مراسم "بوزافار" إلى أولئك المتمرسين على هذا الطريق؛ لذا فلم يكن علم بوزافار الذي مررنا به من صنعنا بل خلفته إحدى القوافل الأخرى.

كنا سعداء الحظ أن نجد عشباً لرعى إبلنا كل يوم تقريباً حتى وصلنا إلى "جالو"، والحقيقة أنه في بعض الأحيان كان علينا أن نحيد عن طريقنا لنصل إلى الرقع الخضراء التي توجد بين الكثبان الرملية، لكننا كنا نعثر عليها دائماً.

وهناك ثلاثة أنواع من النباتات تنمو على حدة، وفي بقع نادرة في هذا الجزء من الصحراء: "البليال" وهي عبارة عن شجيرة رمادية مائلة الخضرة، لا تعد أوراقها طعاماً جيداً للإبل، وهي تنمو فقط بالقرب من آبار المياه، ولا تلمسها الإبل في العادة إلا إذا كانت جائعة للغاية، وعندها فإن الحذر المستمر أمر ضروري حتى يحمى المرء نفسه من إزعاج أن يصبح لديه جمل مريض بدلاً من جمل جائع.

أما "الدمران"، فهي شجيرة تشبه النوع الأول، وإن كانت أوراقها ذات لون أدكن وسيقانها بنية اللون، وهي تصبح وقودًا جيدًا عندما تجف، وتعد طعامًا ممتازًا للإبل حيث تأكلها بنهم شديد.

بينما النوع الثالث من النباتات هو "النيشا"، حيث ينمو على شكل باقات من الأوراق الرفيعة التي ترتفع لمنسوب القدم، وهو أيضًا صالح للرعى الجيد، رغم أن وجوده يقتصر على أشهر الشتاء، وعلى كل حال فعندما يسقط المطر الضئيل في هذه الصحراء، تصبح كل هذه النباتات متاحة؛ لذا لا يفكر أي بدوى في القيام برحلة بين "جالو" و"جغبوب" في الصيف، دون أن يصطحب معه مؤنًا من العلف من أجل إبله.

في اليوم العاشر من مغادرتنا "جغبوب"، وصلنا إلى بئر "هزيلا"، أول مصدر للماء بعد "بوسلامة"، الذي كان يميزه وجود بعض الأشجار والشجيرات الصغيرة الخضراء، وبعد أن جرفنا بأيدينا الرمال المتراكمة فوقه بفعل الرياح، بدا الماء جيدًا، ولكن مذاقه بعد ذلك لم يكن مستساغًا.

وبعد يومين من ذلك، وجدنا أنفسنا عند أطراف واحة "جالو"، وقبل أن نستطيع الدخول، أسرع رسول للقائنا، ومعه خطاب من سيدى محمد الزروالى - من الإخوان، الذى كلفه السيد إدريس بمرافقتنا إلى "الكفرة" - يطلب منا أن نخيم فى الخارج حتى يستطيعوا الاستعداد لاستقبالنا على نحو لائق، وكان السيد إدريس قبل أن يغادر "جالو" منذ شهرين، قد أخبرهم بأننى على الطريق، ووجهه بأننى يجب أن ألقى كل حفاوة ممكنة، وكانوا قد توقعوا وصولنا قبل ذلك بكثير، وعندما لم أحضر ظنوا أننى قد عدلت عن خطى.

تقهقرنا مسافة قليلة من البلدة وخيمنا هناك، وبعد بضع ساعات من ذلك جاءت مجموعة رائعة تتألف من عشرين أو أكثر من البدو اصطفوا في صف طويل أمام قرية "ليبيا" وهي إحدى قريرتين تتألف منهما "جالو". وكنا نرتدى أنظف ملابسنا وأكثرها رسمية، وزودت رجالى بالذخيرة من أجل تحية المجاملة. تقدمنا للأمام، واقتربت من سيدى سنوسى قادر بوح القائم مقام أو حاكم المنطقة، وصافحته هو وأعضاء مجلس "جالو" والمواطنين البارزين فى الواحة، وألقى القائم مقام خطبة رحب فيها بنا، ورددت عليها، ثم أطلق رجالى بنادقهم كتحية، ومررنا بالبلدة.

ذهبت إلى الدار التى وضعت تحت تصرفى، وتلقيت زيارة رسمية من مجلس "جالو"، ومن سيدى الفضل عم السيد إدريس.

وبعد العشاء مع سنوسى قادر بوح، أمضيت المساء فى مناقشة خطط الرحلة مع سيدى زروالى.

الفصل التاسع

في واحة جالو

«جالو» واحدة من أهم واحات "برقة"، وهي تقع على بعد ٢٤٠ كيلومتراً من ساحل البحر الأبيض المتوسط، ونحو ٦٠٠ كيلومتر عن "الكفرة" التي تقع إلى الجنوب منها مباشرة. ولا تعد الواحة أكبر منتج للتمر في الإقليم كله فحسب، بل إنها أيضاً تمثل معبراً تجارياً لمنتجات "الواداي" و"دارفور" التي ترد عبر "الكفرة"؛ فكل شيء يرد من العالم الخارجى إلى "الكفرة" لابد من أن يمر عبر "جالو".

وكما قال البشارى الزعيم البارز فى قبيلة المجابرة (إن الصحراء بحر و"جالو" هى ميناؤه).

وقد كانت فى أوج أهميتها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً مضت، عندما اتخذ المهدى من "الكفرة" عاصمة للسنوسية؛ ففي هذه الأيام كانت القوافل التى تتكون من مائتين أو ثلاثمائة جمل وناقة تروح وتغدو بين "جالو" والجنوب كل أسبوع، ولكن عندما كنت هناك كانت الحركة قد تقلصت لما هو أقل من عشر ذلك الرقم، وإن كانت تنتعش بعض الشيء فى الصيف نتيجة للطلب على محصول التمر.

وهناك قريتان فى "جالو" يفصل بينهما ميل واحد هما "العرق" و"اللبة"، وبين هاتين القريتين وحولهما تنتشر أشجار النخيل التى يقترب عددها من مائة ألف نخلة.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً إلى الغرب تقع "أوجلة"، وهي واحة قديمة ذكرها هيرودوت بأنها تشتهر بتمرها، ويوجد في "أوجلة" ضريح عبد الله الصحابي، الذي يُقال إنه كان كاتب الرسول ﷺ، وهذا الأمر من الصعب البت فيه؛ لأنه على الأقل لم يكن لرسول الله ﷺ كاتباً يدعى عبد الله الصحابي، وبالطبع لم يأت عبد الله إلى شمال أفريقيا، وضريح الرجل الذي يحمل هذا الاسم، والذي يوجد في "أوجلة"، تستند قصته إلى أدلة واهية. فالقصة تحكى أن السنوسى الكبير وجد جسد الصحابي مدفوناً في بقعة نائية، وفي التو ظهرت له روح صاحب الجسد في رؤية، وحدثته قائلة "نقّب عن جسدك، وضعه فوق جمل، وسر، وحيثما يتوقف الجمل سوف تُشيد ضريحى". أطاع السنوسى الكبير الأمر، وسار حتى وصل إلى "أوجلة"، وهناك توقف الجمل تماماً وأبى أن يتحرك، وفي هذا الموضع شُيّد الضريح.

ويؤمن مؤسس الطريقة السنوسية، وكل أفراد أسرة السنوسى، وحتى أتباعه من الإخوان البارزين، بامتلاكهم قدرة خفية، وبصيرة نافذة، وينسب للسيد المهدي على وجه الخصوص أنه يملك قوة خفية قوية يسميها البدو "كرامات"، وقد روى لى أحد الإخوان فى "جغوب" عن السيد المهدي القصة التالية: إن أحد البدو الأميين جاء إليه عازماً الدراسة على يديه فى "جغوب"، وفجأة تنبه الرجل إلى أنه موسم حرث الأرض وبذر البذور، وأنه ليس لديه أحد يرعى أرضه ويزرعها؛ لذا رأى أنه من الأفضل أن يرحل إلى ما بعد موسم الحصاد، ثم بعد ذلك يعود لدراسته، وذهب إلى السيد المهدي ليودعه، وعندما دخل الحجرة - كما تقضى التقاليد - جلس منتظراً الإذن له

بالحديث. ولبضع دقائق بدا السيد المهدي كما لو كان يتجاهله، وفجأة شعر الرجل بالنعاس وغفا لدقيقة أو دقيقتين، ثم أيقظه صوت السيد المهدي الحنون وهو يقول له " الآن استرحت، وعلمت أن هذا الأمر رتب من من أجلك". وفي هذا الوقت القصير، رأى الرجل في الحلم أن أخاه يحرث أرضه، ويبذر الشعير فيها، وأضاف المهدي قائلاً " الآن سوف تكون ضيفنا، استذكر، وأدعو أن يرشدك الله إلى الطريق القويم، كل شيء سوف يعد كما رأيته، وليس لديك سبب لتقلق، فالله - سبحانه وتعالى - رحيم، وهو يرعانا جميعاً". ظل الرجل في "جغوب"، وبعد فترة رجع إلى دياره في موعد الحصاد، وعند عودته إلى "جغوب" أخبر أحد الإخوان أن محصوله لم يزرع على النحو الذي رآه في الحلم فحسب، بل إن مشهد المكان ووقت الحلم أكدتهما الوقائع.

حادثة أخرى رواها لي قائم مقام "جالو"؛ فقد كان مسافراً مع جماعة من "بنغازي" لزيارة السيد المهدي في "جغوب"، وضلوا طريقهم للبئر، وأصبحوا في موقف عسير للغاية، وفي المساء التفت إليه أحد الرجال - وكان أقل المتحمسين للرحلة - قائلاً " الآن أحضرتنا لزيارة ذلك الرجل الرائع السيد المهدي، هلاً طلبت منه أن يرسل لنا بعض الماء، إذا كان ولياً كما تدّعي؟!"، وفي الليلة ذاتها رأى السيد المهدي القصة - وهو في "جغوب" - كما حدثت تماماً، فأمر اثنين من عبيده أن يأخذا خمس إبل محملة بالماء والطعام، ويرحلا إلى الخلاء وأشار إلى الاتجاه الذي يجب عليهما أن يسلكاه، وأضاف أنه يجب عليهما ألا يتوقفا خلال الطريق حتى يقابلا قافلة، فأطاعا الأمر وسارا حتى عثرا على القافلة في حالة سيئة وأنقذاها.

وهناك بعض الإخوان كبار السن الذين لا يزالون على قيد الحياة - بل إن بعضهم من عائلة السنوسى ذاتها - يتجنبون غضبه؛ لأنهم يخشون قوته الخفية. وأحد هؤلاء ممن يعيشون فى "الكفرة" روى لى القصة التالية:

فى أحد الأيام أحضر بدوى بعض الأغنام لتشرب من بئر قريبة، وشرّد بعضها إلى قطعة أرض ملحقة بالزاوية وأكلوا الشعير المزروع بها، فحذر أحد الإخوان البدوى لى يمنع أغنامه من فعل هذا الأمر، وتظاهر الرجل بالاهتمام، لكنه كان عازمًا بالفعل ألا يقتصر الأمر على هذه الأغنام فقط بل أن يحضر القطيع كله ليرعى على المحصول، وعندما خرج رجل السنوسية مرة ثانية ورأى القطيع بأكمله يرعى على شعيره، صاح قائلاً "ربنا يلعن الأغنام التى تأكل محصول الزوايا"،^(٢٧) وتذهب القصة إلى أنه لم تخرج شاه واحدة على قيد الحياة من حديقة الزاوية.

لهذا يخشى البدو عائلة السنوسى ليس فقط بسبب سلطتهم الدنيوية، بل أيضاً للسطوة الروحية التى تتسبب إليهم؛ فالبدوى الذى يلعن من أحد أفراد عائلة السنوسى يحيا طوال الوقت خائفاً من أن شيئاً فظيماً سوف يحدث له، بل إن أصدقاءه وأقاربه يحاولون تجنبه مخافة أن تتسبب اللعنة التى أصابته فى أذى لهم.

وهناك حالة شهيرة لأحد الشيوخ الأجلاء من رجال السيد المهدي يرقد الآن فى "الكفرة" نصف مشلول، وقد ذهبت لرؤيته عندما وصلتُ

(٢٧) تحرم السنوسية على البدو رعى حيواناتهم داخل الحرم المحيط بالزوايا. "المترجمان"

إلى الواحة، وكان سعيدًا للغاية بزيارتي على الرغم من أنه لم يكن يقوى على تحريك جسده. وفي زيارتي الثانية أصبح أكثر حميمية - وبين الشك واليقين - سأل عما إذا كان معى أى دواء لعلته، ترددت؛ إذ كنت أخشى أن يفقد الرجل الأمل تمامًا، وقد رأى ذلك فى عيني، ودون حتى أن يمنحني فرصة أن أجيب عليه قال: " لا، هذا مكتوب، لقد كان خطئى منذ البداية، فقد أرادنى السيد المهدى أن أرحل إلى الشمال، ولم أقوَ على عدم طاعته، لكننى حاولت تجنب الرحلة وذهبت لما يقرب من "الحوارى"، وهناك كتبت له مدعيًا المرض، وجاء الرد مع رسول بأننى إذا كنت مريضًا، فبكل تأكيد يجب على أن أتخلف عن الرحلة، وفى اليوم التالى أصبت بالشلل، وأعادونى إلى "الكفرة" محمولاً، وأنا هنا منذ ذلك الوقت، وكان ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا.

كما أخبرنى قائم مقام "جالو" بقصة أخرى عندما كنا نناقش أمر المعجزات؛ فقال إنه فى إحدى المرات كانت هناك عاصفة رملية عاتية، طمرت تقريبًا المقام الموجود فى "أوجلة"؛ لذا أحضروا العبيد ليقوموا باستخراجه مرة ثانية، وفى أثناء الحفر دخل القائم مقام إلى الحجرة التى يوجد بها الضريح، ولاحظ انبعاث رائحة بخور قوية، فنادى أحد العبيد وسأله عما إذا كان قد أشعل بخورًا فأنكر الرجل، وحتى الآن - فى بعض المناسبات - يستطيع زائر المقام شم رائحة هذا البخور على الرغم من أن أحدًا لم يشعله.

* * *

وتعد "جالو" مركز قبيلة المجابرة البدوية، وهم أمراء التجارة في الصحراء الليبية. كما يوجد بعض الزوى هناك، ولكن "المجابرة" يمثلون النسبة العظمى من نحو ألفين من سكان القريتين الموجودتين بها. ويمتلك المجابرة غريزة تجارية رائعة، ويفتخرون بأن أباهم قد توفي فوق سرج جملة، كما يتفاخر ابن الجندى بأن أباه قد توفي في ساحة المعركة، وعندما كنت في "جالو"، قامت السلطات الإيطالية - والتي لم تكن وقتها على علاقة طيبة بالسيد إدريس - بحظر إرسال البضائع من "بنغازي" والموانئ الأخرى في برقة إلى الداخل؛ لذا قفزت أسعار السلع في المناطق الداخلية مثل "جدابيا" لدرجة كبيرة، وفي هذه الأثناء وصل إلى "جالو" تجار المجابرة بقافلة بها بضائع من مصر، وسمعوا عن هذا الموقف غير المألوف في الشمال، ودون لحظة تردد واحدة غيروا من خططهم، واتجهوا صوب الشمال بدلاً من الجنوب وباعوا بضائعهم في "جدابيا" بأثمان مرتفعة، ثم عادوا بسرعة - إذا كانت سرعة الإبل لا تقل عن ثلاثة أميال في الساعة فهكذا يمكن وصف سرعتهم - إلى مصر أو الجنوب سعياً وراء حمولة قافلة أخرى. ووصلوا مرة أخرى إلى "جالو" ببضائعهم واستعلموا بدقة حول الظروف المقارنة للأسواق في "جدابيا" و"الكفرة"، ووجهوا رحلتهم المقبلة وفق ذلك، مقدرين بُعد الأماكن في الصحراء - تبعد "جالو" عن "جدابيا" مسيرة خمسة أيام، بينما من "الكفرة" إلى "جالو" ما بين اثني عشر يوماً وثمانية عشر يوماً - وفي شكل الحلزون سارت القافلة.

وتنتقل الأخبار عبر الصحراء بسرعة مذهشة، أو على الأقل تبدو كذلك، وأحسب أن التفسير الحقيقي لهذا الأمر هو أن كل الأشياء

على صلة ببعضها البعض، وحيث ينتقل كل شيء فوق ظهور الإبل، وهكذا تنتقل الأخبار.

وبينما يعد المجابرة أعظم تجار الصحراء الليبية، فإن الزوى يطالبون أيضًا بحق التميز، والتنافس بين القبيلتين كامن دائمًا تحت السطح، ويظهر للعلن بين الفينة والأخرى.

وتحسد كل قبائل "برقة" الزوى؛ لأن الرجل الثانى بعد السيد إدريس فى الأهمية بين قبائل السنوسية هو على باشا العبدية من الزوى، ويعد على العبدية جنديًا رائعًا، ومؤازرًا قويًا للسيد إدريس، ويحظى الرجل بالكثير من ثقة قادة السنوسية.

وفى إحدى الليالى بعد العشاء فى "جالو" برزت بعض أشكال التعبير عن هذه المنافسة، والتى ألمح إليها سيدى صالح - الذى لا ينتمى إلى أى قبيلة فى "برقة"؛ فقد كان من الأشراف الذين يعود نسبهم إلى الرسول ﷺ - فى مناقشة له مع مجيب وزروالى وهما من الزوى، انطلق مجيب فى الحديث عن تاريخ الزوى وماثرهم، وأصغى سيدى صالح إلى مديح أحد الزوى لقبيلته وهز رأسه، وأشار بقوله "إن تاريخهم قد يكون مجيدًا كما أخبرك سيدى مجيب، إلا أنهم لا يخشون الله سبحانه وتعالى".

وعند هذا انفجر مجيب صائحًا: "والله يا سيدى صالح إنهم قد لا يخشون الله، ولكن هل يخشون إنسانًا؟ فويل لمن يجرؤ على التحرش بقوافلهم أو يهاجم خيامهم"، ثم التفت سريعًا نحوى واستمر قائلاً إن بركة المهدي تحيطنا؛ لأنه جاء إلى مركزنا فى "الكفرة" ومنها اختفى.

والسنوسية لا يقولون مطلقًا إن المهدي قد مات، بل يرددون دائمًا أنه غاب وسوف يعود، أو يستخدمون تعبيرات أخرى مشابهة.

وفى الواقع هناك رواية تتداول بينهم أنه لم يمت، لكنه يتجول فوق الأرض إلى الوقت الذى يعود فيه من جديد إلى شعبه من أبناء الصحراء. (٢٨)

وبالنسبة للزوى فإن المهدي هو أكثر قادة السنوسية قربًا إلى قلوبهم؛ لأنه هو الذى نقل مركز نشاط الإخوة إلى "الكفرة" مركز قيادتهم، (٢٩) وقبة المسجد الذى شيّده بها هى مفخرة "الكفرة".

ومن واقع خبرتى فإن الزوى سرعان، يبدون عداؤهم للغرباء، ويجعلونه واضحًا؛ فعلى الرغم من أننى مسلم، وابن لأحد رجال الدين، وموضع ثقة السيد إدريس، فإنهم لم يرحبوا بوجودى فى "الكفرة"، بل إن بعضهم عبّر عن أمله ألا يرانى مرة أخرى بعد أن أغادر "الكفرة".

وعلى الرغم من عدائهم المضمّر لى، فأنا لم أكن أتوقع أن أجد رجالاً للسفر فى الصحراء أفضل من الزوى، الذين شكلوا جزءًا من قافلتى؛ فزروالى على وجه الخصوص، الذى يعد نموذجًا لبدو الزوى، كان بالفعل أصدق صحبة وأفضل من يُعول على مرافقته.

فقد منح بدو "برقة" الدماء العربية التى مرت بشمال أفريقيا فى

(٢٨) هذه عقيدة شيعية تسمى "المهدية"، وهى تعنى أن الإمام يغيب فترة من الزمن ثم يرجع بعد غيبته وتستتره عن الناس، فيأتى ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، وهو عندهم المهدي المنتظر. وقد استشهد الإمام محمد المهدي السنوسى يوم الأحد ٢٤ صفر عام ١٣٢٠ هـ، الموافق ٢ يونية ١٩٠٢ م، بينما كان يحاول تحرير (علالى) من الاحتلال الفرنسى. "المترجمان"

(٢٩) كان من أحد أسباب نقل الإمام محمد المهدي مركز قيادته إلى "الكفرة" التى تقع إلى الجنوب الحملة الإعلامية والتهديد الفرنسى للحركة السنوسية. "المترجمان"

طريقها إلى "إسبانيا"، ورغم اختلاطه بالقبائل المحلية الأخرى فى شمال أفريقيا، فإنه كان لا يزال يحافظ على التقاليد العربية القديمة.

* * *

وفى حالة حدوث حادثة قتل بين البدو، فإن لهم قانوناً خاصاً فيما بينهم، وكقاعدة عامة يتدخل إخوان السنوسية كوسطاء سلام فيما بينهم؛ فيصطحبون القاتل وأحد أفراد قبيلته الكبار ويذهبون إلى مخيم القتيل وينصبون خيمة بالقرب منه، ثم يُفتح أحد الإخوان أسرة القتيل قائلاً "إن من قتل رجلكم هنا" ويمسكه بيده، مضيفاً "هذا هو من قتل ابنكم، سوف أسلمه لكم لتفعلوا به ما تشاءون"، وعادة ما تكون الإجابة "ربنا يسامحه، وعدله ورحمته تنزل عليه"، وبناء على هذا يبدأ الإخوان فى الترتيب للحصول على الدية، التى تكون غالباً ثلاثة آلاف دولار بالإضافة إلى عبد، أو قيمته السوقية وهى معلومة فيما بينهم. والقبيلة المصابة قد تختار بين قبول المال أو الحصول على ما يعادله من إبل أو غنم أو أية سلعة أخرى. كما قد يدفع المال على أقساط تتراوح بين سنة وثلاث سنوات، ويُنص على ذلك فى الاتفاق. وفى حالات نادرة جداً من أبرزها حالة العداء المتأصل فإن أسرة المتوفى ترفض قبول الدية، وهو ما يعنى أنها تعتزم قتل القاتل أو أحد أقربائه أو أحد زعماء قبيلته.

ويختلط فتيان البدو وفتياتها بحرية، ولكن فى الأسرة ذات المكانة الرفيعة تظل النساء فى الخباء. ومن الشائع أن يعرف الفتى محبوبته ويتوجه إلى خيامها، وينشد لها - فى الغالب الأعم - أبياتاً من نظمه، فإذا راق لها، فإنها تخرج وترد على شعره، وليس بالضرورة أن

تكون الكلمات من نظمها، وعندئذ يذهب الفتى ليطلب الفتاة من أهلها، وإذا تم الاتفاق يدفع المهر. ووفقاً للمراسم المتبعة يتوجه الفتى مع أصدقائه إلى دار الفتاة ليصطحبها إلى خيامه وسط عرض للفروسية والكثير من إطلاق البنادق.

وهناك العديد من القصص المعروفة عن فرار فتيات من ديارهن بهدف الزواج من غير موافقة آبائهم، وينتهى الأمر عادة بضغائن بين القبائل؛ لأن البدو ينظرون إلى هذا الرجل كما لو أنه سرق الفتاة منهم.

ويتم الزواج وفقاً للشريعة الإسلامية، وهناك عقد للزواج، يبرمه في كثير من الحالات الإخوان. ويتم الزواج في سن مبكرة جداً، حسب سن البلوغ، الذي يتراوح بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة للفتاة، وبين السابعة عشرة والعشرين للفتى، كما يستطيع البدو الأغنياء أن يتزوجوا أكثر من زوجة واحدة، ولكن في هذه الحالة تظل الزوجة الأولى هي سيدة الدار، ولها الأفضلية - حتى على الزوجة المفضلة للرجل - في كل ما يتعلق بإدارة المنزل.

وقد سمعتُ كثيراً عن حالات فتيان فقدوا عقولهم بعد أن سقطوا في حب فتيات لم يستطيعوا الزواج منهن؛ ففي إحدى المرات جاءني أحد فتيان البدو يطلب دواءً، كان يبدو ضعيفاً ونحيفاً للغاية، ذا ملامح دقيقة، تحدث قليلاً، ثم قال "لقد حضرت لأسألك عن دواء يمنحني الصحة"، ولما سألتها عن علته، هز رأسه وأجاب "ربنا العالم"، كان هناك شيء غريب في هذا الفتى، شيء محير، ولكن كما هو معتاد في مثل هذه الحالات، لم أكن أجد أمامي سوى بضعة أقراص من

الحبوب الممزوجة باللبن، تلف بعناية داخل إحدى الأوراق، وتعطى له، مع تعليمات صارمة ألا يأخذ منها أكثر من ثلاثة كل يوم، وبعد أن رحل الفتى، حضر رجل عجوز لخيمتى، وجلس القرفصاء على الأرض ثم بدأ فى الحديث "ربنا يعطيك الصحة، ويجعل الشفا دائماً على يديك، حضر ابنى إليك الآن، وأعطيته دواء، وحضرت لأخبرك بعلته، فهو ضعيف ومبتلى بالصداع دائماً، وعندما يحل الليل ينأى بنفسه عن كل فرد وينشد العزلة، وغالبًا ما يخرج ليمضى الليل فى الخلاء".

أخبرتُ العجوز أن الدواء الذى أعطيته للفتى هو الوحيد معى الذى قد يمنحه بعض الراحة"، فأجاب الرجل فى صوت حزين "ربنا هو الشافى، نحن نعلم دواءه، لكنه مكتوب ألا يناله؛ فالفتى متيم بفتاة رفض أبوها أن يزوجه إياها". فسألته "إذا كنت تعلم أن هذا هو سبب علة ابنك، فلماذا لا تعمل على تزويجه الفتاة؟" فأجاب الأب "فات الأوان، فقد تزوجت الفتاة بالفعل، وربنا العالم... فربما تكون على مسافة سفر أيام من هنا، لكنها تعاني من الداء ذاته"، وعندئذ نهض الرجل ورحل عن خيمتى مستسلمًا، فى صورة تدعو إلى الشفقة.

* * *

فى "جالو" - كما فى "جغبوب" - لم تكن هناك إبل تنتظرنى عندما وصلت، ولكن لم يكن ذلك للسبب نفسه، أو لأمر يدعو للقلق. فاستئجار الإبل اللازمة قد تم ترتيبه بالفعل، وكان مالکها عمر بوحليجا مستعدًا ليبدأ بمجرد أن تعود الحيوانات من الرعى.

لا يوجد بدوى يقبل أن يخرج فى رحلة طويلة قبل أن تسمن إبله وتتال كفايتها من الطعام خاصة من العلف الأخضر. فالمسار الطويل الخالى من نطاقات الرعى على الطريق - مثل الطريق إلى "الكفرة" - يعنى إطعام الإبل على التمر الجاف على وجه الخصوص. والتمر - كما يقول الجمّالون - "حامى على الكبد"؛ لذلك فهم يعدون حيواناتهم لهذه المحنة بوجبة من الطعام الأخضر قبل أن يبدأوا الرحلة.

وقد أخذت إبل بوحليجا إلى منطقة رعى مجاورة من أجل هذا النمط من الإعداد، وفى اليوم المحدد لعودتها لم تظهر، وفى اليوم التالى سألت عنها فلم أجد ردًا، وفى اليوم الذى يليه أصبحت مشغولاً، ثم فى اليوم الذى بعده أصبحت قلقاً خشية أن تكون الحيوانات قد فرت وهى تجلب من الرعى، إلا أنها لم تفعل ذلك؛ فقد ظهرت فى اليوم الرابع، وعندما جاءت كانت فى حالة ممتازة أنستى قلقى السابق.

استأجرت خمسة وثلاثين جملاً وناقّة، دفعت فيها ثمنًا باهظًا؛ فقد كنت أستطيع شراءها جميعًا بمبلغ يتراوح بين اثنى عشر وثمانية عشر جنيهاً مصريًا، بينما طلب بوحليجا ثلاثة عشر جنيهاً ونصف الجنيه فى مقابل استئجارها لرحلة تتراوح من شهرين إلى ثلاثة أشهر إلى "أبيش" فى "الوادى". ولكن الأمر هكذا كان أفضل لى، فإذا امتلكت الإبل فإن مسئولية رعايتها سوف تصبح كلها من نصيبى ومن نصيب رجالى الذين لا يوجد دافع لديهم للعناية بها أكثر من الدافع العام المتمثل فى الولاء لمالك القافلة، أو وظيفة العناية بالإبل

فى أفضل حال، بينما عندما ذهب رجال بوحليجا مع إبله، كانوا حريصين على أن تلقى أفضل رعاية. فطوال الرحلة إلى "الكفرة" ظلت عينه الخبيرة على كل واحدة منها، فإذا ما وهن جمل أو بدا مريضاً، كان ينقل حمولته ليواجه هذا الطارئ، وفعل كل ما فى وسعه لجعلها فى أفضل حال حتى نهاية الرحلة، وكانت عنايته بها تساوى عندى كل هذه التكلفة.

وبالإضافة إلى الإبل كنت أحتاج إلى مزيد من الرجال، وكان لايزال معى الأربعة الذين استأجرتهم من "القاهرة"، و"السلوم"، و"سيوة" وهم: عبدالله، وأحمد، وحماد، وإسماعيل، وأضفت إليهم خمسة آخرين هم: زروالى، وسنوسى بو حسان الدليل، وسعد الذى جاء من عجيلا، وحميد، وفراج (أحد العبيد)، وكان مع بوحليجا ابنه، واثنان من الجمّالين. وقد استكملت القائمة فى النهاية بخمسة أفراد من التبو^(٣٠) الرّحل، وهم سود من تيبستى، وهو إقليم يقع إلى الشمال الغربى من "الوادى". وكان عبد الله وزروالى بمثابة قائدى القافلة؛

(٣٠) التبو (Tebus - Tibous - Toubous): بدو رحل يعيشون على رعي الأغنام والإبل ويتبعون الكلاً والماء أينما وجداء، وكانوا يمارسون التجارة أيضاً عبر الصحراء؛ حيث يجلبون البضائع من "فزان" لبيعها فى جنوب "تشاد" والعكس. وتاريخ التبو يكتنفه الكثير من الغموض؛ لذلك عانى المؤرخون كثيراً من قلة المعلومات عن هذه القبائل. ومعظم الذين كتبوا عن التبو هم من الرحالة الغربيين الذين جابوا الصحراء الليبية منذ القدم وقلة قليلة من العرب. أما بالنسبة للتبو فإنهم لم يكتبوا شيئاً، ولم يتركوا أثاراً واضحة يمكن الاستدلال بها على تاريخهم. وينقسم التبو إلى قسمين: التيدا؛ ويتركز معظمهم فى جنوب "ليبيا" وبالتحديد فى "القطرون" و"جرهسى" و"مرزق" و"أوبارى" و"الكفرة" و"ربيانة"، وكذلك شمال تشاد ولهم لغة خاصة بهم تسمى "التيداغا"، وهى خليط من العربية والأمهرية والهوسية. الداذا: وهؤلاء يسكنون فى شمال تشاد، وبالتحديد فى "بوركو" و"إنيدى" ووسط وغرب "تشاد"، ومنطقة "بحر غزال". "المترجمان"

فالأول كان مسئول عن الأمتعة والمؤون، بينما كان الثانى مسئولاً عن الإبل والرجال، وكانا بالفعل أفضل رفيقين يستطيع المرء أن يحظى بهما عند السفر فى الصحراء.

احتجنا أيضاً إلى ملابس أخرى، وبعض أنواع الطعام، والأحذية، خاصة الأخيرة؛ فالخف البدوى الذى بلا كعب، وهو الشيء الوحيد الذى يمكن انتعاله فى الصحراء، كان يبلى سريعاً، ومن الشائع أن يتم إصلاحه فى أثناء الطريق. وكان من الضرورى أن يتم التأكد من أن كلاً منا ليس معه حذاء احتياطى فقط بل معه أيضاً الجلد الذى سوف يحتاج إليه بكل تأكيد لكى يرقعه إلى أن يصل إلى "الكفرة".

وفى "جالو" عثرت على صانع أحذية شهير، تُدعى حميدة، وكنت قد قابلته فى "الكفرة" قبل عامين وصنع لى حذاء، وفى هذه المرة كان معى الحذاء ذاته الذى سبق أن صنعه لى، وكان فى حاجة ماسة لرقعه، وكانت سعادته بالغة عندما أخذته له ليصلحه.

كان ذا مظهر جليل تظن معه بسهولة أنه قاضٍ، أو على الأقل أحد أعضاء مجلس الواحة، وكان يحضر إلى دارى يوماً تلو الآخر ليعمل فى صنع خمسة أزواج من الأحذية، وكذلك فى صنع أحذية لرجالى، بالإضافة إلى إصلاح سروجنا وتجهيزاتنا الجلدية الأخرى. وكان من الممتع أن أمنحه وجبة طعام ثم أدعوه بعد ذلك بمودة إلى كوب شاي. وفى أحد الأيام كان يسعل عندما جاء الشاي، وأبدت تعاطفى لاعتلال صحته، فنظر إلىَّ عبر كوب شايه وأجاب فى صوت هادئ " ولكن شاي سيدى البيه دائماً يوقف سعالى، وليس أى شاي آخر، ولكن دائماً شايك فقط". لم أتجاهل التلميح الذى ألقاه

بلباقة، وقبل أن نرحل عن "جالو" تلقى حميدة هدية منى عبارة عن عبوة صغيرة من ذلك الشاي العجيب.

إلى جانب أحذيتي والجلود، اشتريت قماشاً من أجل ملابس الرجال، وزبد، وزيت، وشعير، وحطب، وثمانى قرب، وعلى الرغم من أن على كاجا عبد السيد إدريس المفضل وأمينه - الوكيل - فى "جالو"، أخبرنى أن سيده أمره بأن يضع تحت تصرفى كل مخزونه من المؤن من الأنواع كافة، إلا أنني شكرته ولم أسمح لنفسى بقبول عرضه، فقد وصلت للتو من مصر وأنا كامل التجهيز، وأعلم كم يعنى هذا المخزون لمن يعيشون فى هذه الرقعة المنعزلة.

بالإضافة إلى هذه التجهيزات، أنفقت الأيام العشرة التى أمضيتها فى "جالو" فى تبادل الضيافة وفى الأعمال العلمية. وكانت الضيافة على أعلى مستوى من مستويات الضيافة البدوية؛ وفى اليوم الأول تناولت عشائى مع سنوسى قادر بوح القائم مقام أو حاكم "جالو"، وفى اليوم الثانى تناولت طعام الغداء فى دار البشارى أكثر زعماء تجار المجابرة أهمية، وكان ينتظرنى مضيفى وابنه، وفى اليوم الثالث أرسل لى الغداء أعضاء المجلس، وشاركنى الطعام زروالى "القاضى"، وعلى كاجا، ومُجيب، وبعد الطعام تحدثت مع القاضى عن تاريخ السنوسية، وأرونى خطابات من السنوسى الكبير، ومن المهدي ابنه، بينما عشاء هذا اليوم جاء من عند الحاج فرحات، تاجر آخر من تجار المجابرة، وشاركنى فى تناوله كل من القائم مقام، وزروالى، وعلى كاجا، ومُجيب، عبد الله، وبينما كنا نأكل ناقشنا عادة "بوزافار"، التى أجمع الكل على أنها لا يصح أن تكون وجبة طعام، بل يجب ذبح خروف وتناول لحمه.

وفى اليوم الرابع تغديت فى دار الحاج على بلال من المجابرة، وقد دونت فى يومياتى أنه قد حضر هذا الغداء الأفراد المعتادون، وأن الغداء كان جيدًا للغاية، كما أرسل لى العشاء الحاج سيد، وهو أيضًا أحد تجار المجابرة، وشاركنى فيه كل من القائم مقام، وزروالى، والقاضى، وفى اليوم التالى تغديت فى دار الحاج غريبال، وفى هذا المساء حدثت أكثر تجاربى إثارة فى مجال الضيافة؛ فقد كان يعيش فى "جالو" بضع سيدات من عائلة السنوسى - ومن بينهن زوجة السيد إدريس وأخته - وبعد فترة قصيرة من وصولى إلى "جالو" أرسلن لى دعوة للعشاء، وكانت تلك حادثة غير مألوفة؛ فنساء البدو من الطبقة العليا لا يوجهن الدعوة للرجال على النحو الذى تفعله النساء فى الغرب واللاتى يمكنهن فعل ذلك بلا غضاضة، وكنت مدركًا بالطبع أننى لن أتناول عشائى بالفعل مع مضيفاتى بل مع من سينوب عنهن، ورغم هذا كنت مقدرًا بحق لذلك التكريم الذى لم يسبق له مثيل.

وفى الموعد المحدد حضر ليرافقنى للعشاء كل من زروالى والقائم مقام، وكانت الدار التى تشغلها النساء هى دار الحاكم السابق إبان الحكم التركى. وبعد أن وصلت إليها وجدت نفسى فى حجرة فسيحة، حيث كانت الأضواء الناعمة المنبعثة من مشكاة نحاسية رائعة الجمال، وأعداد لا تحصى من الشموع تعمل على إثراء عذوبة الضوء والتركيبات اللونية الثرية للسجاجيد التى لا تقدر بثمن والوسائد الحريرية فى هذا المكان. وتولى سيدى صالح - زوج إحدى سيدات السنوسية - دور المضيف نيابة عنهن. وتحت إشراف ضيافته مدّت أمامنا مائدة رائعة بواسطة نصف دسنة من العبيد. وعندما

أصبح علينا أن نأكل طلب منى ذلك بلطف وكياسة، ورغم هذا كنت خائفاً أكثر مما تتطلبه طبيعة الأمر، وقد انتهت الوليمة بغسيل أيدينا فى أوانٍ أحضرها العبيد، وبأكواب الشاي الثلاثة الرسمية، ورش ماء الورد فوقنا، وإشعال البخور أمامنا، ثم جاء رئيس العبيد وبشكل تبجلى همس فى أذنى "هل يرغبى البية سماع بعض الموسيقى؟ لدينا جرامافون وبعض التسجيلات لمغنين مشهورين من مصر، على البية فقط أن يأمر".

وربما خبيت آمال رفقاءى - لا أدرى - ولكن طبقاً لقناعتى، رفضت بأدب جم عرض الترفيه هذا؛ فقد كان هناك شىء نادر وثمين فى أجواء هذه الحجرة ناعمة الإضاءة، شعرت أنه قد تنتهكه تلك الأصوات القادمة من خارج الصحراء، وربما يعود جزء منه لجمال المكان، والبعد عن العالم، ولكن على وجه الخصوص لذلك الشعور بأننى ضيف على نساء بدويات نبيلات، وكن يخطفين عنى طبقاً لتقاليد مجتمعنا الشرقى، إلا أنهم كن بالمعنى الحقيقى للكلمة حاضرات من خلال ضيافتهن الفاتنة ورعايتهن الكريمة، اللتين جعلتا من هذا المساء ذكرى فريدة لا تُنسى. أخبرت العبد أن ينقل تحياتى واحترامى إلى السيدات ويخبرهن كم تأثرت بشدة بمجاملتهن الكريمة، وبعدها خرجت إلى ليل الصحراء الصافى ونسماته الناعمة التى كانت تثير رائحة البخور من ثنایا جيردى لتذكرنى بقوة بالسلام والسكينة الغامضة التى كانت تعبق الحجرة التى أتيت منها.

وفى اليوم التالى رددت واجب الضيافة لكل أولئك الذين ضايفونى بكرم بالغ. وكانت حجرتى بأرضها الطينية الجافة وحقائب

السفر الملوثة التى تصطف حول جدرانها لا يمكن مقارنتها بالدار الساحرة التى تناولت فيها العشاء فى الليلة السابقة، إلا أن على كاجا أخذ على عاتقه أن يجعلها مقبولة بقدر ما تسمح به الظروف. ومن خلال زوج من الفوانيس النحاسية الجميلة، وبعض البسط المستعارة من دار السيد إدريس وبعض الكماليات الأخرى استطاع أن يحاكي باحترام قاعة طعام. وكان ضيوفى هم: القائم مقام، وأعضاء المجلس، واثنان من الإخوان، والقاضى، وعلى كاجا، وموسى قائد سلاح المدفعية السنوسية، وزروالى.

ارتديت أفضل ثيابى البدوية، وانتظرتهم حتى ينتهوا من الطعام كما يجب أن يفعل المضيف البدوى، وعندما طلب منى بعض الرجال - من أولئك الذين سبق أن كانوا فى العالم الخارجى - أن أجلس معهم وأتناول الطعام أكدت لهم سوف أفعل ذلك عندما يكونون ضيوفى فى القاهرة.

واجتهد أحمد - الطاهى الخاص بى - فى إعداد العديد من الأطباق الأوروبية المميزة ليشير إلى مدى تفرد ولائنا، وقد كانت سعادة ضيوفى بالغة بما قدمه.

أنهت وليمتى تبادل الضيافة فيما بيننا، ولمدة يوم أو اثنين كنت حرًا فى تناول طعام الغداء والعشاء فى عزلة هادئة، إلا أننى كنت أكن امتنانًا بالغًا لمضيفى الكرماء لحسن ضيافتهم وكريم استقبالهم.

كان الجزء المهم من نشاطى فى "جالو" هو قيامى بجمع بعض الملاحظات العلمية؛ فقد راقبت الشمس والنجوم لكى أحدد خطوط الطول ودوائر العرض، وأدون القراءات المألوفة للبارومتر الزئبقى

والترمومتر لتحديد منسوب المنطقة بالنسبة لمستوى سطح البحر. وملاحظاتي حول النقطة الأخيرة - عندما تم الانتهاء من إيجاد العلاقة بين التسجيلات التي تمت للبارومتر في "سيوة" في اليوم ذاته - كشفت الحقيقة المثيرة؛ حيث أن منسوب "جالو" أعلى اليوم بنحو ٦٠ مترًا عما سجله رولفس عام ١٨٧٩؛ فقد وجد أن "جالو" تكاد أن تكون على منسوب سطح البحر، بينما وجدت أنها على منسوب ٦٠ مترًا أعلى. وقد رأيت تفسير ذلك ماثلاً أمام عيني؛ فقد تسلفت الرمال المترسبة ببطء جذوع أشجار النخيل وحوائط الدور، مهددة إياها بأن تبتلعها، بل إن بعض السكان قاموا بالفعل بنقل منازلهم، وأعادوا تشييدها على مناسيب أعلى بسبب تراكم الرمال بانتظام، والذي تجرفه العواصف الرملية ويتجمع أينما كانت هناك أشجار أو دور توقف تقدمه، وهو ما رفع منسوب "جالو" لما يقرب من ٢٠٠ قدم فوق منسوب سطح البحر خلال أربعة وأربعين عامًا. فالمنزل الذي كنت أعيش فيه، حيث سجلت قراءة البارومتر، كان على منسوب أعلى من باقى الدور فى "جالو" بما يتراوح بين ١٥ و ٢٠ مترًا.

وعند جمع ملاحظاتي العلمية كان على أن أكون حذرًا؛ لأن البدو يرتابون فى أى شىء ذى مظهر علمى معقد مثل "الثيودليت"؛ فقد كانوا واثقين من أننى أعد خريطة بهدف العودة مرة ثانية لاحتلال أرضهم. ففى أول مرة أمسك بى أحد زعماء البدو والرجل الذى كان سيرشدنا إلى "الكفرة" مع الثيودليت الخاص بى. كان على أن أشرح لهما بسرعة وبصورة مقنعة بأننى أجمع بيانات بهدف إعداد إمساكية لشهر رمضان القادم.

أما عبد الله الذى لم يكن بدويًا بالطبع، فقد كان ذا فائدة لا تقدر بثمن بالنسبة لعملية الترميم على أنشطتى العلمية؛ ففي الواقع كان متخصصًا فى اختلاق هذه الأكاذيب الصغيرة التى تنعم مسار الحياة وتحافظ على المشاعر الاجتماعية. ففي أحد الأيام كنا نستخدم اليهودايت على مسافة ما من البلدة، وسألنا أحد سكان المنطقة عما نفعل، وقال له عبدالله إننا نلتقط صورة " لجالو".

فسأله البدوى " كيف يمكن ذلك من كل هذه المسافة؟"

وكان لدى عبدالله تفسير جاهز؛ فأكد له بطريقة عفوية "الآلة تجذب الصورة؛ لذا فهى تخرج مباشرة من موضعها وتطير نحوها".

فسأله البدوى مرتابًا " ولكن كيف يستطيع الصندوق جذب الصورة؟ "

فضرب له عبد الله مثلاً " اسأل المغناطيس كيف يجذب الحديد؟! " ونال منه ببلاغته، وأغلق باب المناقشة.

الفصل العاشر

الرحلة

«بحلول يوم الخميس الموافق ١٥ مارس أصبحنا مستعدين للرحيل. استيقظت في السادسة صباحًا لإعداد أمتعتي، وكما هو معتاد في أول أيام السفر عندما تكون القافلة لم تألف بعد هذه العملية فإن الأمر يتطلب وقتًا طويلاً، وقد تطلب منا ذلك نحو ثلاث ساعات لتنتهي من التحميل».

وكان علينا بعد ذلك أن نتبع عادة البدو في "التجهيز"، وهو ما يعنى أن نجاور إحدى الآبار قبل أن نبدأ الرحلة، ونقضى عندها بضعة أيام - قد تمتد في بعض الأحيان إلى أسبوع - في الإعداد النهائي للسفر قبل أن نهجر حياة العمران، وكانت بئر "بوظفل" التي تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً من "جالو" هي النقطة التي سوف نعد عندها "تجهيزنا".

وبينما كانت تتم عملية حزم الأمتعة، حضر لإبداء مراسم المودة أو الوداع كل من القائم مقام والوجهاء والإخوان، وجلسنا سوياً لنناقش ما سيؤول إليه الحال في الرحلة؛ فقبل عامين قمت بالرحلة نفسها إلى "الكفرة"، في ظل ظروف أفضل، ورغم هذا فقد ضللنا طريقنا قبل أن نتمكن من الوصول إلى "الكفرة"، رغم أن الجو كان أبرد مما هو عليه الآن؛ لأننا كنا مبكرين عن هذا الوقت بشهرين،

ولم تكن الرياح والعواصف الرملية بمثل هذا التواصل، وكانت القافلة أصغر حجمًا، كما لم تبرز في هذا الوقت مشكلة توفير الإبل وعلفها، والرجال وطعامهم واحتياجاتهم؛ فقد تكفل بإعداد القافلة وتجهيزها بالكامل الإمام الكريم السيد إدريس، وهو الأمر الذي كان قيد الاعتبار في تهدئة شكوك البدو والحد من عدائهم للغرباء. بينما في هذه المرة، كان على أن أتولى بنفسى إعداد الإبل والأفراد، وكان من الطبيعى أن تثير الفضول هذه القافلة الكبيرة جدًا التى تتضمن كميات من الأمتعة الضرورية وغير الطبيعية لرحلة طويلة.

فى هذه الطرق الطويلة الخالية من مصادر المياه غالبًا ما تكون الطبيعة هى العدو الوحيد، وهى تستطيع أن تكون كذلك إذا ما أرادت.

إلا أنه من حسن الحظ أن أفراد قافلتى تعاونوا معًا على نحو جيد؛ فالأفراد الأربعة الذين أحضرتهم من "القاهرة" و"السلوم" و"سيوة" تألفوا تمامًا مع كل الأفراد الذين قابلناهم، كما أن زروالى - وهو أحد إخوان السنوسية الذى أوفده السيد إدريس ليرافقنا - كان ودودًا بطبعه، وبذل كل ما فى وسعه ليجعل رحلتنا مريحة قدر الإمكان، وشعرت أنه لا يوجد اهتمام حقيقى بما هو قادم؛ فلا يهم ماذا قد تختاره الطبيعة لتفعله بنا.

عندما تم تحميل الإبل كلها، شرعنا فى أداء مراسم الوداع المبجلة، فوقفنا فى شكل قوسين يواجه كل منهما الآخر، شغلت أنا ورجالى أحد هذين القوسين بينما كان رئيس "جالو" وإخوان السنوسية فى الآخر، وفى وقار وخشوع رفعنا أكفنا بالدعاء آمليين أن تكون

رحلتنا مباركة، وأن يرشدنا الله - سبحانه وتعالى - ويعيدنا إلى ديارنا سالمين غانمين، وقرأنا "الفاتحة" - السورة الأولى من القرآن الكريم - ثم قال أكبر أفراد الإخوان سنًا "أمين"، ثم تصافحنا، وافترقنا. وكان صياح الرجال وهم يستحثون الإبل يرد صده زغاريد النساء، وأخيرًا أصبحنا على الطريق.

وبينما كنا نمر "باللّبة"، ثانی قرى "جالو"، وقعت حادثة بعثت البهجة في طريقنا؛ فقد اعترضت طريقنا فتاة رشيقة القد، تخفى وجهها عنا بحجاب بدوى، وفي صوت واحد صياح الرجال على مقربة منها:

"وشك، وشك، وشك"

فاستدارت الفتاة، وفي وقار نحت جانبًا حجابها، لتكشف عن ملامح فاتنة كأنها نحتت بإزميل، فوق بشرة زيتونية راقية اللون يكسوها خجل لا يخلو من أمارات الكبرياء الذى يتسم به عذارى البدو، صياح الرجال سرورًا لجمالها ومجاملتها، وحتى تكتمل التقاليد أمرتهم أن يفرغوا بنادقهم عند قدميها، ثم بدأ حامد وسعد فى أداء مراسم تحية الفتاة الجميلة؛ فبدأ الأول ثم تلاه الآخر، رقص الرجل بخفة نحوها متخيلاً وجود إيقاع طبل بدوى، بينما كان يمسك بندقيته بكتا يديه ويرفعها فوق رأسه، وفوهة البندقية موجهة للأمام، وكان يردد إحدى الأغاني البدوية، وعندما اقترب منها تمامًا خرَّ بخفة على إحدى ركبتيه ووضع بندقيته فى وضع رأسى وفوهتها لأسفل ثم أطلقها على مسافة قريبة جدًا من قدميها.

كانت الطلقة قريبة جدًا وتصويبه كان دقيقًا للغاية؛ حتى إن وهج البرود المتطاير منها سفع خف الفتاة وحرق سطحه، ورغم هذا لم تجفل الفتاة من الانفجار، بل وقفت منتصبة في كبرياء تواجه التكريم الذى قدم لها؛ إذ إن سفع خف الفتاة فى الصحراء يعد علامة على تميزها، وهو أمر تعتر به أية فتاة بدوية. وبعد ذلك قام سعد بمحاكاة حامد فى أداء المراسم، ثم أطلق رجال القافلة مزيدًا من الطلقات وبعد ذلك تحركنا.

ابتسمت الفتاة لنا، وبقدر التكريم الذى قُدم لها بقدر سعادتنا للفأل الحسن أن يقطع طريقنا وجه جميل عند بداية رحلتنا، وخلال ساعة عدنا للصحراء الشاسعة من جديد.

وبعد ثماني ساعات من السير المتواصل وصلنا إلى بئر "بوطفل" التى كان علينا أن نتوقف عندها لمدة يوم واحد فقط.

مرت هذه الليلة سريعًا، وذلك من خلال الغناء والحديث حول نيران المخيم الذى امتد لما بعد منتصف الليل. وبعد أن هدا المخيم، اصطحبت غليونى معى وذهبت لأتمشى، كانت تلك دائمًا إحدى أكثر متع حياتى فى الصحراء: أن أدخن غليونى فى سلام قبل أن أعود دائمًا فى سلام؛ فإذا ما كان اليوم جيدًا فإن لذة التدخين يقترن بها شعور بالرضا، وإذا كان سيئًا فهناك دائمًا أمل فى اليوم المقبل، وإيمان بأن كل شيء سوف يصبح على ما يرام؛ فطوال الرحلة بأثرها لم أذهب يومًا إلى النوم مصطحبًا معى ما يقلقنى، أو يشغل بالى، مهما كنت مبتلى بالحوادث أو الظروف.

أنفقنا اليوم التالى فى الإعداد النهائى للرحيل؛ حيث وصل بوحليجا مالك الإبل فى ركب صغير يتكون من ثلاث إبل، وفى أثناء النهار وصل رجل آخر من "جالو" ومعه شىء لنا؛ فقد كنا فى حاجة ماسة إلى حبال، ولكن الثمن الذى طلبه البائعون كان باهظاً للغاية، حتى إن عبد الله تشاجر معهم وترك أمر إتمام الصفقة معلقاً حتى الدقيقة الأخيرة، ثم رتب مع رجل يدعى سنوسى بوجابر ليحضر لنا الحبال فى "بوطفل".

وعندما وصل هذا الرجل، حضر إلى خيمتى، ليخبرنى أن لسه أخاً فى "الواداى" وطلب منى أن يرافقنا، وسوف يعمل ليسدد تكاليف رحلته، تفحصت الرجل سريعاً وقررت ما سوف أفعله، اكتشفتُ بجلاء أنه يملك روح المرح، وتقريباً إن لم يكن على وجه التحديد فهي تعد من أكثر الأمور قيمةً خلال السفر فى الصحراء؛ فالقدرة قد تقشل، بينما الروح المرحية تمكن المرء من أن يظل رابط الجأش حتى اللحظة الأخيرة. كنت مستعداً لأن أخذه، ولكن بدا الأمر غير ممكن؛ لذا قلت له "نحن على وشك الرحيل، ولا يوجد وقت لديك حتى تحضر أغراضك من "جالو" وتعود لنا فى رحلة قد تتطلب يوماً كاملاً".

فوجدته يقول "إنها معى هنا".

سألته وأنا أنظر إليه فى ريبة أين هي؟!

أجاب وهو يشير إلى الرداء الذى يرتديه والعصا التى يمسكها "أهه".

انفجرت في الضحك لفكرة تجهيزاته لرحلة صحراوية شناقة،
وشاركني المرح، طمأنته أنه يمكنه الانضمام إلينا، ولم أندم مطلقاً
على قرارى هذا؛ فقد أثبت أنه أحد أفضل الرجال الذين حظيت بهم.

فى صباح اليوم التالى، سقينا الإبل، وهو الأمر الذى يجب ألا
نتعجل فيه؛ فلا شىء أكثر أهمية فى الترحال من حالة إبلك، ولا
يقتصر الأمر فقط على أن تكون سمينة، وأن تتناول كفايتها من
الطعام عند بداية الرحلة، بل يجب أيضاً أن يسمح لها بالشرب بترو،
وأن تتاح لها الراحة بعد الشرب، وعندما أصبحت الإبل جاهزة، تم
تحميلها بعناية بالغة؛ لأن الحزم والتحميل الجيد فى البداية يعنى
توفير الكثير من الوقت والمشاكل طوال الرحلة. والسرعة فى التحميل
والإنزال تتحقق مع مرور يوم تلو الآخر، وفى بعض الأحيان قد
تعنى توفير يوم أو يومين قبل نهاية الرحلة.

بحلول الساعة الثانية والنصف بعد الظهر أصبحنا مستعدين
للرحيل، وبينما كانت الإبل تتحرك ببطء ارتفع صوت بوحليجنا
الجهورى بالأذان "حى على الصلاة"، طبقاً لعادات البدو عند بداية
رحلة طويلة؛ فهو تقليد بدوى مفاده أن أولئك الذين يبدأون رحلتهم مع
الأذان سوف ينهونها مع الأذان أيضاً، وهو ما يعنى أن القافلة لن
تواجه كارثة على الطريق.

ظلت قافلتنا تزداد تدريجياً حتى أصبحت تتكون من واحد
وعشرين رجلاً، وتسعة وثلاثين جملًا وناقة، بالإضافة إلى حصان
وكلب، وكان بيان رجالها على النحو التالى: أنا ورجالى الأربعة
(عبدالله، وأحمد، وحامد، وإسماعيل)، ثم زروالى، وبوحليجا مالك

الإبل، وابنه، وابن أخيه، وعبد، وكان هناك أيضًا داوود عم زروالى - الذى كان معه جمل واحد سوف يذهب به إلى واحة "تايزربو" (٣١) ليعود منها بزوجته وابنته - بالإضافة إلى سنوسى بوحسان "دليلنا"، وسنوسى بوجابر - الفتى صاحب القميص والعصا - وحامد من الزوى، وهو صبي آخر كان غناؤه عذبًا، وسعد العجلى، وفراج العبد، واثنان من أفراد التبو، ومعهم ثلاثة جمال، وبالإضافة إلى كل ماسبق كان هناك ثلاثة أفراد آخرين من التبو معهم ثلاثة جمال محملة ببضائع سوف يسلمونها للتجار فى "الكفرة".

جعلنا وجهتنا صوب الجنوب متجهين إلى "الكفرة"، كان الجو حارًا وعاصفًا، والصحراء تمتد أمامنا مثل فطيرة حارة لا نهاية لها، وكانت الأرض التى نجتازها من نوع "السريرة"، وهى عبارة عن أرض منبسطة من الرمال الخشنة التى يتناثر فوقها القليل من الحصى.

كان هدفنا الأول بئر "زيغن"، الذى كان يتعين علينا أن نصل إليها بعد ثمانية أو تسعة أيام، وفى الماضى - قبل عهد السنوسية - كان من المعتاد أن تقطع الرحلة من "جالو" إلى "زيغن" فى ثلاثة أيام وخمس ليالٍ من السير المتواصل، دون توقف حتى للراحة أو تناول الطعام، ولكن السنوسيين غيروا كل هذا؛ فقد استتوا عُرفًا يتضمن اصطحاب ما يكفى من الماء والطعام لأن يسمح بأن تقطع هذه الرحلة فى ضعف المدة السابقة، وفى المقابل تتاح فترة كافية من الراحة للإبل والرجال كل يوم.

(٣١) واحة تبعد عن منخفض الكفرة بنحو ٢٠٠ كيلومتر فى اتجاه الشمال. "المترجمان"

تحركت إيلنا فى البداية على مضض؛ لأنها تركت للتو رعيًا جيدًا، وهى بالأحرى تفضل العودة إليه.

وقد حاول بوحليجا بكل ما فى وسعه إقناع أفراد التبو التجار بأن يتقدموا القافلة بإبلهم، إلا أنهم رفضوا بمهارة؛ فشرف تقدم الصف أمر شاق؛ لأن الإبل مستعدة أن تتبع من يتقدمها، لكنها لا تحب أن تتقدم إلى الأمام اعتمادًا على أنفسها؛ لذا يصبح لزامًا أن يُقاد أول جمل فى القافلة، وغالبًا ما يضرب بالعصا حتى يستحث على التقدم؛ لذا فضل أفراد " التبو " أن يشغلوا ذيل الموكب حيث لا تحتاج إبلهم لمن يستحثها على السير، إلا أن بوحليجا استطاع بعد ذلك أن يثأر منهم لإصرارهم على اختيار هذا الموقع.

ظل الطقس حارًا وعاصفًا طوال فترة ما بعد الظهر، لكن فى المساء قلّت شدة الرياح لتصبح نسمات رقيقة، وارتدت الصحراء كامل سحرها، ووجدت فى يومياتى بعض التداعيات الفكرية والمشاعر التى خامرتنى هذه الليلة حول العودة إلى هذه الصحراء العجوز التى أعشقها، وكنت وقتها أقرب من النقطة التى ضللتنا فيها طريقنا منذ عامين.

إنها الصحراء المنبسطة ذاتها، والشعور بالذكريات القديمة. كيف للمرء أن ينسى الصحراء بشمسها الحارقة، ورياحها التى تؤرق هدوء ليلها، وغروب شمسها، وبزوغ قمرها، ثم تلك النسمات الناعمة الصافية، بل كيف له أن ينسى أخطارها المحدقة، والإدراك الكامل لتلك المتع البسيطة التى تحببها الصحراء إلى المرء على الرغم من خشونتها وقسوة عيشها؟!!

كوب الشاي

السيجارة

الغليون

عبير التبغ المتمايل بفعل النسمات النشطة.

تراقص النيران المشتعلة فوق وجوه أفراد القافلة، سواء العجوز المتجعد، أو الناعم الفتى.

أن ترى الرجال يكدحون، ينجحون، يفشلون، يعانون، فى فضاء آخر من الحياة.

وفوق ذلك كله، أن تكون قريبًا من الله سبحانه وتعالى، وأن تشعر بوجوده الدائم.

١٨ مارس: استيقظنا فى السادسة صباحًا، وتم تحميل الإبل بسرعة حيث استغرقت هذه العملية نحو خمس وثلاثين دقيقة فقط؛ فالاهتمام الذى أوليناه عند التحميل أول مرة فى "جالو" و"بوظفل" جعل السرعة ممكنة الآن، ورغم هذا فقد بلغت التاسعة صباحًا قبل أن نصبح متأهبين للرحيل؛ فالبرنامج الصباحى للمخيم ليس من الأمور التى يملك المرء التعجل فيها بأمان؛ فالبدوى لا يحب مطلقًا أن يتعبله أحد أثناء تناول وجبته، أو أن يُحرّم من دقائق الراحة التى تلى ذلك، والتى تعد أحد الأمور الجوهرية فى منظومة سلامه النفسى، ورضائه الروحى، والقائد الحكيم سوف يدرك أن التحامل على الرجال فى هذا الأمر يجب أن يؤخذ بحذر.

* * *

وربما يعد هذا الموضع ملائمًا للغاية لأن نعرض للخطوط العريضة لأحد أيام السفر النمطية في ظل الظروف التي سادت حتى وصولنا إلى "أركينو".

على الرغم من أننا كنا في شهر مارس، فقد كان الجو لا يزال باردًا في الصباح، والمرء يستيقظ غالبًا بعد الفجر بقليل؛ لأن البرودة القارصة تحول دون أن يستمر في فراشه أكثر من هذا؛ فحتى أكياس النوم والبطاطين البدوية لا تفلح في حماية الجسم من قشعريرة البرودة، أختلس النظر للخارج عبر حاشية خيمتى فألمح النجوم لاتزال صامدة في السماء، وأن أحدهم قد أشعل النار بالفعل، ولعل الحافز الأول للخروج من خيمتى هو أن أتوجه إليها دون تأخير، ألتحف بجيردى وأحكم ربط الكوفية حول أذنى، وأندفع بسرعة صوب اللهب المتطاير؛ إذ لا يوجد شيء حار فى الصحراء فى ساعات الصباح الباردة سوى هذه النار، أقف بجوارها واتطلع حولى، لا تزال أمارات الحياة فى المخيم محدودة حتى الآن. وعلى الرغم من أن كل الرجال قد استيقظوا؛ فهم يحتشدون معًا بحثًا عن الدفء، يلتفون فى جيردهم وفى كل ثوب آخر تستطيع أيديهم أن تقع عليه، وعندما يكون الماء وفيرًا تدور أكواب الشاي الساخنة، وبعد أن يشرب الجميع توزع مهام العمل فى المخيم؛ فيتوجه الجمالون إلى الإبل ليطعموها بالبلح الجاف، الذى تمضغه الدواب بالكامل بما فيه من نوى، ثم يبدأ التشاور حول الإبل؛ فإذا ما عانت إحداها فى اليوم السابق من ثقل الحمولة، فربما يتقرر نقل هذه الحمولة أو قد يُوصى بحزمها وتحميلها.

بينما يقوم الرجال الآخرون بجمع الخيام الثلاثة التى تشغل
رءوس مثلث تقف الإبل فى مركزه، أما الأمتعة التى استخدمت
كحواجز للرياح الباردة، فتصنف وترتب استعدادًا لتحميلها.

وفى هذه الأثناء أنكب على البارومتر والترمومتر، وأسجل
قراءتهما فى موضعهما فى يومياتى العلمية، وأرى إن كانت
الكاميرات بها أفلام كافية أم لا.

مازال صوت الرجال فى المخيم خافتًا بعض الشيء، تحجبه
الكوفيات والملابس الإضافية. أخيرًا أعد الإفطار، الذى قد يكون
"عصيدة" - طبق البدو القومى، وهو نوع من البودنج، يُطهى من
الدقيق والزيت والتوابل - وقد يكون أرزًا، وهما فى كلا الحالتين
يعدان وجبة بسيطة بكل ما فى الكلمة من معنى، إلا أنه مع شهية
المرء المفتوحة يهجم عليها بنهم شديد. ففى الصحراء أى نفور من
وجبة الطعام الأولى فى اليوم قد تشعر المرء أنه بعيد عن الديار.

ينتهى الإفطار دائمًا بثلاثة أكواب حتمية من الشاي، تُشرب على
مهل وباسترخاء بالغ، ومهما يفعل أحدهم، فعلى المرء ألا يحرم أى
فرد من شرب الشاي أو يتعجله فى شربه؛ فالبدوى إذا أعطيته وجبة
تسبعه، وسمحت له بعد ذلك أن يرتشف ثلاثة أكواب من الشاي على
مهل، سوف تحصل منه على أى عمل تريده، أما إذا بخلت عليه أو
تعجلته فسوف تحصل على عمل أسوأ من عدمه.

بعد الإفطار يشعر الكل بالدفء والسرور، ويكونون مستعدين
للعمل الشاق. يتم التحميل بسرعة، ويتباين زمن هذه العملية نتيجة
للسلوك الغريب لبعيرين أو ثلاثة من صغار الإبل العابثة، وهو أمر

يحدث في كل قافلة؛ فهذه الإبل الصغيرة تقاوم وضع الأحمال فوق ظهورها، بل إنها قد تلقى كل أحمالها بعد أن ينتهى التحميل تمامًا؛ لذا يكون زروالى وعبد الله يقظين ليتأكدا من أن التحميل قد تم بعناية ودقة بالغة؛ فنصف ساعة زائدة تبذل الآن قد توفر من ساعتين إلى ثلاث ساعات يوميًا بعد ذلك على الطريق بسبب انزلاق الحمولة أو التوزيع الخطأ للأحمال.

وعندما تصبح القافلة كلها مستعدة، أتبّادل بضع كلمات مع الدليل عن اتجاه سيرنا اليوم، فيرسم خطأً على الرمال ويشير إليه ويقول "من هنا يمتد طريقنا"، فأرصد اتجاه الخط ببوصلتي، وهو الأمر الذى يبدو له - بلا شك - منافياً للعقل، وإن كان ذلك لا يضيرنى؛ فقد كنت أحب أن أكون قادرًا على التحقق بواسطة بوصلتي من الاتجاه الذى تسلكه القافلة على مدار اليوم، وبصفة عامة أثبت الحذر عدم جدواه؛ فسئوسى بوحسان كان يتوجه إلى مقصده مثل الحمام الزاجل، باستثناء حلول محل منتصف النهار؛ فقد كان فى ذلك الوقت يحيد قليلاً عن وجهته، ففى أثناء النهار كان يسافر بهدى ظله الذى يختفى عند منتصف النهار، أو كما قال لى "عندما ترتفع الشمس ويصبح الظل بين قدمى عندها تدور رأسى"، وهناك ساعة أخرى فى اليوم تصبح مهمة الدليل عندها صعبة، وهى ساعة الشفق، بين غروب الشمس وظهور النجوم؛ ففى هذا الوقت تصبح كل الاتجاهات فى الصحراء الشاسعة واحدة، وعندها تصبح البوصلة ذات فائدة كبيرة.

ففى إحدى المرات واعتمادًا على الاتجاه الذى رصده فى الصباح، فوجئت فى الفترة بين غروب الشمس وبزوغ النجوم أن

الدليل ينحرف بنحو ٩٠ درجة عن وجهتنا الصحيحة، ولكن تلك المرة يجب ألا تؤخذ مقياسًا، خاصة وأن دقة الدليل الجيد - مثل سنوسى بوحسان - فى معرفة وجهته تعد خارقة للطبيعة.

انتهى حوارنا، وتم تحميل آخر الإبل، وتقدم الدليل القافلة، وتبعته الإبل الواحدة تلو الأخرى.

كما دفأ أفراد القافلة أيديهم وأقدامهم للمرة الأخيرة على النار التى أوشكت على الإخماد، ثم دسوا أقدامهم فى الأحذية البدوية، وهرولوا خلف الإبل، وهم يغنون بابتهاج. الشمس أصبحت دافئة الآن، وإن لم تكن هناك رياح قوية تهب من الشمال، فسرعان ما يتخلص المرء مما يلف به أذنيه وعنقه ثم فى النهاية من جيرده، وتلقى الملابس الإضافية فوق ظهور الإبل، وتبدأ النكات فى التقارع، وكذلك سباقات العدو على الأقدام، وتشعر أن كل فرد سعيد بأنه لا يزال على قيد الحياة.

وتدريجياً يبدأ الرجال فى تقسيم أنفسهم إلى مجموعات تتكون كل منها من اثنين أو ثلاثة أفراد ينفصلون على مسافات متباعدة بطول القافلة، يثرثرون حول شئونهم الخاصة أو أمورهم العامة، أما أنا ففى بعض الأحيان أتقدم القافلة، وفى أحيان أخرى أكون على مسافة من نهايتها كي أتحقق من الاتجاه الذى تسلكه، وأستمع بالانفراد والعزلة.

ومع اقتراب الظهيرة، تبدأ بعض الأفكار الأقل شاعرية فى الانتقال من استمتاعى ببهاء الطبيعة؛ إذ يتساءل عقلى أحياناً عن المطاعم المفضلة التى توجد حيث الحضارة البعيدة؛ فأحياناً كنت أتخيل نفسى فى مطعم الشواء بشبرد القاهرة، وأنا أطلب جمبرى على

الطريقة الأمريكية مع الأرز بالخلطة على الطريقة الشرقية الذى يشتهر به المطعم، أو أننى فى مطعم "بروينيه" بباريس حيث أطلب مارينيه فير أوسيند ومعه ستيك وسوفليه، أو فى "كوفافا" بميلانو أطلب طبقاً لذيذاً من الريزوت الأميلانيز أو ربما فى "ريترز" بلندن أطلب ستروبيرى ميلبا، أو فى منزل والدى بالقاهرة أتناول طبق شركسية من الأرز وشراب اللوز، التى تعد قطعة فنية تخصص فيها أحد الخدم كبار السن العزيزين الذين يديرون منزل والدى فى القاهرة، والذى يحتل مكانة خاصة أشبه بمكانة المربية التى خدمت طويلاً لدى إحدى الأسر الإنجليزية. وفجأة أجد أحمد أو عبد الله يتجهان صوبى، ودون كلمة واحدة، أجدهما يضعان فى راحة يدي كيساً من التمر اللين - تلاشت الأحلام - ورغم كل هذا أتناوله بنهم شديد، كما لو لم يكن هناك طعام أأذ منه فى العالم كله.

لا نتوقف من أجل الغداء، طالما أن الإبل تأكل مرتين فى اليوم فقط، وإذا كنا قد غادرنا للتو إحدى الواحات، فإنه قد يكون هناك خبز طازج، نصف رغيف أو ربما رغيف كامل لكل فردٍ مع حصته من التمر، وبعد ذلك يصبح هذا الخبز الطازج خبزاً جافاً قاسياً، وربما لا يصبح هناك خبز على الإطلاق، ولكن التمر يوجد دائماً.

كان لدى جمل جُهِز بهودج فوق ظهره؛ لذا كان أى فرد منا يستطيع أن يتمدد ويستريح فى داخله عندما يتعب من السير، وكان أحمد يدعو "النادى"، حتى إنه فى أحد الأيام بينما كنا فى وقت الغداء، سأل عبد الله عنى وهل أخذت حصتى من التمر والخبز أو لا؟ فأجابه أحمد وهو يغمز بعينه ووجهه تكسوه سمة الوقار "البيه النهاردة بيتغدى فى النادى".

ومن الممكن بالفعل - إذا ما اعتدت على ذلك - أن تغفو فوق ظهر الجمل، وليس هناك ما يدعو للازدراء في امتطاء الإبل، ولكن بصفة عامة فإن المرء يسير؛ لأن امتطاء الإبل أكثر إيلاماً من السير على الأقدام، وسرعة الإبل تبلغ نحو ميلين ونصف في الساعة، ومن السهل على المرء أن يجاريها.

وفي بعض الأحيان، قد تومض في الأفق أمام القافلة مساحة صغيرة من المياه، ربما تستمر على مدار يوم كامل من الترحال، وهي لا تقترب مطلقاً، لكنها تظل تغرى بالبرودة وبدعوة سارة للتقدم حتى تدور الشمس دورتها صوب الغرب ويتلاشى السراب، وبالطبع فإن ما يظهر ليس سوى خداع بصر؛ فلا ماء هناك أو شيئاً من هذا القبيل. وهناك نمط آخر من "السراب" يحدث أحياناً في الصباح الباكر، وفيه تبدو النطاقات البعيدة عن المرء كما لو كانت تظهر في الأفق، أو كما يقول البدو "رأساً على عقب"، وهو يختلف عن النوع الأول؛ فهو ليس وهمّاً بالكامل؛ إذ إنه يعد في الواقع انعكاساً مقلوباً لصورة المنطقة التي تبعد نحو ٣٠ أو ٤٠ كيلومتراً من النقطة التي يقف عندها المرء، وعندما ترتفع الشمس في الأفق يختفي هذا النوع من السراب فجأة مثلما ظهر، وهناك أيضاً نوع من السراب ينجم عن انعكاس الضوء على الصحراء؛ ففي بعض الأحيان - على سبيل المثال - قد تبدو قطعة الحصى الصغيرة التي في حجم كرة الكروكيت، التي على بعد ميل كما لو أنها في شكل صخرة كبيرة ضخمة، تقف كعلامة أرضية، بينما تتخذ الهياكل العظمية للإبل أو البشر أشكالاً عجيبة، إلا أن البدو يعرفونها جيداً.

ومن السخف القول إن السراب قد يغوى البدوى على أن يضل طريقه أو حتى يقوده إلى الهلاك؛ فمن تعود السفر في الصحراء يعرف السراب عندما يراه، بل إنه من الممكن بالفعل أن تعد ظاهرة انقلاب الرؤيا "رأساً على عقب" عاملاً إيجابياً عند السفر طالما أنها قد توحى بطبيعة الأرض التي تمتد في المواجهة؛ فالسراب ظاهرة مثيرة، لكنه ليس من مخاطر السفر في الصحراء.

عند الظهيرة يكون هناك بضع ساعات من الحرارة تقل معها سرعة الإبل، وتصبح القافلة كلها هادئة وناعسة، وعندما يأتي المساء ويصبح الجو بارداً فإن الإبل تزيد من سرعتها مرة أخرى، إلى أن تصل إلى كامل لياقتها قبل الوقت الذي سنخيم فيه، ويغنى الرجال للإبل لكي يزدوا من جهودها، وفي المقابل تستجيب الإبل بابتهاج لهذا التشجيع.

والأغاني بسيطة وشاعرية، ومليئة بأجواء الحياة في الصحراء، فأحدى هذه الأغنيات تتخيل بدوياً ينتظر قافلة في إحدى الواحات من المتوقع وصولها.

وهو يغنى للإبل المقتربة:

انقضى الليل

هيا يامرازم إلى سماء الصباح

هلم بنا

بدد مخاوفنا

ويتحدث المغنى إلى إبله قائلاً:

الكتبان الرملية

بدت أمامنا

وتحدد الطريق للديار

ويخاطب المغنى إيله:

الكتبان الرملية تخفى العديد من الآبار

التي تفيض بماء لا ينضب

سوف نصل إلى حدودها التي تشبه الأساور

المزينة بالذهب والجواهر النادرة

وفى أغنية أخرى لا يزال المغنى يخاطب إيله قائلاً:

الآبار تختفى فى الكتبان

خلف أقتعة الرمال المنجرفة فوقها

تقترب منها فرادى وأزواجاً

آه يا من تبوح بآماكنها المخفية

وفى الأغنية الأخيرة التى سوف أذكرها تبين السلوك التقليدى
للبدوى تجاه جملة؛ فهو أغلى ما يملك، ومن العار أن يتركه للموت
دون صراع؛ فالبدوى قد يصبر على الانتقام من مقتل أخ أو ابن،
ولكن إذا سُرِق جملة، فإنه لن يهدأ حتى يجده ويعيده بقوة الذراع إذا
ما تطلب الأمر ذلك، حتى إن البدو يقولون "إن مَنْ لا يخاطر بحياته
من أجل جملة، لا يستحقه"؛ لذا يغنى قادة الإبل لدوابهم قائلين:

من أجل خاطرك

يا من تدللنا

كما تدلل الأم الحنون أطفالها

من أجل خاطرك
أبناء النبلاء
يمددون فوق الرمال
بلا قبر أو دفن

ويلائم الرجال الأغنية بحسب المناسبات التي تُقال فيها؛ فالأغنية الأولى تستخدم عندما لا تكون الواحة بعيدة، بينما الثانية عندما تقترب القافلة من أحد نطاقات الكثبان الرملية، أما الثالثة والرابعة فعندما تكون قريبة من البئر، بينما تُقال الأخيرة عند دخول أقاليم معادية.

وقت غروب الشمس كنت أحرص دائماً على أن أكون بالقرب من الدليل، وبشكل سري أراجع معه اتجاهنا من خلال بوصلتي في ساعات الشك التي تسبق بزغ النجوم.

وعندما يحلُّ الليل كان المصباح يُشعل ويُعطى للدليل، وعندها نتبع في الظلام تلك النقطة المتحركة من الضوء الأصفر الشاحب؛ فهي تومض بدعوى محرّضة على أن نتبعها، لكننا لا نصل إليها مطلقاً، والإبل تحب أن يوضع المصباح أمامها، وتتحرك برشاقة لتلاحقه، وبعد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة من السير المتواصل - إذا كانت الظروف مواتية - نصل إلى نهاية يوم من الترحال، على الرغم من أننا لم نكن نصمد كل هذه المدة في معظم الأحيان.

"الدار يا عيَّان" جملة يصيح بها الدليل، ويكررها وراءه كل رجل في القافلة، وعندها يجمع الرجال الإبل، ويقسمونها كالتالي: التي تحمل المياه تقف هنا، والتي تحمل الخيام هناك، بينما التي تحمل الأمتعة من أجل الحواجز تقف أبعد.

بركت الإبل، مع أصوات الرضا، بعد أن وضعت عنها أحمالها،
والآن يجب علينا أن نكون يقظين؛ لأن الرجال المجاهدين من عناء
يوم السفر يصبحون أقل مبالاة، حتى إنهم يتركون الصناديق تسقط
على الأرض بكل عنف بكل ما فيها من أدوات ثمينة وكاميرات.

يتم ترتيب الأمتعة في شكل حواجز إذا ما كانت الليلة تنذر بأن
تصبح عاصفة، وتتصب الخيام في شكل مثلث، ما لم تكن الليلة هادئة
وصافية.

لم أستطع يوماً أن أقرر أية لحظات كنت أشعر فيها بالرضا
أكثر، أعندما تتصب الخيام بعد يوم شاق من الترحال، أم عندما تحل
وتجمع تمهيداً للعودة إلى الطريق مرة أخرى؟!

وفي هذا الوقت تُشعل النيران، ويُلقى لهيبها المتطاير بالدفء
فوق الرمال، وأول شيء يعد هو الشاي، وقد أصبحت أدرك تمامًا
القيمة الفائقة لهذا السائل داكن اللون مر المذاق المحلى، الذى يعرفه
البدو بهذا الاسم؛ فهم يعدون الشاي بأخذ حفنة من أوراقه وحفنة من
السكر ويغلونها معاً في وعاء من الماء، والنتيجة قد تعدها ربة
المنزل في الغرب شيئاً أشبه بالجنون، لكنه منبه رائع يفيد بعد يوم
شاق من الترحال في الصحراء، ومنعش جيد لطاقة المرء وروحه.

لا يتباطأ أفراد القافلة في إعداد وجبة المساء والتهامها؛ لأن
عليهم بعد ذلك إطعام الإبل وإعداد أنفسهم للنوم، أما أنا فأقارن
ساعاتي الست، وأملأها، وأسجل بياناً بالصور التى التقطتها خلال
اليوم، ثم أغير الأفلام السينمائية فى الظلام، وأصنف العينات

الجيولوجية التي جمعتها وأخزنها، ثم أدون يومياتي، ويعينني كسوب الشاي البدوي الذي أشربه على استكمال كل هذه الواجبات، بل قد ينشطني في بعض الأحيان ويساعدني على أن أسير في الصحراء، فإذا لم تكن هناك رياح باردة قارصة، قد أسير لما يقرب من نصف ميل، وفي هذه الأثناء أنظر خلفي - من وقت إلى آخر - إلى ظلال القافلة، حيث الكتل السوداء للخيام، والأمتعة، والإبل البارقة التي تشبه لمسات هنا ولمسات هناك في لوحة فائتة، ولهيب النار التي تحتضر في منتصف هذا البحر الشاسع من الرمال يزيد الصورة غموضاً وخيالاً؛ فكل شيء حولى صامت، فلا توجد رياح تحف بأوراق الأشجار، أو صوت خرير مياه كالتى تتدفق من الغدير مثل التى يسمعها المرء فى الغابات البرية، ولا أصوات ضربات أو طرطشة الأمواج عندما تتكسر على جوانب السفن كما هو موجود دومًا فى البحر. لا شيء سوى الصمت، صمت الرمال والنجوم!

الفصل الحادى عشر

الطريق إلى بئر زيفن

«اعتبارًا من هذه النقطة سوف أدوّن الأحداث كما سجلتها فى يومياتى».

الأحد ١٨ مارس: بدأنا السير فى التاسعة صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة والنصف مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ما يربو على ستة وأربعين كيلومترًا. بلغت درجة الحرارة العظمى ٢١ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٣ درجات مئوية. ظلت السماء ملبدة بالغيوم طوال اليوم، وإن صفا الجو فى المساء، كما سقطت بعض قطرات من المطر خلال فترة ما بعد الظهر، وتعرضنا لهبوب رياح شديدة من الشمال الشرقى، زادت حدتها بحلول الثانية والنصف ظهرًا لتصبح عاصفة رملية، ثم هبطت مع غروب الشمس، وعادت للنشاط من جديد فى الثامنة مساءً.

احتجبت الشمس، ولم يعد تقدّم الدليل مستقيمًا كما هو معتاد، الأمر الذى تبيّن أنّه من البوصلة التى كنت أحملها وأتحقق منها فى أثناء اليوم، وبحلول الخامسة والنصف مساءً ظهرت الشمس وصحح الدليل وجهته. وفى السابعة والنصف مساءً اعتمد فى سيره على هدى نجم الشمال، والذى يسميه البدو "الجدى".

كانت الأرض التي نجتازها تشبه - بصفة عامة - تلك التي عبرناها بالأمس، على الرغم من وجود تموجات طفيفة، كما كنا نمر على مدار اليوم برقع من الحصى الكبير داكن اللون.

في الصباح حدث شيء مثير؛ فقد رأينا في الأفق سلسلة من النقاط الغائمة التي تعنى اقتراب طليعة قافلة ما، وجاء دور نظارتي المعظمة التي تنقلت بين الرجال وحولهم، وسُحبت البنادق من مواضعها فوق ظهور الإبل، وهرع أفراد "التبو" ليحضروا حرابهم، ورتب الرجال أنفسهم على جانبي القافلة انتظاراً للمقرب، واستعداداً حتى نكتشف هوية القادمين: أهم أصدقاء أم أعداء؟ ولم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى اكتشفنا أنهم أصدقاء، ثم التقى رجال كلا الفريقين وجلسوا القرفصاء بين القافلتين ليتبادلوا الأخبار، بينما كانت الإبل تتهاذى في سيرها، وتدفقت الألسن بما سمعت وأُخبرت عمّن تزوج، ومَنْ وُلِد، ومَنْ تُوفى، ومَنْ ربح مالاً، وما الضغائن والنزاعات الجديدة التي بدأت؟ وما القديمة التي انتهت؟! وبعدها تفرق الجمع، وكل منهم يدعو للآخر، ثم هرولوا كل خلف قافلته (تلك هي طريقة عمل وسائل الاتصال اللاسلكية في الصحراء).

الاثنين ١٩ مارس: بدأنا في الثامنة والربع صباحاً، وتوقفنا في الثامنة والنصف مساءً، قطعنا في هذه الأثناء نحو ٤٩ كيلومتراً. بلغت درجة الحرارة العظمى ٢٢ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٥ درجات مئوية، ظل الطقس هادئاً وصافياً، مع هبوب رياح قوية من اتجاه الشمال الشرقي، توقفت في منتصف النهار، كانت الشمس قائلة مما جعل تقدمنا بطيئاً، ولكن المساء

كان باردًا، مما زاد من سرعة سيرنا، كانت الأرض منبسطة للغاية يكسوها الحصى الدقيق، وفي السادسة مساءً عبرنا منخفضًا بسيطًا يبلغ اتساعه نحو الكيلو مترين، وتوجد به رقع من الأحجار الرمادية في جانبه الأيمن والأحجار البيضاء في جانبه الأيسر.

كنا نسير جميعًا - إبلًا ورجالاً - بخطوات واسعة، وأطلق أفراد البدو والتبو العنان لسباقات العدو على الأقدام، وتبادلوا المقالب والنكات.

و"التبو" هم أناس بسطاء بدائيون، يتسمون بعبادات طريفة وساذجة، ولكونهم فقراء فإنهم يحرصون أشد الحرص على ممتلكاتهم، وهم يرتدون قميصًا بسيطًا من القطن وزوجًا من السراويل، ويبدلون قصارى جهدهم ليحافظوا على هذا الرداء قدر الإمكان؛ فعندما يمتطي فرد التبو جملة - على سبيل المثال - فإنه يخلع سرواليه، ويعلقهما على ظهر جملة، ليحافظ عليهما من البلى والتمزق، وعندما ينام فإنه يخلع ثوبه أيضًا ليحميه من الاحتكاك بالرمال، ويكتفى فقط بلف نفسه في عباءة من الفرو.

وبينما كان أحد أفراد التبو يمتطي جملة في هذا اليوم، قام بعض البدو بأخذ سرواليه وأخفوهما، وعندما ترجل عن جملة وبحث عنها، أصابه الفزع في التو لتصوره أنهما قد يكونا قد سقطا في أحد أماكن الصحراء في أثناء سيرنا، ودون لحظة تردد، أدار وجهه وعاد بسرعة من الطريق الذي جاء منه ليبحث عن ممتلكاته الثمينة، وقبل أن نتمكننا الشفقة عليه ونطلق بضع طلقات لكي نطلب منه العودة، أصبح جسمًا دقيقًا وسط امتدادات الرمال الشاسعة، وسرعان ما عاد

إلينا على مضض بوجه مكتئب، ولكن مرح المازحين أخبره أن فى الأمر شيئاً ما، وعندما برز سروالاه بدا سعيداً جداً باستعادتهما رغم استيائه من تلك المزحة.

فى الليلة السابقة زارت خيمتى بعض الإبل، وهددت بأن تسقطها فوق رأسى؛ فالإبل حيوانات ذكية، تحب أن تحكَّ رقبتها فى حبال الخيمة. وعندما ينام المخيم كله، تسعى للحصول على هذه المتعة البريئة، ويبدأ الأمر بأن تدخل إحدى الإبل رأسها إلى حاشية خيمتى لترى إذا ما كنت مستيقظاً أو لا، فإذا لم تسمعنى أمتعض من طفلها تدرك وقتها أننى نائم، فتخرج رأسها وتبدأ فى حكَّ رقبتها فى حبال الخيمة، وسرعان ما ينضم إليها آخرون، عندئذٍ أستيقظ وقد تملكنى شعور بأن خيمتى تهاجمها عاصفة شرسة.

كان كل يوم يزداد إعجابى ببوحليجا كرفيق سفر؛ فقد كان رجلاً قليل الكلام ذا قلب كبير وروحاً كريمة، يحظى باحترامنا جميعاً، منحه عمره وشعر لحيته البيضاء هذا الوقار؛ لأن الخير فى الصحراء هو ذلك الشخص الذى يملك الحكمة التى تأتى إليه بمرور الزمن، وهى لا تقدر بثمن؛ لذا كنت أنا وزروالى نعول باستمرار على حكم ذلك الرجل، وكان لبقاً فى عرض اقتراحاته فيما يتعلق بأرائى، وكنت حكيماً بالقدر الكافى كى لا أستخف بها.

كان مثابراً فى عنايته بالإبل، وطوال اليوم تسمع صوته الرائع وهو يوجه الرجال أو الإبل؛ فيقول لعبده " الجمل الأبيض مرهق، غداً يا إبراهيم سوف ننقل حمولته على الجمل البنى العجوز"، أو يأمره قائلاً: " تحدث معهم يا رجل، تحدث معهم" عالمًا أنه من الأفضل أن

تسافر الإبل فى ظل التشجيع، ومرة أخرى يقول: " غنّ لهنّ يا إبراهيم"، كما كان يحث الإبل بقوله: "اتبعوا الدليل أيتها الإبل الجميلة"، أو يصيح " تعالّ معى يا حامد هذا السرج ترحّزح من مكانه سوف يؤلم ظهر الجمل"، وعندما يحلّ الغروب يصدر أوامره " أشعلوا المصابيح، فالإبل تُسرّ بها".

وتعدّ الإبل ذات صفات نادرة جدًّا إذا ما قدرناها حقّ قدرها، وفى ضوء معرفتنا الضئيلة، فهى فى مهارة الحصان إن لم تفقه مهارة، كما أنها فى بعض المواقف تصبح أكثر آدمية، ومن الأقوال العربية المأثورة " صبور مثل الجمل " وهى مقولة صادقة؛ فإذا ما أسأت معاملة أحد الإبل فإنه لن ينسى مطلقًا تلك الإساءة، لكنه لن يهاجمك فى التو، بل سوف ينتظر ويصبر، وإذا ما كررت الإساءة مرة ثانية وثالثة، فإنه سوف يعقد عزمه على الانتقام منك، وليس بالضرورة أن يكون ذلك على مرأى كثير من البشر، فهو هنا سوف يسلك سلوكًا أكثر آدمية؛ إذ سوف يتحين الفرصة حتى يصبح معك على انفراد، ثم يسعى نحوك، إما من خلال الإمساك بك بفمه، ثم إلقائك على الأرض، وإما أن يرفسك ثم يطأك بأقدامه. وهناك واقعة مشهورة عن جمل ضرب رجلًا بأقدامه ثم برك فوقه رافضًا أن يتحرك حتى بعد أن عوقب من الرجال الذين هبّوا لإنقاذ الضحية، بل إنه ظل منتظرًا ليتأكد من أنه نجح فى الإجهاز على هذا الرجل، والذى أجهز عليه بالفعل.

ويتخيل كثير من البشر أنه فى الصحراء لابد من أن تربط الإبل بحبل وتجرب، ولكن واقع الأمر أنه من العسير جدًّا أن تبعد جملًا عن

باقى القافلة؛ لأنه بالغريزة يدرك أنه إن ترك فى الخلف فقد تُرك للموت؛ لذا يظل قريباً من القافلة قدر الإمكان، ومن المشاهد الحزينة أن ترى جملاً يشرّد فى الخلف؛ إذ إنه يصبح مثل الجندى فى تقهقره، عندما يكون غير قادر على أن يظل مع رفاقه، عالمًا أنه لا يوجد مَنْ يستطيع حمله، وأن تركه فى الخلف يعنى كارثة له.

ويبرز ذكاء الجمل عندما يؤخذ من واحة ما ويُدفع إلى رحلة فى قلب الصحراء، فإنه بالغريزة يحاول فى أثناء الليل العودة إلى الواحة التى خرج منها، حتى ولو مضى على رحيله ثلاثة أو أربعة أيام.

وهناك بعض مآسى الصحراء التى تبدأ أحداثها عندما تترك الإبل كلها الرجال فى أثناء الليل، سواء فى رحلة الذهاب أو فى رحلة العودة عندما تكون القافلة على بعد أيام من مقصدها، أو كما يحدث فى حوادث أخرى مع الإبل التى اعتادت السير على الطريق نفسه لمدة عشرة أو خمسة عشر عامًا؛ إذ إنها قد تكمل الرحلة بمفردها.

كما حدث عندما كنا نقترّب من " جالو"، وتحديدًا على بعد ثلاثة أيام سفر من خيام البدو الذين استأجرت منهم ثلاثة من الإبل؛ إذ مرض أحدها مرضًا ميئوسًا منه، فوزعت حمولته على الجمالين الآخرين، وترك فى الصحراء، وكم تجادلت مع البدو طالبًا منهم أن نقتله ونوفر عليه عذاب الموت، بل إننى عرضت عليهم أن أدفع ثمنه إذا ما سمحوا لى بأن أضع حدًا لنهايته، ولكن لأن الجمل كَبَنٌ ذا أصل نبيل فقد رفضوا عرضى هذا، وقالوا " إنه فقط يشعر ببعض التعب، وسوف يعود على راحته إلى المخيم"، وعلمت بعد ذلك أن الجمل رجع بالفعل إلى دياره، وأصبح على ما يُرام.

وتعرف الإبل بالغريزة أيضاً أن لها دليلاً يقودها؛ فإذا ما توقفت القافلة في منتصف الصحراء لمناقشة بعض النقاط المتعلقة بالطريق، فستجد الإبل قد احتشدت حول الدليل، وفي اللحظة التي يتحرك فيها سوف تتبعه، متجاهلة وجود أى شخص آخر في القافلة، لكنها لن تتجاهل الدليل مطلقاً، أما إذا ما تجاهل أحدها الدليل واستمر في التقدم مباشرة على رأس القافلة؛ فعندها قد يكون من الأمان للقافلة أن تتبعه؛ لأنه بكل تأكيد يعرف المكان الذى تنتشده القافلة، بل إن البدو يقولون إن الجمل إذا رعى ذات مرة فى أية واحة، فإنه سوف يعرف طريق العودة إلى تلك الواحة حتى وإن كان على بعد مسيرة أيام منها.

وهناك حكاية بدوية شهيرة تروى أن جملاً وطهيوجاً رملياً^(٣٢) تنافسا؛ فقال الطهيوج "إننى أستطيع وضع بيضى فى وسط الصحراء وأسافر أياماً عديدة ثم أعود وأرقد عليها"، فرد عليه الجمل قائلاً "أما أنا فإذا ما شربت أمى من إحدى الآبار، وأنا مازلت فى رحمها، فإننى أستطيع السفر أياماً ثم أعود وأشرب من البئر ذاتها".

وقد رأيت بنفسى أحد الإبل قاد قافلة عندما كنا على مسافة أربعة أيام من إحدى الآبار التى شرب منها منذ أربع سنوات مضت. وهناك واقعة أخرى شهيرة عن جمل أنقذ قافلة كانت تتوجه من واحة "الداخلية" إلى واحة "العوينات"، وكان دليلها لم يقطع هذه الرحلة من قبل، لكنه كان يقودها اعتماداً على وصف بدوى آخر، وقد التبس الدرب عليه، وظلت القافلة تهيم لمدة اثنى عشر يوماً بلا هدف، ونفد الماء الذى معهم وفقدوا كل أمل فى النجاة، وفجأة تقدم إبل القافلة

(٣٢) طائر من فصيلة الدجاج. "المترجمان"

وتبعوه؛ فقد كان فى "العوينات" قبل ذلك بعدة سنوات، وعندما أصبح على مسافة سفر يومين منها، تنسم رائحة المكان كما يقول البدو، وتوجه بالقافلة صوب إحدى الآبار هناك.

وتستطيع الإبل المدربة تدريباً جيداً أن تصمد أسبوعين بلا ماء فى فصل الشتاء، بينما تصل هذه المدة لنحو اثنى عشر يوماً فى فصل الصيف.

ويحاول البدو دائماً إطعام إبلهم عشباً أخضر إذا ما استطاعوا؛ لأنه عندما يأخذونهم إلى "الدفا"، أو إلى رحلة طويلة بلاماء، فإن طعامهم يقتصر على التمر الجاف، وعلى الشعير إذا ما استطاعوا توفيره.

ومعظم الإبل التى توجد فى "برقة" هى إبل "حمالة" أو إبل للحمل، بينما يوجد نوع آخر هو إبل السرعة، وأفضل إبل السرعة هى إبل التبو أو الطوارق، وهى دواب بيضاء جميلة ذات أوصال نحيلة مع جسد رشيق، ومعدل المسافة التى تقطعها إبل الحمالة فى ظل ظروف سير جيدة تبلغ نحو ٢٥ ميلاً، بينما يصل هذا المعدل إلى نحو ٤٠ ميلاً لإبل الطوارق الممتازة، ومن المعلوم أنها قد تصل فى بعض الأحيان إلى ٧٠ ميلاً.

وقد يصبح الجمل محبباً ومخلصاً لسيده للغاية، حتى إن إبل السرعة أو "الهجن" جيدة التدريب قد ترفض النهوض بأى فرد آخر فوق ظهرها سوى سيدها.

وكقاعدة عامة تُحمل المياه فوق الإبل الأكبر سناً والأحكم عقلاً، والتى تسير فى رزانة دون أية محاولة للعبث؛ فهى تدرك أنها تحمل

أكثر الأشياء قيمة فى القافلة كلها؛ لذا ففى اللحظة التى تنتهى عندها رحلة اليوم، ويحين وقت إنزال الأحمال، فإن هذه الإبل، الأكبر سنًا والأحكم عقلًا تقف منفصلة عن باقى القافلة خوفًا من اصطدام قِرب المياه التى تحملها، بل إننى رأيت بعضها يسير حول الخيام ويقترب من قرب المياه الملقاة على الأرض والمغطاة من أجل المساء، وتبذل عناية بالغة لتسير حولها.

وكان لدى أحد الإبل الذى دُرِّب لفترة طويلة على حمل خيمتى وكتبى وأدواتى، وقد اختير فقط لهذه المهمة؛ لأنه كان يبدو قويًا وكبير السن، وقد اعتاد كل صباح عند التحميل أن يحضر بمفرده ويبرك بالقرب من خيمتى، وبطريقته المألوفة التى لا تخلو من شموخ ينتظر حتى توضع الأحمال فوق ظهره.

ويعد الجمل زوجًا غيورًا وناقته زوجة وفية؛ فالناقاة لا تترك سيدها وربها مطلقًا وتتبعه دائمًا، بينما الويل لأى جمل مغامر يجروا على محاولة الاقتراب منها.

فى كل صباح ومساء كنت أسير مع بوحليجا ونحن نمتطى دوابنا نتحدث عن الإبل والصحراء وتاريخ البدو، وكنت حذرًا كى لا يصدر عنى أى تساؤل مباشر؛ فالبدو بشر متشككون، ومؤهلون للارتياب فى دوافعك، لكن الملاحظات العابرة من السهل أن تخرج تعليقات ومعلومات مثيرة، ومنها تلك التى رواها الشيخ الجليل "كان هناك زمن كانت فيه الكفرة مجهولة لقومنا، وذات يوم لاحظ أحد البدو من قبيلة "غوازي" التى تتركز فى "الأبيض" - وهى واحة صغيرة قريبة من بئر بوظفل - أن غرابًا اعتاد الطيران صوب

الجنوب ثم العودة مرة أخرى بانتظام كانتظام شروق الشمس، رآه لبعض الوقت وبعدها خرج ليتبع مسلكه صوب الجنوب، وفي النهاية وصل إلى "تايزربو"، وبعد يوم توقف عند أطراف الواحة، تزود بما يكفي من ماء لرحلة عودته، وعندما عاد أخبر قبيلته عن أشجار النخيل والماء في قلب الصحراء، فأعدت القبيلة بعثة اتجهت نحو "تايزربو" واحتلتها، وبعدها ذهبت إلى "بوزيمة"، ثم إلى "ربيانة"، وفي النهاية إلى "الكفرة" ذاتها، وهكذا وصل البنو إلى "الكفرة".

أعجبت بحصان بوحليجا منذ أن رأيته للمرة الأولى في "جالو"، وقد سأل عبد الله من أجل ما إذا كان من الممكن شراؤه، ولكن ثمنه كان باهظاً للغاية؛ لذا تظاهرت باللامبالاة وانتظرت في حينه، لم يكن أحد من عائلة بوحليجا قد امتطى الحصان من قبل عدا الرجل ذاته، فلم تكن كرامة العجوز تسمح بذلك، لكنه - بكرم بالغ - سمح لي باستخدام الحصان متى كانت لي الرغبة في امتطائه، وواقع الأمر أنه بدا في هذه الرحلة أنه ملكي أكثر من كونه ملكاً له.

تعبت ثلاث إبل في هذا اليوم وبركت على الأرض دون إصدار أي أوامر لها، وهي لا تتصرف على هذا النحو ما لم يكن هناك سبب قوي لذلك؛ لذا نقلنا حمولتها لنسمح لها بالراحة، وفقدنا بعض الوقت في هذه العملية، ولكن سرعان ما استطعنا تعويضه عندما حلت برودة الليل. وجعلتها نقطة للحديث مع كل أفراد القافلة في كل يوم؛ وبالمصادفة ألتقط بعض المعلومات المثيرة.

ففي هذا اليوم تعلمت أن البدو لا يعرفون آثار حوافر إيلهم فحسب، وإنما يمكنهم - غالباً - أن يقولوا ما إذا كانت الإبل التي

مرت فى هذا المكان أو ذاك تخص أفراد قبيلتهم أو لا، ويتعرفون على آثار إيل التبو فى الحال نظراً لشكل خفها المميز والخطوات الواسعة التى تقطعها.

وإيل التبو أكثر أساساً من إيل البدو، ويمكن استخدامها فى كل من الصحراء الشمالية فى "برقة" وفى الجنوب فى "السودان"، بينما يُغَيَّر البدو إيلهم فى "الكفرة" عندما يبتغون التوجه إلى الجنوب.

حينما كنت أسير مع سنوسى بوحسان "الدليل" أخبرنى بإحدى الخدع التى يستخدمها البدو عند رعى إيلهم وأغنامهم؛ فهم يحلبون الحيوانات فى الصباح ثم يضعون الحليب فى قرب يطمرونها فى الرمال حتى يحفظوها باردة، ونظراً لأن لصوص الصحراء ماهرون ويستطيعون الوصول بسهولة إلى الموضع الذى تدفن فيه القرب؛ لذا فإن البدو الماكرين يدفنون قربتين واحدة أسفل الأخرى. وتُملأ السفلى بالحليب الطازج بينما تُملأ العليا باللبن الفاسد، وغالباً ما يكتشف اللص القربة العليا ولا يبحث بعد ذلك أسفلها، وبذلك يجد مالك الإبل عندما يعود فى المساء حليبه آمناً.

فى هذا اليوم قابلنا سرباً من الطيور الصغيرة يطير صوب الشمال، وبدا بعضها متعباً، وأقبل بتلهف على الماء الذى قدمناه له، حتى إن أحدها حطَّ على يدى ليشرّب غير مبالٍ بخطورة هذا الأمر.

وقد يرى المرء فى بعض الأحيان بالقرب من الآبار - التى قد يكون أفضل وصفٍ لها أنها حفر بها ماء - بعض الأجنحة والريش والعظام، التى تروى القصة الحزينة لهذه الطيور؛ فهى قد تكون من

الطيور المهاجرة التي مرت بهذه الآبار ومكثت بجوارها لبضعة أيام حتى تتعافى، وتكون هذه الآبار قد حفرت فى التو بواسطة قافلة عابرة، والماء متاحا بها بسهولة، والطيور ألفت هذه البقعة، وتدرجياً تطمر الرمال المنجرفة الآبار، حتى لا تصبح هناك مياه أخرى بل بضع رقع من الرمال الرطبة فقط، وفى أحيان أخرى قد تصل الطيور إلى هناك مجهدة للغاية فلا تجد مياهًا ولا تستطيع الطيران نحو ١٠٠ أو ٢٠٠ ميل أخرى بحثًا عن بئر أخرى؛ لذا تبقى وتموت.

بحلول العاشرة والنصف صباحًا مررنا بمجموعة من الكثبان الرملية تدعى "الخويمات"، كانت تبعد نحو ثمانية أو عشرة كيلومترات على يسارنا، وهى تبدو - كما يشير اسمها - على شكل مجموعة من الخيام الصغيرة البيضاء. وفى الرابعة والنصف رأينا على يسارنا أيضًا على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا علامة أرضية تدعى "الفريق"، وهى عبارة عن أربعة تلال رملية تمتد فى صورة صف، وبحلول الساعة السادسة والرابع مساءً، رأينا قمة علامة أرضية أخرى تُعرف باسم "المعزول" التى بدت مضربة على البعد صوب الجنوب الشرقى.

كنا جميعًا سعداء برؤية هذه العلامات الأرضية، والتى كانت مؤشرًا على تقدمنا فى الاتجاه الصحيح، ورغم أننا كنا على ثقة من أن معنا دليلًا ماهرًا، فإن الدليل الحقيقى - كما يقول البدو - "لا يُعرف إلا عند البئر"؛ أى فقط عندما يصل المرء إلى نهاية الرحلة، فعندها يصبح هناك يقين أن الطريق الذى سلك هو الطريق الصحيح.

وقد برهن سنوسى بوحسان على أنه ثاقب البصر بدرجة تدعو للدهشة؛ ففي الصباح الباكر قبل استراحة التخييم أعلن أنه رأى

علامة " الخويمات " على الرغم من ضباب الصباح، وأننا كنا على بعد بضعة ساعات قبل أن تستطيع أية عين أخرى فى القافلة رؤيتها.

بعد الظهر مررنا بهيكل عظمى لونه أبيض كان لجمل ممدد على الرمال، ومن الغريب أن يعد هذا الأمر شيئاً ساراً فى الصحراء، لسببين: أولهما أنه مع رتابة المسافات غير المطروقة فإن أية إشارة إلى أن أحداً قد مر من هذا الطريق تعد أمراً مشجعاً، والثانية أن عظام الإبل من المألوف أن توجد بالقرب من الآبار؛ فالإبل على الأرجح تموت بالقرب من نهاية الرحلة؛ فعندما ينفد الماء فإنها تناضل حتى النهاية إلى أن يصبح الموت أقرب من الخطوة التالية.

ولا يحب البدو استخدام كلمة هيكل عظمى عند رؤيتهم لما يذكرهم بأن الموت قد مرّ من هذا الطريق؛ لذا فإنهم يستعيضون عن هذه الكلمة القاسية بقولهم "غزال".

الخميس ٢٢ مارس: استيقظت فى الخامسة والنصف صباحاً، وشاهدت الشمس تشرق فى السادسة وسبع وعشرين دقيقة صباحاً، ودونت هذا الوقت فى يومياتى، بدأنا فى الثامنة صباحاً، وقطعنا نحو ٤٨ كيلومتراً فوق أرض منبسطة تماماً تكسوها الرمال الخشنة والحصى، وكانت كثبان "المزوول" الرملية على يسارنا على بعد ما يقرب من خمسة وعشرين كيلومتراً، وبحلول فترة ما بعد الظهيرة تجاوزناها.

فى الصباح سمعت زروالى وعبد الله يناقشان أمر شدة تسطح هذه الأرض التى كنا نعبرها، ووجدت زروالى يقول " نعم إن وطننا مبارك"؛ فأجابه الرجل الذى من مصر " نعم، بالطبع، وأنا أؤمن أن

يوم الحساب سوف يكون هنا؛ فهو المكان الوحيد الذى قد يجده الله واسعاً وفارغاً بدرجة كافية ليحشد فيه عبيده".

كان أفراد التبو يجرون طولاً وعرضاً وأمام القافلة وعلى جانبيها، بحثاً عن روث الإبل من أجل الوقود؛ فهم يمضون حياتهم منفصلين قليلاً عن الأفراد الآخرين فى القافلة؛ لذا فهم يحبون أن يشعلوا نيرانهم الخاصة على مسافة قريبة من نار المخيم الرئيسية، وروث الإبل هو الوقود الوحيد المتاح فى هذه المنطقة، وأفراد التبو عداؤون شديديو اليأس، فقد يذهبون لما يقرب من خمسة أميال بعيداً عن طريقهم ليجدوا هذه الخامة الثمينة، ولكن البدو كانوا يعترضون على سلوك أفراد التبو من الجرى والاستيلاء على كل الروث الموجود؛ إنها أحد قوانين الصحراء غير المرنة، التى تقضى بأن أى شىء يُعثر عليه فى الصحراء يخص أول من يضع يده عليه، ويحتكم أفراد التبو لهذه القاعدة فى تبرير موقفهم، بينما البدو فى المقابل يردون عليهم بقاعدة أخرى؛ إذ يقولون "أنتم ليس لديكم دليل يقودكم، كما أنكم لم تسمحوا لإبلكم بأن تتقدم القافلة، وحيث إنكم سوف تسيرون دون حاجة لاستخدام العصا، وتريدون منا أن نقود القافلة من أجل إبلكم، بينما تسبقوننا وتجمعون الروث، هذا الروث يخصنا لأنه من المفترض أن نصل إليه أولاً إذا ما ظللتم فى الخلف مع إبلكم حيث يُفترض أن تكونوا".

زاد الجدل حدة، وفى النهاية حضروا إلى لأحكم بينهم، وقد حكمت بأن البدو على حق، وأنه يجب على التبو ألا تكون لديهم نار بمفردهم وأن يكتفوا بنار المخيم، وفى المقابل يجب أن يمنحوا وجبة

ساخنة من التعيين العام فى كل ليلة، إلا أن التبو كانوا مختلفين تمامًا فى العديد من عاداتهم وتقاليدهم عن البدو؛ فهم غالبًا لا يستخدمون النار فى إعداد طعامهم، برغم أنهم - كما رأيت لا يرفضونها من أجل الراحة والبهجة - إذ إنهم يجففون اللحم الداخلى لقسم النخيل فوق النار، ويصحنونه ويستخدمونه بعد ذلك فى إعداد نوع من العصيدة التى يدخل فى مكوناتها أيضًا البلخ والجراد المطحونين، وهم لا يدعون أحدًا لمشاركتهم الطعام - بعكس البدو - ولا يمتعضون إذا لم يطلب منهم الآخرون مشاركتهم الطعام، والبدو ينتقدون بشدة النكوص عن واجب الضيافة، ولا يترك أفراد التبو شيئًا خلفهم على الطريق؛ لأنهم يؤمنون بخرافة مفادها أن كل من التقط شيئًا يخصهم سوف ينال منهم، إنهم نموذج مثالى للتناسق البدنى، والعمال المهرة، لكنهم بسطاء جدًا فى نمط حياتهم وتفكيرهم، إلا أنه مع اختلاطهم أكثر وأكثر بالبدو تعلموا منهم بعض الأشياء.

فى هذا اليوم، مرض أحد الإبل، ووجدت بوحليجا يهبط من جملة ويسير إلى أن أصبح خلف الجمال المريض، ثم استدماه من ذيله، كنا نأمل أن يتعافى بعد ليلة راحة.

ونظرًا لأننا كنا واثقين من مؤننا من المياه فقد قررنا أن نشرب بعض الشاى؛ لذا تقدمت أنا وبوحليجا وزروالى وعبدالله ومعنا الدليل ليدلنا على الطريق الصحيح، وعندما أصبحنا بعيدين بمسافة كافية، أشعلنا النار سريعًا، وأعدنا الشاى، وعندما وصلت إلينا القافلة مررنا أكواب الشاى على أفرادها عندما كانوا يمرون بنا، لذا لم تتوقف القافلة، وعندما مرَّ آخر جمل أطفالنا النار، وجمعنا أدواتنا، وأسرعنا

لنلق بالقافلة المتهادية، كان بوحليجا على جملة بينما عبد الله وزروالى يمتطيان معاً أحد الهجن، أما أنا فكنت فوق صهوة الحصان "بركة"، ويجب أنه أقر أن هذا الحصان كان مفيداً لى فى أغراض عدة؛ فبواسطته كنت أستطيع بسهولة إحضار الإبل من نطاقات الرعى، والتى كانت تأبى تركها لتدخل "السريرة" من جديد، كما كنت أستطيع امتطاءه خلال توقفنا فى الواحات كى أزور أماكن تثيرنى بينما أترك الإبل تستريح أو ترعى، كما مكننى من تقدم القافلة أو أن أظل خلفها لأسجل ملاحظاتى، وأن أجمع العينات بعيداً عن أعين الرجال، وفوق صهوته كنت أستطيع اتخاذ مظهر جليل وأنا على رأس قافلتى فى أثناء دخولنا الواحات أو خروجنا منها.

الجمعة ٢٣ مارس: قطعنا خلال هذا اليوم نحو ٣٦ كيلومتراً، ظلت الرياح تهب بشدة من اتجاه الشمال الشرقى طوال الليلة السابقة، بدأت بعد منتصف الليل بساعة واحدة، واستمرت طوال اليوم، وإن ازدادت حدتها خلال الفترة من الساعة الواحدة حتى الثالثة، وتوقفت فى المساء، كان الجو صافياً والرؤية واضحة وإن أصبح غائماً فى نهاية فترة ما بعد الظهر، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر رأينا كثباناً رملية تدعى "المزبل" تقع على بعد ٢٥ كيلومتراً فى اتجاه الجنوب الشرقى.

أصبح الرجال شغوفين بأن يستمروا فى السير يوماً كاملاً؛ لذا بذلوا كل ما فى وسعهم ليصبحوا على الطريق فى الثامنة صباحاً، عازمين على السير اثنتى عشرة ساعة متواصلة، لكن الجمل المريض حال دون ذلك؛ فعندما حان وقت الرحيل كان علينا مساعدته

للوقوف على قدميه، وعندها هز بوحليجا رأسه قائلاً " هذا الجمل سوف يصبح لحمًا يُؤكل قبل أن ينتهى اليوم"، وبعد ساعتين من ذلك برك الجمل وأبى أن ينهض، وخلال دقائق أصبح من اللازم أن يُذبح؛ لذا تركنا خلفنا ثلاثة رجال وجمالين ليحلبا اللحم فيما بعد، وقبل أن نذهب بعيدًا وجدت بوحليجا يهرول نحونا فوق حصانه قائلاً " إنه جمل سمين دعنا نتوقف لفترة"، ولمعرفتى أن البدو يعشقون اللحم أوقفت القافلة، وأشعلت النيران، وأعدت الوليمة، وأكل كل فرد من اللحم إلا أنا وخادماى المصريين، وسألنى بوحليجا لماذا لم أشاركهم الوليمة؟ فقلت له إننى لا أهتم بتناول لحم جمل مريض. ووجدته يقول وهو يشير إلى بعض علب السردين التى كانت معنا " إنه أفضل من هذا السمك الصغير، لقد رأينا الجمل وهو يُذبح، ولكن من يدري ماذا حدث لهذا السمك الصغير منذ أن كان فى البحر".

ولحم الجمل الذى لم يُؤكل فى التو، جففه البدو وقطعوه إلى شرائح رقيقة ليستخدموه فى تتبيل الأرز والعصيدة التى سوف تطهى بعد ذلك.

بعد الظهر عندما عدنا للسير مرة أخرى، قال لى سنوسى بوحسان إننا إذا واصلنا السير حتى بزوغ القمر الوليد فسوف نصبح قادرين على تناول غداءنا عند البئر فى اليوم التالى، ولكن عندما جاء المساء أخفت السحب نجم "الجدى" قبل أن يبرز ذلك القمر الوليد، وكان علينا أن نتوقف ونخيم فى العاشرة والنصف مساءً، خوفاً من أن نضل طريقنا.

وفى هذا الجزء من الصحراء كان هناك القليل الذى يمكن اكتشافه خارجيًا، ولكن الشيء العظيم الذى يمكن اكتشافه هو ذات

المرء، والتي يمكن فقط أن تستدعى للضوء وسط كل هذا الصمت والهدوء، والأمر سواء إن ذهب المرء إلى هذه الرحلة بنيت العودة للحضارة مرة ثانية بأسرع ما يمكنه، أو عاش هنا واستمتع بكل لحظة منها.

وعندما كانت الشمس تميل في الأفق، رأيت زروالى يجلس بمفرده ويرسم بإصبعه بعض الخطوط على الرمال، ثم يتأملها، كان يمارس "اليازرجا" أو "علم الرمل"، والذي يستخدمه البدو لمعرفة طالعهم، وفي اللحظات التي كان يدير فيها بصره عن الخطوط المرسومة على الرمال، كان يتطلع متأملاً في الألوان المتوهجة لغروب الشمس؛ فالبدو بطبعهم يقدرّون الجمال، ويُجلّون الطبيعة؛ فكيف لا يفعل هو ذلك؟!

يوماً بعد الآخر كانت الأجواء التي نعيشها تكاد أن تكون متطابقة، حتى إن الصور التي التقطتها خلال هذه الأيام السبعة تبدو كما لو أنها أخذت للمخيم ذاته ولكن من زوايا مختلفة؛ لذا فإن تواصل الامتدادات الشاسعة من الرمال القاحلة النائية التي لا يميزها شيء عدا هيكل عظمي لإحدى الإبل أو بضع حصوات في حجم الجوز؛ كانت تدفع المرء للسكينة؛ فلم يكن هناك شيء يشغل عقل المرء أو يقطع تأمله.

فيا لها من صورة ساحرة تملكها تلك الصحراء النائية! ويا له من تأثير مطهر لعقل المرء وجسده! وكيف لهذه اللمسة المتواصلة من اللاتناهي - يوماً بعد يومٍ وليلاً بعد ليلٍ - أن تؤثر في العقل والروح، وتغير مفهوم المرء للحياة؟! وكيف يبدو سعي المرء صغيراً وتافهاً

فى محىط الحضارة العادفةؑ وكفف فبءو ءهوءه ضئفلة أمام فلك الصءراءؑ!

السبف ٢٤ مارس: فى الخامسة والنصف صباء؁ اسففقظنا مءهففنؑ فقء أوفا إلى مضافعنا فى الفاففة بعء منففصف الفل. ظل الءو صءوأ وصاففأ طوال الفهار؁ مع وءوء نسمة رقفة هبف من الشمال الشرقف فى الصباء؁ وفوقفف فى منففصف الفهار؁ فاركفة لنا ءرارة الءو المرفعة؁ وفى العاشرة والنصف مساءً هبف رفاح شمالفة شرقفة قوفة من ءفء.

فى الفاسعة والنصف صباءا بفأف البفة فففر قلفلاؑ فالرمال أصبءف أنعم والأرض أقل فموءا؁ وفى العاشرة مررنا برقع من الصءور السوداء المهشمة؁ الفف اسفمرف طوال الفوم. وفى المساء رأفنا على فمفنا ءطب واءى "الففغن"؁ وفى الواءة وءمس وأربعفن ءقفة فوقفنا من أءل وءبة ساءفة؁ واسفرفنا بالفرب من أول ءطب وصلنا إلفه. ءائف مؤننا من الوقوء قء نفءف فى الفوم السابق؁ ولم فكن لفنا شفع ساخن لناكلة أو نشرفه منذ صباء الفوم الذى قبله؁ وفى الخامسة والربع مساءً رأفنا ءفبانأ رملفة فى اءءاه الءنوب الشرقف على بعء فحو ٤٠ ءفلومفرا ففرفبا؁ ءائف فلك الكفبان فمفء باءءاه الءنوب فى ءط ففءه صوب واءى "الففغن"؁ وبءلول الفامنة والنصف مساءً بفأف أءمة الءطب فى الازففاء عءا وامفءاا.

عءما بفأنا فى الصباء ءان أملنا أن نصل إلى بفر "ففغن" فى فذا الفوم؁ وبعء فلك فار ءءل ءول عءم وصولنا إلفها ءفى الآنؑ!

وَألمح بوحليجا إلى أنه ما من شك أن الدليل مال كثيراً صوب الغرب، وإلا لكنا قد وصلنا إلى البئر قبل ذلك، بينما جاء زروالى، الذى اختار بوحسان ليصبح دليلنا، فى صف الدليل، وقال إننا لم نصل لأننا فقدنا وقتاً كثيراً فى ذبح الجمل وإعداد الوليمة التى أقيمت فى اليوم السابق، أما حامد فقد كان لديه تفسير آخر؛ إذ قال " إن الإبل لا تقاد طوال الوقت؛ فالمرء ينام ويستيقظ، والإبل لا تزال على مرمى البصر (فقد كان من عادة الرجال أن يتخلفوا عن الراكب من أجل غفوة لمدة نصف ساعة تقريباً، وتساعدهم سرعة الإبل البطيئة والآثار التى تخلفها فى الرمال على أن يلحقوا بالقافلة بسهولة عندما يستيقظون) لذا قد تكون هى السبب".

وعندما توقفنا لنشعل النار ونتناول أول وجبة ساخنة منذ ثلاثين ساعة، تذكرت أن هذا الموضع هو بالضبط الذى ضللنا فيه طريقنا فى الرحلة السابقة إلى "الكفرة" عام ١٩٢١، وبعد تناول الطعام تركنا داوود عم زروالى مع جملة الوحيد ليذهب إلى واحة "تايزربو"، التى تقع إلى الغرب من "زيغن" على مسافة يوم سفر، كان يعتزم الذهاب إلى هناك ليحضر زوجته وابنته، ويتوجه بهما إلى "برقة" حيث توجد هناك فرصة أكبر للعمل، وقد وافق زروالى على أن يساعده فى تدبير شئونه فى هذا الإقليم، ولابد من أن الأمر كان يتطلب إرادة قوية من ذلك الكهل حتى يقطع هذه الرحلة الطويلة إلى الشمال بصحبة امرأتين وجمل واحد فقط، وقد سألته كيف سيستطيع تدبير هذا الأمر؟! فأخبرنى أنهم فى اليوم الأول سوف يسيرون جميعاً، وفى اليوم الثانى، ونظراً لأن وزن الماء فوق ظهر الجمل

سوف يصبح أقل، فسوف تتركب ابنته أخفهم وزنًا، وفي اليوم الثالث زوجته، وعندما سألتها ولكن افرض أن جملك أصابه مكروه؟ فأجابني بهدوء " الحماية تأتي من عند الله"، أعطيته أرزًا، ومكرونة، وشايًا، وسكرًا، وبعدها قرأنا الفاتحة، ورحل عنا وهو سعيد للغاية.

سُرَّ البدو بالوليمة الكبيرة التي أعدت من الأرز ولحم الجمل وذهبوا إلى مضاجعهم في رضا بالغ. وكانت بالفعل ليلة جميلة؛ لذا تركت خيمتي، وأمضيت بعض اللحظات الهادئة تحت القمر الذهبي، والنجوم الشاحب بريقها، وسكونها المبهج، وصحبتها المشجعة، الذين أعادوني إلى فراشي - كما هي العادة - مع أمل جديد وثقة كبيرة.

وهذا ما دونته في مفكرتي عن اليوم التالي:

الأحد ٢٥ مارس: بدأنا في السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهرًا، قطعنا خلالها ٢٤ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ١٤ درجة مئوية، تعرضنا لرياح شمالية شرقية استمرت طوال الليلة السابقة وحتى الرابعة والنصف من صباح هذا اليوم، ظل الجو ملبدًا بالغيوم طوال الصباح واحتجبت الشمس خلفها، وبحلول منتصف اليوم سقطت بعض زخات من المطر، ليصبح الجو صافيًا بعد الظهر، امتد طريقنا وسط أجمة صغيرة من الحطب الجاف، التي بدأت تزداد تدريجيًا في الارتفاع من بضع بوصات إلى ما يقرب من ثمانية أقدام كلما اقتربنا من البئر.

كانت تفصل روابى الحطب تلك نطاقات رملية تتناثر فوقها قطع من الصخور السوداء المهشمة، وتدرجياً بدأت الرمال تصبح أنعم، إلى أن أصبحت رطبة على بعد بضع بوصات من السطح.

وفى التاسعة والرابع رأينا على بعد نحو ٣ كيلومترات صوب الشمال الغربى كثبان "الواشكا" الرملية، وهو عبارة عن بئر صغير من مجموعة آبار "زيغن"، وفى التاسعة والنصف مررنا على يسارنا "بماتان بوحوح" وهو بئر "زيغن" القديم، وخيمنا بجوار بضع أشجار النخيل التى تحيا على مياه بئر "الهراش" التى تعد أفضل آبار المجموعة.

والبئر فى الصحراء ليست هى تلك البئر التى نجدها فى أماكن أخرى من العالم؛ حيث تحفر بإتقان ويشيد حول فوهتها بناء حجرى مع وجود دلو ورافعة أو مضخة؛ ففى هذا الجزء من الصحراء البئر عبارة عن بقعة صغيرة يكون الماء فيها قريباً من السطح، ويمكن الوصول إليه بسهولة عن طريق الحفر، وفى الفترة التى تفصل بين زيارة القوافل تطمر الرمال المنجرفة المكان وتسد ذلك الثقب المائى الذى يكشفه البدو بأيديهم، ليجدوا الماء على عمق ثلاثة أو أربعة أقدام.

عندما تكون الرحلة التى تقطعها القافلة طويلة، فأول شئ يجب التفكير فيه هو الإبل، وبعد أن تُسقى وتهضم طعامها جيداً، يعد الاغتسال أحد أهم عناصر البرنامج، وإذا كان الماء قليلاً فعلى الملابس أن تنتظر حتى الوصول إلى البئر التالى؛ لأن المخزون المائى للقافلة يجب أن يُوضع فى الاعتبار.

وبمجرد أن يرتاح الرجال تُملاً قرب المياه وتُترك طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي يتوجه رجلان أو ثلاثة إليها مبكراً ليروا أيًا من هذه القرب تسرب الماء الذى بها، وإذا كان من الممكن معرفة سبب هذا التسرب، كما يقومون أيضًا بفرز القرب الجيدة من السيئة، لأنه فى الرحلة يجب أن تؤخذ المياه فى اليوم الأول أو الثانى من تلك التى تسرب أو غير الموثوق بها.

ودائمًا ما تعد الليلة الأولى عند البئر - مهما تكن القافلة متعبة - فرصة للابتهاج البالغ والرقص والغناء. وقبل الوصول إلى البئر فإن تصور المرء للراحة هو التوقف عن السير ما لا يقل عن أربعة أو خمسة أيام والكثير من الماء لتعويض الحرمان السابق، وينشغل الذهن بالفكرة السارة لوجود ماء يبلى المرء به نفسه، لكن اللافت للنظر أنه بعد يوم واحد من الراحة فإن حمى مواصلة السير سرعان ما تملك المرء مرة أخرى، ليترك بشغف رفاهية الوفرة لصالح حرمان الطريق، ولا يعنى الأمر شيئاً إذا ما كانت نقطة التوقف تلك بُراً كبيرة محاطة بواحة خصبة مليئة بسبل الرفاهية؛ فالمرء يعود بتلهف للقناعة بالسير لما يربو على اثنتى عشرة ساعة، والحياة فقط على التمر الجاف.

عندما تكشف البئر فإنها تكون فى مساحة منضدة الشاى الصغيرة التى تتسع لشخصين، وتجعل الرمال الرطبة جدرانها تتماسك، وعادة ما تترك لفترة وجيزة حتى يتم ترسيب ما بها من رمال، ورغم ذلك يظل بالماء الكثير من الرمال التى تكون تصفيتها مزعجة، حتى إننى لم أشرب ولو لمرة واحدة كوباً من الماء دون أن يكون معكراً، ولم

أستطع ولو لمرة واحدة أن أرى قاع كوبي خلال شربي منه؛ فالفلتر الذي قال لي أحد أصدقائي بأننى يجب أن أخذه معى، لم أستخدمه مطلقاً حتى وصلنا إلى السودان، وهناك كان الماء سيئاً بالفعل؛ وعندما حاولنا فى هذا الوقت أن نجعل هذا الفلتر الشهير يعمل وجدنا أنه لا يوجد به الحلقة المطاطية لإحكام وصله، وكانت هذه هى نهاية قصة هذا الفلتر.

والتراب فى الصحراء - وهو أمر قد يكون من الضرورى أن نشير إليه - مختلف تماماً عن التراب فى أى مكان آخر؛ إذ إنه ليس ملوثاً؛ لأن الرمال شىء نظيف، وملابس البدو تترك فى الهواء. أما الحشرات فهى أمر لا بد منه، ولا يلقى البدو إليها بالاً؛ فربما أكون قد أخذت حمامى للتو، وجلست لأشرب كوباً من الشاي مع رجالى... حسناً، أنت مضطر للتعايش مع هذه الأشياء.

الفصل الثانى عشر

الصحراء المتغيرة وتصويب الخرائط

«الاثنين ٢٦ مارس: عند بئر الفاشر إحدى آبار مجموعة زيغن. بلغت درجة الحرارة القصوى ٢٧ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٦ درجات مئوية، كان الجو صحواً وصافياً مع هبوب رياح شمالية شرقية، تطورت بحلول الساعة الحادية عشرة إلى عاصفة رملية، استمرت حتى السادسة والنصف مساءً، ولم تهدأ الرياح إلا بعد ساعتين من هذا الوقت».

كان لزاماً أن يكون توقفنا عند "زيغن" لمدة ليلة واحدة، إلا أن العواصف الرملية العاتية فرضت علينا أن نمكث يوماً آخر، و"زيغن" تحديداً هي مجموعة من أربع آبار، اثنتان منها هما اللتان مررنا بهما يوم الأحد، ثم بئر "الهرّاش" التي كنا نخيم بجوارها، والأخرى هي بئر "بوزيراج" التي تبعد نحو ٢٠ كيلومتراً في اتجاه الشرق.

فى أثناء اليوم تحدث بوحليجا مع عبدالله عن قدومى للصحراء قائلاً " أنتم جريئون أيها المصريون، فأن يحضر البيه مرتين إلى أرضنا، التي لم يزرها أى غريب من قبل، فتلك جراءة. لماذا جاء إلى هنا تاركاً كل خيرات الله التي توجد هناك فى مصر، إن لم يكن

من أجل غاية سرية؟ لقد جاء إلى أرضنا المجهولة لكي يقيسها ويعد خرائط لها، ويا الله! ليست مرة واحدة بل مرتين!".

حتى صديقي الحميم بوحليجا كان مرتابًا في نوايا قدومي إلى وطنه.

واكتشفت في النهاية السر وراء عداؤك الذين يعيشون في الصحراء تجاه الأفراد القادمين من العالم الخارجي؛ فالأمر ليس تعصبًا دينيًا، أو تحيزًا قبليًا بل إنه تحديدًا غريزة حماية الذات؛ لأنه إذا ما توغل غريب واحد إلى داخل "الكفرة"، ذلك المركز العزيز على حياة قبيلتهم، فإن الأمر سوف يكون كقول البدو "إن أنف الناقة أصبح داخل حاشية الخيمة"، أى أن بعده سوف يأتى آخرون، والمحصلة النهائية قد تصبح هيمنة أجنبية، وهو ما يعنى فقدانهم لاستقلالهم وسدادهم للضرائب، ومن الصعب لومهم لأنهم يخشون هذه النتائج.

* * *

والتغيرات التى يحدثها الزمن فى الصحراء - والتى اعتدنا أن نظن أنها لا تتغير أبدًا - مثيرة للغاية؛ فعندما مرّ رولفس بالجانب الغربى من "زيغن" وهو فى طريقه إلى "الكفرة" عام ١٨٧٩، روى عن وجود امتدادات واسعة من النباتات الخضراء، أما الآن فلا يوجد مثل هذه الخضرة، بل يوجد تحديدًا مقدار ضخم من الحطب الجاف، وعلى الرغم من أن رواية رولفس قد أكدها بوحليجا، الذى قال إنه عندما كان طفلًا اعتاد والده أن يأخذه إلى "الكفرة" عندما كان يذهب ليحضر التمر؛ لأن البدو يعتقدون أن مياه "شيكهيرا" - مركز

قبيلة زوىّ بالقرب من "جالو" - سيئة على الأطفال فى الصيف، وكانت الرحلة فى هذه الأيام تقطع فى ثلاثة أيام وخمس ليال دون توقف، وكانوا لا يُطعمون الإبل سوى وجبة واحدة بين "جالو" و"زيغن"، وعندما يصلون إلى المكان الأخير، كانت الحيوانات تطعم على العشب الأخضر الذى كان ينمو هناك آنذاك، إلا أن ما كان يبدو خطأ فى رواية رولفس هو وصفه لكثرة الخضرة عند "زيغن"، وهو ما يعد برهاناً على نتيجة اختلاف الظروف بعد خمسة وأربعين عاماً. ومن المحتمل أن يكون سبب التغيير هو نقص الماء فى التربة، وهو الذى أحال الشجيرات الحية إلى حطب جاف.

كانت رحلتنا من "بوطفل" إلى "زيغن" نموذجاً لغدر الصحراء؛ فعلى الرغم من كل الاحتياطات التى استطعنا التفكير فيها، فإن وقودنا قد نفذ وقودنا، ونفق أحد إبلنا، وأصاب الإجهاد جملين آخرين حتى أوشكا على السقوط، ونفذ طعام الإبل أيضاً، حتى إنها كانت تقف فى المسافة من "زيغن" إلى "الكفرة" على سعف النخيل - الذى تم جمعه من مكان سابق - وكان طعاماً رديئاً بالفعل.

وفى هذه الفترة سمعت من أحد البدو مثلاً يحمل قدراً من السخرية، مفاده "إن الحياة مثل الناقة، يوماً تعطيك لبنها ويوماً آخر تخذلك".

فى الليلة الثانية لنا عند "زيغن" رصدت النجم القطبى بالثيودوليت، وعندما راجعت ما رصدته وجدت أن "زيغن" كانت تبعد نحو ١٠٠ كيلومتر فى اتجاه شرق الشمال الشرقى عن الموضع الذى حدده رولفس، وتفسير ذلك أنه لم يزر المكان وإنما اعتمد على ما

أخبره به البدو؛ لذا لم يستطع رصد موضعها بدقة، كما وجدت أيضاً أن "زيغن" كانت تقع على ارتفاع ٣١٠ متر فوق مستوى سطح البحر.

الثلاثاء ٢٧ مارس: بدأنا في الثامنة والربع صباحاً، وتوقفنا في الثامنة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ما يربو على سبعة وأربعين كيلومتراً، بلغت درجة الحرارة القصوى ٢٦ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٨ درجات مئوية، ظل الجو صحواً وصافياً، مع هبوب رياح شمالية شرقية باردة طوال النهار والليل مع وجود بعض السحب البيضاء. عند بئر "الهرّاش"، حدد الدليل وجهتنا صوب "الكفرة" بنحو ٥ درجات من اتجاه جنوب الجنوب الشرقي، سرنا لمدة ساعتين وسط حطب يمتد لنحو ١٠ كيلومترات جنوب شرق البئر، ثم دخلنا نطاقاً من الرمال الناعمة قليلة التموج، وبدأ هذا التموج يزداد تدريجياً إلى أن دخلنا نطاقاً من الكثبان الرملية بعد الظهر.

في الساعة الثانية والنصف رأينا سلسلة من الكثبان الرملية صوب الشرق، مع وجود بعض الصخور السوداء "الجارات" أو التلال الصغيرة التي كانت تفصل بينها، وكانت تبعد عنا بنحو ٢٠ أو ٣٠ كيلومتراً، وتتفرع صوب الشمال الشرقي بقدر ما نستطيع رؤيته، ثم تلا ذلك الغرود - كثبان رملية - وكانت تمتد في اتجاه الجنوب الغربي أيضاً. وفي الخامسة والنصف قطعنا علينا تلك الغرود طريقنا، وحتمت علينا أن ندخلها، إلا أنها لم تكن عالية أو عسيرة الاجتياز لحسن الحظ.

أثر في من جديد ذلك الانفصال الكامل بين البدو والتبو في أثناء السير؛ فقد كان السود يقولون إنهم لا يحبون الزوى ويخشونهم، كما لاحظت أن سلوك إيل التبو كان أفضل وأكثر التزامًا من تلك التي مع البدو؛ فقد كان لكل جمل من جمال التبو حبل للقيادة، ولم تكن تجرى على سجيته كما تفعل إيل البدو.

بعد الظهر مررنا بعلم "جبل الفضيل"، ومثل معظم أعلام الصحراء فإن اسمه يعد ذكرى لاسم أحد الأفراد الذين فقدوا حياتهم في هذه المنطقة.

فالفضيل كان أحد أفضل أدلاء الصحراء، وكان يقود قافلة من "جالو" متوجهًا بها إلى "الكفرة"، وهبت عليهم عاصفة رملية شديدة جدًا، وعلى الرغم من أنه لا يوجد دليل صريح على ما حدث، فإن الشواهد التي عثر عليها في النهاية روت القصة بطريقة أخرى، فعينا الفضيل لأبد من أن تكونا قد تأثرتا بشدة من الرمال العاتية، فربطهما بضمامات حرمة الإبصار، وفرضت على من معه أن يصفوا له الأعلام التي يمرون بها، وعلى الرغم من ذلك ضلت القافلة عن آبار "زيغن"، وحاولوا أن يناضلوا للتوجه مباشرة إلى "الكفرة"، إلا أن الصحراء تلتقتهم بقبضتها التي لا ترحم، ولم ينبج من القافلة بأسرها سوى جمل واحد؛ حيث ناضل ذلك الحيوان ليعود إلى دياره في "الكفرة"، تقوده غريزته التي لا تخطئ، وهناك تعرفوا عليه من خلال علامة في عنقه وعرفوا أنه يخص الفضيل؛ لذا شرع المنقذون في تتبع آثار أقدام الجمل عائدين إلى الصحراء، إلا أن مساعدتهم جاءت متأخرة جدًا، فقد كانت جثث الرجال ممددة على الرمال بالقرب من

العلم الذى يعرف الآن باسم "الفضيل"، وقد باحت الضمادات التى كانت فوق عيني الدليل العجوز بالقصة المأساوية.

الأربعاء ٢٨ مارس: كانت هناك سحب كثيفة طوال اليوم وبزغت الشمس قليلاً، كما كان الجو غائماً أيضاً فى المساء، تطورت الرياح الشمالية الشرقية الباردة إلى عاصفة رملية امتدت لنحو ثلاث ساعات ونصف، واستمرت الرياح الباردة فى المساء، وفى العاشرة والنصف مساءً سقطت بعض قطرات من المطر.

ظللنا نسير وسط الكثبان الرملية لمدة ساعتين، وبعدها دخلنا أرضاً متموجة تغطيها صخور سوداء محطمة، كان التقدم عسيراً على الإبل، وبعد ساعة من ذلك انتهى نطاق الصخور السوداء، ودخلنا من جديد نطاقاً من الكثبان الرملية.

وبحلول الحادية عشرة والنصف ظهراً أصبحت سلسلة تلال "حوایش" على يسارنا والكثبان الرملية والصخور السوداء "الجارات" على يميننا، وفى الثانية عشرة والرابع مررنا على يسارنا - على بعد أربعة كيلومترات - بعلم "غور المخزان"، وهو عبارة عن تلال من الصخور السوداء يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ و ١٥٠ متراً، وفى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بعلم "الجارا وابنتها"، وهو عبارة عن تلين مخروطى الشكل، يتناسبان مع الاسم الذى أطلق عليهما.

فى هذا اليوم تحدثت مع بعض البدو عن أننا ضللنا طريقنا فى هذه المنطقة عام ١٩٢١، ولم يبدُ على أى منهم اندهاش؛ فهذا الأمر بالنسبة لقاطنى الصحراء جزء من حياتهم اليومية، أن يفقد المرء طريقه، أو إحدى إبله، أو ينفد مأؤه، أو مؤنه.

الخميس ٢٩ مارس: لم يتم تسجيل درجة الحرارة الصغرى فى هذا اليوم؛ نظرًا لتحطم الترمومتر الخاص بقياس درجة الحرارة الدنيا خلال العاصفة.

ظلت تلال "حوایش" تمتد على يسارنا حتى وقت الظهيرة. وفى الساعة الحادية عشرة والنصف دخلنا نطاقًا من الكثبان الرملية الناعمة شديدة التموج، وكان عبورها صعبًا على الإبل والرجال، وفى الواحدة والنصف مررنا بجارة الشریف التى كانت توجد إلى اليمين منا، وهو أكبر علم رأيناه على الإطلاق؛ إذ كان عبارة عن جارة على شكل سلسلة يبلغ طولها نحو ١٥٠ مترًا وارتفاعها نحو ١٠٠ متر، بالإضافة إلى ثلاث جارات أصغر بجانبها: اثنتان إلى الجنوب وواحدة إلى الشمال، وبحلول الساعة الثالثة دخلنا مرة أخرى نطاقًا كثيفًا من الكثبان الرملية، وبعد ساعتين من ذلك مررنا بمنطقة منبسطة ذات رمال أكثر خشونة تتخللها رقع من الصخور السوداء.

فى الثالثة والنصف صباحًا قد بدأنا نواجه أسوأ عاصفة رملية تعرضنا لها؛ فقد انتزعت الخيام من أوتادها، وأهملت خيمتى فوق رأسى؛ فحطمت بعض أدواتى، ومن أهمها الكرانومتر الصغير الذى كان معى. وأصبحت مهددًا بالاختناق نتيجة لانهيار الخيمة فوقى وازدياد وزنها نتيجة للازدياد المضطرد للرمال المتراكمة فوقها، إلا أننى - لحسن الحظ - استطعت الإمساك بأحد أوتاد الخيمة، ورفعت به قماش الخيمة من فوق وجهى، وحاول بعض الرجال أن يهبوا لمساعدتى، لكننى صرخت فيهم أن يضعوا أكياس الدقيق وبعض الحقائب فوق خيامهم وخيمتى حتى يحفظوها راسخة، ومكثت فى

وضعى غير المريح هذا - تحت الخيمة - لمدة ساعتين أو ما يقرب من ذلك، وكانت الرمال المندفعة بقوة من الثغرات التى فى الخيمة أشبه بطلقات الرصاص، وقد عانت الإبل والرجال بشدة، ولو أن سارى خيمتى انحرف جزءًا من البوصة عند سقوطه لكان قد حطم الكرانومتر الكبير الذى معى وعندها ترى أى اختلاف كان سوف يحل بالنتائج العلمية لبعثتى؟!!

فبالنسبة للعالم فإن عمل المستكشف إما أنه نجح وإما أنه فشل، وهناك خط جلى يفصل بينهما. أما لدى المستكشف ذاته فإن هذا الخط مضرب للغاية، فقد ينجح خلال رحلته فى الوصول إلى ما يريد، ويكدس كل المعلومات التى ينشدها، ويصبح على بعد بضعة أميال من نهاية الرحلة، وعندها، فجأة، ينهار جملة، ويصبح لزامًا عليه أن يتخلى عن الجزء الأثير من حقائقه؛ فالماء والطعام لهما الأولوية دائمًا، ويصبح عليه أن يترك خلفه الصناديق التى تحتوى على أدواته العلمية وتسجيلاته، وقد يكون حاله أكثر سوءًا، ويضحي بكل شىء، وربما بحياته، وبالنسبة للعالم الخارجى فإن ما حدث يعد فشلًا، والنقاد الكرماء قد يدعونه الفشل المجيد، ولكنه على أية حال فشل. ولكن ترى إلى أى مدى كان هذا الفاشل قريبًا من النجاح؟ ففى بعض الأحيان فى هذه الرحلات الطويلة قد يكون الشخص الذى فشل قد فعل أكثر، وتحمل مشقة أكثر من الرجل الذى نجح، ويتعاطف المستكشف أكثر مع ذلك الرجل الذى ناضل وفشل مقارنة بذلك الذى نجح؛ لأن المستكشف وحده هو الذى يعلم كيف أن الرجل الذى فشل قاتل كى يحافظ على ثمار عمله.

والبدو يدركون هذا؛ فهناك ميزة في شخصيتهم تفاجئك بل تدهشك في بعض الأحيان، حتى أصبحت متفهمًا لها، فلا يوجد مرح أو ابتهاج عندما ينتهى يوم السير إلى مقصده، كأنهم يقولون "اليوم قد وصلنا، ولكن من يدري غدًا؟! فنجاحك اليوم أمر لا يدعو للتفاخر"، إنها ليست مهارتك. إنه القدر؛ فربما تبدأ غدًا رحلة أسهل وتفشل فشلًا ذريعًا؛ ففي رحلتى الأولى الطويلة في الصحراء الليبية عام ١٩٢١، في المسافة الممتدة بين واحة "بوزيما" وهى إحدى واحات مجموعة "الكفرة"، وواحة "الكفرة" ذاتها، واللذان يفصل بينهما نحو ثلاثة أيام سفر، مررنا ببقايا قافلة هالكة، وكانت هناك يد لا تزال بارزة من الرمال، وقد أصبح جلدها أصفر مثل رق المخطوطات، وبينما كنا نمر، توجه إليها أحد الرجال فى توقير وأخفاها بالرمال؛ ورغم أن الرحلة مدتها ثلاثة أيام، فقد ضل هؤلاء الرجال طريقهم وماتوا من العطش!.

وهناك الكثير من القصص المأساوية التى تحكى عن هلاك قوافل كانت على مرمى البصر من إحدى الآبار. وبدلاً من أن يردعهم ذلك عن أن يسلكوا الطريق ذاته، فإن البدو يقولون فقط إن الله - سبحانه وتعالى - هو الذى كتب عليهم أن يموتوا على هذا الطريق، حتى إن أحد البدو قال لى يوماً "إن أمعاء الطيور أفضل من ظلام القبور"؛ أى أنه يفضل أن تأكله النسور على أن يواريه الثرى.

كان يوماً شاقاً للغاية، نظراً لصعوبة التقدم عبر الكثبان الرملية الناعمة، ورغم هذا فقد كان الرجال سعداء؛ لأننا أصبحنا قريبين من "الكفرة"، كما حفزهم على السير الأنباء عن أن بوحليجا - الذى يقيم

فى "الهوارى"، أول موضع للتوقف عند أطراف "الكفرة" - سوف يذبح خروفاً، وبعد وليمة لنا.

كانت الإبل ضعيفة ونحيلة، إلا أن ثلاثاً منها كانت ديارها فى "الكفرة" قادت الطريق طوال اليوم دون أى توجيه على الرغم من صعوبة السير بين الكثبان الرملية.

وبحلول الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة رأينا جارة "الهوارية"، ذلك العلم الضخم الذى يشير إلى الاقتراب من "الكفرة".

الجمعة ٣٠ مارس: بدأنا فى الساعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، وتوقفنا فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٣٥ كيلومتراً لنصل إلى "الهوارى"، وفى المساء سقطت بضع قطرات من المطر. كانت الأرض منبسطة، ورمالها ناعمة يتخللها نطاقات من الصخور الحمراء والسوداء، وبحلول الساعة التاسعة والنصف دخلنا نطاق الرمال الحمراء الخاصة "بالكفرة"، بينما كنا نمر طوال اليوم بقطع من الأخشاب المتحجرة، وفى الساعة الواحدة والرابع ظهراً عبرنا جارة "الهوارية"، وفى الساعة الثالثة والنصف رأينا أشجار نخيل "الهوارى"، وبعد ساعة ونصف الساعة من ذلك دخلنا الواحة، وسرعان ما خيمنا فى "عوادل".

وصلنا إلى أولى نقاط "الكفرة"، ذلك الاسم الذى أطلق فى وقت رولفس على أربع واحات تتفصل عن بعضها على نحو ما، وهى

"تازربو"، و"بزيمة"، و"ربيانة"، و"كيبابو"، ولكن فى الوقت الحالى تُسمى بالأسماء السابق ذكرها.

وتقع "الهوارى" فى أقصى شمال "الكفرة" الحالية، وهى واحة صغيرة نسبياً، تتكون من ثلاث قرى هى "هوارى" و"هواويرا"، و"عوادل" وعلى بعد سبعة عشر كيلومتراً جنوباً توجد "التاج" حيث الحكومة المحلية والمنطقة العمرانية الرئيسية، وهى تقع على جرف صخرى يطل على منخفض الواحة، التى تقع فى الجنوب، وتحتوى على قرى: "جوف"، و"بويما"، و"الزروك"، و"التلايب"، و"الطولاب".

كنت قد عزمت على التوجه فى اليوم التالى مباشرة إلى "التاج" البلدة الرئيسية فى "الكفرة"، إلا أن بوحليجا طالبنى بحق الضيافة، وأصر على أننى يجب أن أتوقف يوماً فى الواحة حيث موطنه، وبعد ليلة جيدة من الراحة التى لم تزعجها عواصف رملية أو خيام منهاره، وبعد الحلاقة، كنت فى أتم الاستعداد أن أوفى طعام الإفطار حقه، والذى أرسله لنا بدو قافلة وصلت للتو من "واداى". وفى هذه الأثناء كنت قد جمعت بعض المعلومات المثيرة التى جعلتنى أفكر فى تغيير خططى. كما أرسلت رسولاً إلى "التاج" ومعه خطاب إلى سيد العبيد ابن عم السيد إدريس ورئيس السنوسية فى "الكفرة"، وإلى جداوى الوكيل الشخصى للسيد إدريس أنبئهما باقتراب وصولى.

بعد الظهر رافقنى زروالى إلى "الهوارى" حيث استقبلنى فى الزاوية الإخوان ووجهاء البلدة، وبعد كلمات الترحيب المعتادة، وتبادل المجاملات، ذهبنا لتناول طعام الغداء فى دار عم زروالى، وتظاهر زعماء البدو بأنه ما كان على أن أحضر مباشرة إلى

"الهوارى"، بل كان يجب أن أخيم خارجًا لأمنحهم الفرصة للأستعداد لمراسم الاستقبال. وعلى ما يبدو أنهم سمعوا عن استقبالي فى "جالو"، وكانوا يرغبون فى فعل شىء مثله لى هنا.

سمعت إشاعات عن تأمر بعض زعماء الزوىّ على؛ فقد كانوا يرتابون فى غرض حضورى للمرة الثانية إلى "الكفرة"، وكنوع من الاحتجاج رفضوا الحضور للمشاركة فى الغداء، كانوا ذوى نفوذ، وسلوكهم هذا جعلنى عازمًا على التعجيل فى الذهاب إلى "التاج" قبل أن يستطيعوا إرسال كلمة قد تسبقنى وتضر بوصولى.

بعد الطعام امتطيت عائداً إلى الديار عبر الضوء الجميل للقمر، وعندما وصلت وجدت مهمة شاقة تنتظرنى؛ فقد كان "عجيلة" - أكبر أبناء بوحليجا - قد لدغه عقرب، وإيمانًا فى صندوق أدويتى، أكثر مما كنت أثق فيه أنا نفسى، طلب بوحليجا منى أن أعالجه، أخذت الترياق المضاد للدغة العقرب، وذهبت إلى المنزل، حيث وجدت الصبى مريضًا جدًّا، يحترق من الحمى.

وفى اللحظة الأخيرة قبل أن أترك القاهرة، أدرج هذا الترياق ضمن مؤنّى، وشرح لى أحد الأطباء من أصدقائى بينما كان يصافحنى وأنا أودع البشر التى كانت تحيطنى - ربما بصورة أكثر استرشادية - كيف يستخدم هذا الترياق. وكانت المرة الأولى لى على الإطلاق التى أحاول فيها استخدام هذا النوع من الحقن، وحاولت أن أستحضر المشهد وأستعيد نثار هذه التعليمات المتفرقة، ولكن ما صدمنى هو ذلك الاختلاف بين هذه الحجرة ذات الإضاءة الشاحبة مقارنة بما كان عليه الحال عندما كان أصدقائى وأقاربى يراقبون كل

حركة لى وهم يودعوننى بحرارة عندما أضيف هذا الترياق إلى تجهيزاتى.

على كل حال، وعلى الرغم من عدم تيقنى إن كانت الحالة متأخرة عن العلاج أم لا، فقد أعطيت الترياق، وعدت بعد ذلك إلى مخيمى متسائلاً عما ستؤول إليه الأمور، وقبل أن يمضى وقت طويل سمعت حشداً يقترب من خيمتى مع صياح عال، بدا الصوت فى أذنى عدائياً بعض الشيء، وظننت أنه من المحتمل أن يكون الصبى قد مات بالفعل، وأن موته سوف يلقى على كاهلى بدلاً من ذلك الترياق. دعوت رجالى أن يحموا صندوق الأدوات العلمية، الذى شككت أنه قد يكون الهدف الأول لهجومهم، وأهلت نفسى لاقتراب عدائى، كانت لحظة مزعجة، إلا أن ارتياحى كان عظيماً عندما ميزت فى صياح أولئك القادمين نبرة الابتهاج أكثر من العداء، وبعد ذلك دخل بوحليجا إلى خيمتى وشكرنى بدفء ومودة من أجل العلاج الذى أعطيته لابنه، وأعلن فى حماسة " لقد كان مثل السحر، ربنا عظيم، فقد جعل دواؤك الصبى يتعافى من جديد".

رددت عليه بعبارة مماثلة وقلت له "إن الشفاء من عند الله"، وكانت الحمى قد هدأت بالفعل، ومن الواضح أن الصبى كان فى طريقه للشفاء تماماً. شكرت الله فى سرى، لحسن الطالع الذى خدمنى؛ فلو مات هذا الصبى لأصبح موقفى سيصبح خطيراً. وعندما رحل زائرى خرجت إلى ضوء القمر والليل الجميل.

الفصل الثالث عشر

الكفرة.. الأصدقاء القدامى وتغيير الخطة

«الأحد ١ أبريل: بدأنا فى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وتوقفنا فى الثانية ظهرًا، قطعنا نحو سبعة عشر كيلومترًا، ووصلنا فى نهايتها إلى "التاج". بحلول الحادية عشرة والرابع دخلنا منطقة صخرية وعرة، صخورها شديدة الاستدارة، تغطيها رقع من الأحجار الرملية الحمراء والسوداء، استمرت إلى أن وصلنا إلى "التاج".»

حضر عجيبة ليساعدنا فى تحميل الإبل، كان قد تعافى تمامًا من لدغة العقرب، وأصبح قادرًا على مرافقتنا إلى "التاج"، كما أرسل بوحليجا إفطارًا لى ولرجالى، وعندما تظاهرت بأنه ما كان عليه أن يكبد نفسه هذه المشقة، أبدى اعتراضه قائلاً " إنه كان على أن أمنحه الفرصة لأن يستضيفنا الأيام الثلاثة المعتادة"، وبعد ذلك بقليل حضرت إحدى الإماء من عنده ومعهما وعاء ضخم مليء بالأرز والدجاج والبيض.

بدا جليًا أنها تزينت من أجل هذه المناسبة، وكانت فاتنة بالفعل فى ردائها الأزرق الأنيق الذى كان يزينه نطاق أحمر يلف خصرها النحيل. أخبرتها أننا بصدد التحرك فى الحال ولا حاجة بنا للطعام.

فأجابت بخجل "ربما تحتاجونه خلال الطريق، لقد طهوتُه
بنفسي".

فطمأنتها قائلاً " في هذه الحالة سوف أقبله بكل سرور"، بدا
واضحًا أنها سرّت بذلك، وفي التو رحلت وعادت من جديد ومعها
وعاء آخر لا يقل حجمًا عن الوعاء السابق وكررت طلبها، أذعنت
للمحتوم وأرسلت شكرى لسيدها.

تلقينا وداعًا سارًا من أهل "عوادل"، كنت وقتها أتقدم القافلة وأنا
أمتطى فرس بوحليجا، فلم نكن نحتاج إلى دليل في الوقت الحالى؛
لأننى كنت أعرف الطريق، حتى إن سنوسى بوحسان قال "إيه، البيه
يعرف الطريق جيدًا، وسرعان ما سيصبح دليلًا فى أرضنا".

كان الاقتراب من "الكفرة" من الشمال يتسم بعنصر المفاجأة مما
ضاعف من تشويقه؛ فقد سرنا عبر أرض قليلة التموج تحيطها
مرتفعات غير منتظمة قليلة الارتفاع، تشكل الأفق أمامنا، وفجأة
انفتحت هذه القمم عن مجموعة من الأبنية التى يتعذر تمييز جدرانها
من أية مسافة عن الصخور والرمال التى تحيطها، نظرًا لأنها كانت
تطابقها فى اللون والشكل، كانت تلك هى "التاج" مقر عائلة السنوسى
فى "الكفرة"، وبينما كنا ندخل إلى البلدة، رأينا الأرض تهبط فجأة إلى
وادي الكفرة، والذى يتخذ شكل حوض بيضاوى ضحل يبلغ أقصى
اتساع له نحو ٤٠ كيلومترًا بينما كان أقل اتساع له نحو ٢٠
كيلومترًا، وتتناثر داخله أشجار النخيل، التى تقطعه فى خطوط غير
منتظمة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، وتوجد به ستة
محلات عمرانية هى: "بويما"، و"بوما"، و"جوف"، و"زوروك"،

و"تلايب"، و"طلاب". وبالقرب من "جوف" تمتد مساحة من المياه الزرقاء تقترب من مساحة بحيرة، وفي هذه النقطة الوسطى من رمال الصحراء القاحلة تعد امتدادات المياه هذه عطية ونقمة في آن واحد؛ فالمشهد المجرد لهذه الكمية الكبيرة من المياه يجلب الانتعاش للعين التي سئمت التطلع للأشياء عدا الرمال، لكنها للحلوق الجافة تعد أسوأ من رأى السراب؛ لأن ماءها كان مالحاً. (٣٣)

في أثناء دخولنا إلى "التاج" استقبلني أصدقائي القدامى بحفاوة بالغة، وكان سيد العبيد ابن عم السيد إدريس، ورئيس السنوسية في "الكفرة" مريضاً بالروماتيزم، إلا أن كلاً من سيدي صالح البشكاري، والقائم مقام، وسيدي محمود الجداوي وكيل السيد إدريس، والعديد من الإخوان، حملوا كلمات ترحيبه، وقادوني إلى دار السيد إدريس التي كنت سأمكث بها، وهي الدار ذاتها التي أقمت بها في رحلتي الأولى "للكفرة" منذ عامين، وفي التو شعرت أنني عدت إلى داري. ووجدت السيد البشكاري يقول مازحاً "سوف يصبح عليك أن تقود رجالك عبر طرق الكفرة، فحتى زروالي لم يطأ هذا المكان منذ ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً".

وفي التو بدأت مراسم الضيافة، بالقهوة التي أحضرها قائد المجموعة. وكان لدى بعض الوقت لاستراحة قصيرة قبل أن يحضر العبد ليصطحبني إلى دار السيد العبيد لتناول الطعام.

(٣٣) واقع الأمر أنه توجد بحيرتان صغيرتان في هذه المنطقة ماؤهما شديد الملوحة على الرغم من وجود مياه حلوة على عمق صغير بالقرب من شواطئهما، والتفسير الوحيد لهذه المياه المالحة هي أنها جزء مكشوف من إحدى طبقات المياه الجوفية الموجودة بالمنطقة. " المترجمان "

ومقادًا بالرسول ذاته الذي حضر لاصطحابي منذ عامين، سرت عبر الشوارع ذاتها، ودخلت الدار الرائعة نفسها لزعيم السنوسية مع شعور غريب أن الزمن ظل واقفًا في هذا المكان أو عاد من جديد. ودار سيد العبيد عبارة عن متاهة من الممرات التي تصطف بها أبواب الغرف التي يعيش خلفها أفراد عائلته وخدمه. دخلنا حجرة مألوفة بدت كما لو كانت قد زينت بصورة أكبر من ذي قبل، بسجاجيد رائعة، والعديد من الوسائد الملونة المطرزة بطرز كثيفة، كما عُلقت على الجدران مجموعة لا تُسى من الساعات والبارومترات والترمومترات التي كان يُسرّ بها مضيفي، وكان عدد الساعات الموجودة في الحجرة لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة مختلفة الأحجام والأشكال تعمل كلها.

حضر لاستقبالي سيدى صالح، واعتذار عن الغياب القهرى لمضيفي السيد العبيد، وبعد ذلك مُدّت أمامي وليمة تليق بالحكام أو بمن تعرض للموت من رتبة العيش في الصحراء، وكانت تتكون من: لحم الحملان، وأرز، وخضراوات، وملوخية وهو نبات مصرى يشبه السبانخ، وخبز لذيذ، وخل حلو، ولبن، وحلوى، تلاها قهوة ولبن تم مزجهما بعجينة اللوز، وفي النهاية أكواب الشاي الثلاثة التقليدية المعطرة بالعنبر وماء الورد والنعناع. وعندما انتهت وجبة الطعام عدت إلى منزلي، وكان لدى بالكاد وقت لأن أرى أمتعتي، وأناقش أمر الإبل اللازمة للمرحلة التالية من الرحلة، وبعد ذلك حضر العبد ليصطحبني مرة أخرى إلى دار السيد العبيد من أجل العشاء، كان البشكارى هو مضيفي هذه المرة أيضًا، وبدا وقورًا وكريمًا وهو يرتدى جبة جميلة من اللونين الأصفر والذهبي، واستبدل بطربوشه

البدوى التقليدى الناعم الذى كان يرتديه كوفية بيضاء حريرية وعقالاً
ذا لونين أخضر وذهبى.

وعندما وصلت هذه الوجبة إلى مرحلة الشاى المعطر والبخور،
فجأة بدأت الساعات تدق كل واحدة بنغمتها الخاصة، لتعلن الثالثة،
وفق التوقيت العربى والتى تعنى التاسعة وفق توقيت العالم الخارجى،
أغلقت عيني لدقيقة وشعرت أننى عدت إلى أوكسفورد، حيث تدق
الساعات بتتويجات نغمية لا تنتهى فى كل الكنائس التى تواجه المدينة
الجامعية.

خرجت إلى ضوء القمر مع عبير ماء الورد والبخور العالق بى،
ووقفت عند حافة سلاسل التلال أتطلع إلى مياه البحيرة، ثم تتداعى
ذكريات رحلتى السابقة "للكفرة" عندما كانت هى هدفى. أما الآن فهى
تعد بداية لأكثر مراحل رحلتى إثارة، وفى هدوء المساء سمعت
صوت الإخوان والطلبة وهم يرددون "الحزب".^(٣٤) ووجدت عبد الله
ينسل من الظلام ويقف أمامى. وقال بنبرة منخفضة، كرجل يفكر
بصوت عالٍ " إنها ليلة النصف من شعبان، وربنا سوف يحقق أمانى
كل من يدعو الليلة".

ولبضع دقائق وقفنا - نحن الاثنين - صامتين، وكان وجهى
صوب الجنوب الشرقى حيث تمتد طرق غير مطروقة وواحات
مفقودة، بينما استدار عبد الله صوب الشمال الشرقى حيث تقع مصر
وأسرته وأطفاله، ولم أكن فى حاجة لسؤاله عما سوف يدعو من أجله.

(٣٤) دعاء كان يتلوه السنوسى الكبير، وقد ورثه إخوان السنوسية، وأصبحوا
يرددونه بعد صلاتهم. " المترجمان "

الاثنين ٢ أبريل: عندما كنت في "الهورى" أخبرتنى قافلة بدوية من "الوادى" أن إحدى شركات البترول الفرنسية توجهت صوب الشمال لما يقرب من بئر "سارا" على طريق التجارة الرئيسى من "الوادى" إلى "الكفرة". وكان ذلك هو الطريق الذى عزمت على أن أسلكه فى البداية، ولكن بدا أنه لا يوجد سوى جزء صغير منه - الممتد بين "سارا" و"الكفرة" - هو الذى لم يكتشف، ومرة أخرى سمعت بعض القصص الغامضة عن واحات مفقودة تقع على الطريق المباشر صوب الجنوب، والذى كنت قد خططت فى بعض الأوقات أن أقوم باكتشافه، على الرغم من علمى أن الطريق المباشر إلى "دارفور" فى "السودان" كان عملياً لا يستخدم مطلقاً سواء بواسطة البدو أو السودانيين بسبب صعوبته وخطورته المفترضة. أدارت قصة شركة البترول الفرنسية رأسى مرة ثانية صوب هذه الواحات، وعقدت عزمى على محاولة العثور عليها بدلاً من مواصلة خطتى الأصلية.

ورحلت مقررًا أن أفعل كل ما هو ممكن لأكتشف هذه الواحات المفقودة، ولكن إذا ما فشلت فى ذلك فقد كنت سأعبر الصحراء الليبية من خلال الطريق المطروق عبر "واجونجا" و"الوادى"، وبعدها أتجه شرقاً صوب "دارفور".

حضر لمقابلتى كل من زروالى وسليمان بومتارى - وهما من تجار الزوى الأغنياء - ليناقشا خطة رحلتى صوب الجنوب، ولم يكن بومتارى محبذاً للطريق الذى قررت أن أسلكه، وقال إن آخر قافلة سارت فى هذا الاتجاه كانت منذ ثمانى سنوات - كان قائدها أخى

محمد - وقد التهمت وذبحت عند حدود "دارفور". ولم يسلكوا الطريق الذى تبغى أنت الذهاب عبره، بل ساروا فى طريق من أسهل الطرق من "العوينات" إلى "ميرجا" - واحة صغيرة تبعد نحو ٢٩٠ كيلومتراً جنوب شرق العوينات - هذه الرحلة التى تقترح أن تقطعها تمر عبر نطاق لم يعبره أى بدوى من قبل، و"الدفا" - طريق طويل بلا ماء - بين "العوينات" و"إردى" طويل وخطير. ربنا يرحم القافلة فى مثل هذه الحرارة، سوف تتساقط إيلك مثل العصافير فى مواجهة الرياح الجنوبية الحارة. وحتى إذا عبرتها بسلام، فمن يدري كيف سيستقبلك السكان الذين يقطنون تلك التلال؟ لاتدع تلهفك على السفر يسبق حكمتك، ويحول دون اختيارك طريق التجارة الآمن إلى "واجانجا" و"أبيش". شكرته على نصيحته لى، لكننى كنت أعلم أننى لن آخذ بها.

بعد أن تناولنا الغداء الملكى الذى أعده لنا سيد العبيد توجهنا لزيارة ابنه شاروفا، وهو شاب ذكى، متعطش للمعرفة. وقد ذهب إلى أبعد ما يكون فى العالم الخارجى؛ حيث ذهب إلى "بنغازى" تلك الحاضرة التى تعد بالنسبة إليه - بكل ما تعنى الكلمة من معنى - مدينة العالم، وقد اعتذر لمرض والده، وعرضت عليه فى المقابل أن أرسل إليه دواءً قد يكون مفيداً له.

الثلاثاء ٣ أبريل: كان الجو دافئاً للغاية، مع وجود سحب كثيفة ورياح جنوبية غربية سيئة. بعد الغداء المعتاد ذهبت إلى زيارة شمس الدين وأخيه الصغير وهما أبناء عم شاروفا، كان الفتى الكبير شديد الذكاء يملك عينين تبدوان كما لو كانتا تسألان عن العالم. وهناك قدماً لى ثلاثة أكواب من اللبن وعجينة اللوز، ومربى أعدت فى المنزل،

وكننت أعلم أن رفض هذه الضيافة يعد إهانته؛ لذا رحلت عن تلك الدار وأنا في حالة خدر شديد من كثرة الطعام. وقد زاد العشاء بعد ذلك في دار سيد العبيد من سوء حالتي.

مرة أخرى ناقشت مع الحضور خطة الذهاب عبر طريق "أركينو" و"العوينات"، وأصبحت أكثر عزمًا عن ذي قبل. وجاء الرد لنرى ما سوف يقوله بوحليجا عندما يصل من "الهواري".

الأربعاء ٤ أبريل: أيقظني جدّاوى الذى أحضر لى - كالمعتاد - قدحًا من الشاي المعطر. وبينما كنت أرى أحمد وهو يعد أدوات الحلاقة الخاصة بى فكرت أن هناك بالطبع أوقاتًا يرحب فيها المرء براحة الحضارة ورفاهيتها، ولكن مع طول السفر فإن المرء يشعر أنه فى داره أكثر عندما يكون فى تحركه مقارنة بالراحة فى إحدى الواحات.

الجزء المبكر من اليوم أنفق فى التقليل من معظم الصناديق الخشبية، وإعادة ترتيب الحقائق من أجل الإعداد للرحلة الطويلة صوب الجنوب، وقد تطلب الأمر عناية خاصة؛ فاعتبارًا من الآن وصاعدًا لن تتاح أية فرصة لتغيير الإبل إلى أن نصل إلى "الفاشر" فى السودان، على بعد ٩٥٠ ميلًا تثيريًا.

وكان السؤال الخاص بالتزود بأحذية جديدة لرجال قافلتى أصبح ملحقًا؛ لأن الأحذية البدوية التى صنعت لهم فى "جالو" كانت قد بليت تمامًا.

قبل موعد الغداء زارنى بعض زعماء الزوى، الذين حضروا بصفة رسمية ليبدوا احترامهم، وبصفة غير رسمية ليرضوا فضولهم

وشكركم نحو حجم قافلتى والأدوات التى كنت أحملها، وحاولوا أن يكتشفوا الخطط التى وضعتها لرحلتى إلى "السودان".

كان الغداء كالمعتاد عند سيد العبيد، وبلغتنى أخبار سارة؛ حيث إن الدواء الذى أعطيته إياه كان له تأثير جيد. وقد أمضيت فترة ما بعد الظهر فى الإصغاء إلى أسئلة حول الأسلحة والذخائر، وبعد ذلك خرجت فى تمشية طويلة بهدف جمع ملاحظات بالبوصلة عما يجاور "التاج".

الخميس ٥ أبريل: تحدثت زروالى طويلاً مع بوحليجا - الذى وصل ليلاً من "الهوارى" - ورفض الأخير تمامًا فكرة الذهاب إلى "الفاشر" عن طريق "العوينات".

وزارنى بوحليجا محاولاً إقناعى بالذهاب عبر طريق "الواداى"، وعندما رأى أنه من المحتمل ألا يؤخذ بنصحه أصابه اليأس، وقد بينت له بوضوح أنه لا يوجد شيء يمكن أن يثنيى عن قرارى بأن أسلك طريق العوينات إلى "الفاشر"؛ فوجدته يقول "يا الله! إنه طريق خطر، والعديد من القوافل التهمها سكان التلال التى توجد على الطريق. إنهم لا يخافون الله، ولا يخضعون لسلطان أى رجل، وهم مثل الطيور الجارحة يعيشون فوق قمم الجبال، وسوف تواجهه من مشاكل معهم".

فأجبت "نحن رجال مؤمنون، وقد رنا فى يد الله - سبحانه وتعالى - وإذا كان الموت مكتوباً، فسوف يأتى فوق الطريق المطروق وبجوار أقرب الآبار.

فقال "إن العديد من لحي الزوى قد دفنت فى هذه الأجزاء المجهولة؛ فالبشر هناك خائفون لا يخشون الله أو أى إنسان".

فأجبت "ربنا يرحم أولئك الزوى الذين فقدوا حياتهم، إن حياتنا ليست أكثر قيمة من حياتهم؛ فهل تكون شجاعتنا أقل منهم؟"

جادلنى مرة ثانية قائلاً "إن الماء فى هذه المنطقة نادرًا وسيئًا للغاية"، والله - سبحانه وتعالى - يقول ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

فأجبت "إن الله - سبحانه وتعالى - سوف يروى ظمأ المؤمن الحقيقى، وسوف يحمى أولئك الذين يؤمنون به".

وعندما شعر أنه فى خطر أن يهزم فى الجدل، غير طريقته فى الحديث، وقال بحزم "لا يوجد أحد من رجالى يرحب بمرافقتك على هذا الطريق، كما أننى لا أستطيع إرسال إبلى أيضًا، فهو مثل إرسالها إلى الموت؛ إذا وجدت أى شخص يرحب باستئجار إبله فأنا مستعد أن أدفع له، ولكن لا رجالى ولا إبلى سوف يصحبونك فى هذه الرحلة".

فرددت عليه بقوة "افعل ما تريد، سوف أذهب من هذا الطريق، وسوف يصبح الأمر بينك وبين السيد إدريس عندما يعلم أن بوحليجا لم يلتزم بكلمته".

وهنا توقف الجدل. وكنت قد علمت بالفعل أن بوحليجا ورجاله قد أوعزوا إلى بعض مالكي الإبل فى "الكفرة" حتى ألا يساعدونى فى خطتى الجديدة، وكان يأمل بذلك أن يجبرنى على قبول خطته وسلوك الطريق الآمن عبر "الوادى".

أعد جدّاوى غداء ضخماً؛ فقد كانت أيام الضيافة الرسمية الثلاثة الخاصة سيد العبيد قد انتهت بالأمس، ومن ثم أمكن لجدّاوى بصفته وكيل إدريس فى "الكفرة" أن يُضيّقنا.

وكان بوحليجا على وشك الرحيل، لكننى دعوته أن يشاركنا طعامنا، فقبلَ على أمل أن يقنعنى بأن أغير رأى، بينما كنت أمل أنا - وربما بصورة أكثر قوة - أن أقنع ذلك الكهل بأن الطريق ليس خطراً كما يصوره، وبعد كوب الشاي الثالث افترقنا، ولم يكن أى منا قد نجح فى إقناع الآخر، لكننى شعرت أن كلماتى الأخيرة قد أثرت فيه.

عند الظهر حضر إلىَّ العبد ليخبرنى أن سيده - سيد العبيد - يتطلع إلى مقابلتى، كنت قد علمت بالفعل أنه لم يكن فى حاجة لأن يتعجل مقابلتى رسمياً؛ لأنه كان يعانى بشدة من داء النقرس، وكان من العسير عليه أن يهبط إلى حجرة الاستقبال، ولكنه لم يكن يريد أن يجعلنى أظن أنه قد انتهك قواعد الضيافة بالتأخر عن لقائى؛ لذا سمح لى - بكرم شديد - أن أراه برغم آلامه.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها سيد العبيد فى هذه الرحلة، وبينما كنت أقاد إلى حضرته، شعرت أنه أشبه بصورة رائعة خرجت من قصص ألف ليلة وليلة. كان يرتدى قفطاناً حريراً أصفر اللون موشى بخيوط حمراء، وعلى كتفيه بورنس من الحرير الأبيض، بينما يرتدى على رأسه عمامة من الشاش ناصع البياض تتسدل من الأجناب، والتى تعد غطاء الرأس التقليدى لزعماء أسرة السنوسى، ويحمل فى يده عصاة ثقيلة من الأبنوس ذات مقبض ضخم

من الفضة، كان صورة للبساطة والنبيل، ولا يستطيع أحد أن يشك في كونه محاربًا مهيبًا، كان يجلس فوق مقعد ضخم ذي ذراعين كبيرتين، وعندما دخلت حاول النهوض، فأسرعت إليه ممسكًا بيده ومتوسلاً إليه ألا يكبد نفسه مشقة النهوض؛ إذ كان يعاني بشدة من داء النقرس، وبدأ حديثنا بسهولة حول موضوع علقته، والذي يعاني منها منذ عدة سنوات، وقال "في أثناء الليل، عندما تشتد وطأة الألم، أصلى الله - سبحانه وتعالى - لعله يقصر عدد أيامي في هذا العالم؛ لأنني لا أستطيع أداء الصلوات كما يجب".

وبعد ذلك ناقشنا أمر رحلتى إلى "السودان"، ووجدته أيضًا يحثني على أن أسلك الطريق الآمن عبر "الوادى". وقد أوضحت له أن السيد إدريس موجود الآن في مصر؛ لذا على أن أعود في أسرع وقت إلى وطني، وأحاول أن أurd إليه بعض الضيافة التي أغدقها على السنوسية ببذخ، ومن حسن الحظ أن الطريق إلى "السودان" عبر "العوينات" معروف أنه أقصر من طريق "الوادى".

فقال "أنت صديق عزيز لنا، وأنا أثق أن السيد إدريس يفضل أن تصل متأخرًا آمنًا إلى مصر، على أن يسمع أنه قد أصابك أى مكروه".

فأجبت "قدرنا في يد الله سبحانه وتعالى، وخطانا كتبها علينا، ومعى بركة زعيم السنوسية".

تحدثت بكل تصميم، واستغرق سيد العبيد في التفكير لبضع دقائق، وبيبطاء رفع رأسه وكفيه صوب السماء وقال مستجيبًا لرغبتى "ربنا ينجح سعيك، ويعيدك سالمًا إلى أهلك، لقد زرت ضريح جدنا

فى "جغبوب"، وقبة سيدى المهدى هنا، ونلت بركتهما" ثم اقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وبعدها قرأنا الفاتحة ومنحني بركته، ومرة ثانية دعا الله - سبحانه وتعالى - أن يرشدنا ويسدد خطانا ويمنحني ويمنح رجالى الثبات. شعرت بسعادة بالغة وأنا أشق طريقى عبر الممرات والساحات المختلفة؛ فقد أراحنى أن أعلم أننى نلت مؤازرة سيد العبيد، وأنه لم يُبدِ أية معارضة لخطتى الجديدة للذهاب إلى "السودان" عن طريق "العوينات".

كل رجال قافلتى كانوا موجودين هناك عندما دخلت إلى الدار، ونظرة واحدة فى وجوههم أخبرتنى إلى أى مدى كانوا يحبسون استئثارهم؛ فقد كانوا ينتظرون منذ أن توجهت إلى سيد العبيد أن يسمعوا رأيه حول الرحلة إلى الجنوب. وببطء اتخذت طريقى صوب حجرتى وطلبت منهم أن يحضروا؛ فقد كان علىّ أنا أيضاً أن أقمع استئثارى التى كانت تعود للنجاح وليس للترقب. وكانت هناك فترة توقف طويلة قبل أن أستطيع التحكم فى صوتى وأجعله غير مبال كما يجب أن يكون، وقلت "لقد بارك سيد العبيد رحلتنا إلى "العوينات"، وقرأنا الفاتحة"، ولم أكن أحتاج حتى على النظر فى وجوه الرجال؛ فقد كانت معنا مباركة زعيم السنوسية، ومؤازرة سيد العبيد؛ لذا فسوف يمنحنا الله - سبحانه وتعالى - الثبات والنجاح، والهدى الذى يأتى من عنده".

الفصل الرابع عشر

الكفرة وموضعها على الخريطة

«الجمعة ٦ أبريل: بدأ اليوم بوصول وعاء ضخمة مليء بالزهور رائعة العبير، أرسلها إلينا سيد العبيد. وكانت تلك هي الطريقة التي تناقض بها الصحراء اسمها من حين إلى آخر، لدرجة أنني أتحدى "الريفيرا" أن تنتج أرق من هذا أو أكثر منه عبيراً».

كان يوم الجمعة، يوم راحة المسلمين، وقد حضرت الصلاة في المسجد، وكان من المنتظر حضور أمراء السنوسية الصغار، وجاء بعض البدو في أفضل ملابسهم، ولكن جنباً إلى جنب وقف من يرتدى أعلى القفاطين الحريرية مع من يرتدى أرخص "الجيردات"، وخلع كل فرد نعليه عند الدخول. راقبتهم لفترة، ها قد جاء أحد أعيان الزوى أو لعله تاجر من المجابرة بملابسه الثمينة التي تكشف ثياباتها عن أنها خرجت للتو من الصندوق، وفي عينيه الكحل، الذي يوضع بمراود - عصا الكحل - من العاج أو النحاس. كان كل ما يرتديه ذلك الرجل جديداً، وينبعث منه عطر نفاذ، لعله ماء ورد نقي من الذي يقطر في "الكفرة"، أو لعله مسك، أو عطر آخر قوي من السودان، دخل في وقار واحتل مكانه. وجاء آخر يرتدى جيرداً بالياً، وذو وجه برونزي ذابل ليس مكتنزاً لكنه لا يقل وقاراً عما سبقه. وقد يكون للملابس دور، ولكن جزءاً من هذا الوقار يعود إلى الكرامة

والشجاعة الطبيعية لدى هؤلاء البشر، وتبرز هذه الصفات بجلاء بين أولئك الذين يرتدون جيردات بالية عن أولئك الذين يرتدون حريراً رقيقاً ويتعطرون؛ إذ تسلبهم هذه الأشياء في بعض الأحيان بعضاً من سماتهم المتفردة.

جاء أحد العبيد، إنه العبد المفضل وموضع ثقة أحد زعماء السنوسية، وكانت حلتة الحريرية لا تقل قيمة، إن لم تفق في ألوانها الزاهية، وكان هناك القليل الذي ينم عن أنه عبد، كان يشعر بأهميته، ويسير - على نحو لا يقل وقاراً - عبر صفوف المصلين، ليتخذ مكانه بجوار أحد النبلاء أو ربما بجوار أحد الشحاذين؛ ففي المسجد لا يستوى الفقير مع الغنى فحسب، لكنه بطريقة مهذبة ينال انتقامه؛ لأنه في منزل الله - سبحانه وتعالى - حيث السيد هو الله وحده، يشعر الشحاذ قد يفوق ذو الرجل الثرى، طالما أنه لم ينغمس في ترف العالم ولم ينسَ الله سبحانه وتعالى، ويعد الجيرد القديم الرث ثوباً ملائماً للبدوى للذهاب إلى المسجد من أجل الصلاة، مثل ملائمة ثوب من الحرير المطرز لرجل سوف يذهب لمقابلة زعيم السنوسية.

استعد المصلون الآن؛ فقد انتهى المؤذن من النداء للصلاة، وحل الصمت، فقد دخل أمراء السنوسية الصغار إلى المسجد، وشغلوا الموضع الذي حجز لهم، واستدارت كل الأعين صوبهم، وعلى الرغم من حداثة سنهم فقد بدوا خجولين قليلاً ومرتبكين بعض الشيء. لم ينهض أحد عندما دخلوا؛ لأن هذا هو بيت الله سبحانه وتعالى، وداخله فإن الله وحده هو السيد، اعتلى الإمام المنبر، وبدأ في الوعظ، وغالبًا ما تكون موضوعات الخطب واحدة؛ فهي تحض المصلين

على أن يناؤا بأنفسهم عن العالم ومباهجه، ويستعدوا لحياة السعادة فى العالم الآخر من خلال فعل الخير ودائماً ما يردد من يلقى الخطب "احذروا من زينة العالم ومباهجه؛ لأنها شديدة الإغراء؛ فبمجرد أن تسقط ضحية لها تفقد روحك وتضل بعيداً عن الله سبحانه وتعالى، تقربوا من الله سبحانه وتعالى بأداء الحسنات، وإطاعة أوامره. هذه الحياة سوف تنتضى، بينما العالم الآخر هو الأبدى. أعدوا أنفسكم من أجله، ربما تصبحون سعداء فى الآخرة".

كان المسجد من الداخل جميلاً، ببساطة خطوطه وجلالها، وحوائطه العارية، المدهونة بالجير الأبيض النظيف، بينما كُست الأرض بالسجاجيد والحصر، وجلس المصلون القرفصاء على الأرض فى خشوع، كان هناك نحو مائتين منهم يصطفون فى صفوف تتجه كلها صوب مكة (الكعبة)، وكان بعضهم يُسَبِّحُ على مسبحة من حبات الكهرمان، والبعض الآخر أفقر من أن يكون لديه مسبحة؛ لذا يحسبون عدد مرات تسبيحهم على أصابعهم. وكان مظهر بعضهم يشى بأنه غنى موسر، وآخرون بأنهم من بدو الصحراء، إلا أن أكثر الانطباعات التى تدهشك هى تلك النظرة المحلقة والسكينة والقناعة المرسومة على وجوههم، حتى فوق تلك الوجوه المنهكة والكادحة فهناك أمارات رباطة جأش تبين أن الرجال قد رضوا بقدرهم، لا يتذمروا من ذلك.

بعد الغداء فى دار سيد العبيد، حضر سليمان بومطارى مرة أخرى ليتحدث عن الرحلة إلى الجنوب، وأخبرنى أن بوحليجا ومحمدًا، اللذين سيصبحان دليلينا، قد التقيا وبحثا الأمر سوياً، إلا أن بوحليجا كان لا يزال غير مرحب بالذهاب معنا.

أمضى عبد الله اليوم في "جوف" ليجمع أية معلومات يمكنه الحصول عليها حول طريق "العوينات"، ويمحاول اكتشاف ما إذا كان أفراد التبو سوف يسمحون لي باستئجار إبل منهم من أجل الرحلة إلى هناك أم لا.

بعد العشاء عند سيد العبيد، أمضيت بعض الوقت في مكتبة السيد إدريس، الذي كان قد أعطى تعليماته لجداوى أن يفتحها لي، وهي عبارة عن حجرة متوسطة المساحة، زاخرة بالصناديق التي تحتوى كتبًا. سقفها كان مزخرفًا بألوان زاهية، رسمها أحد الفنانين من أحباب السنوسية، والذي حضر من تونس متطوعًا لهذا الأمر، كما يحدث في ميدفيل بأوروبا عندما يكرس الرسامون والنحاتون حياتهم ليزينوا الكنائس، وكانت كل قطعة صغيرة من الأثاث في الحجرة قد جاءت إما من مصر أو من بنغازي، كما كانت بها نافذة تطل على الخارج ذات مصراع خشبي وحيد للحماية من الشمس. ولم يكن من السهل التحرك في الحجرة؛ نظرًا لاصطفاف الكتب والصناديق بطول الحوائط وفي منتصف الحجرة أيضًا.

وكان هناك العديد من الصناديق العتيقة التي تستخدم كخزائن، وفي الوقت ذاته مجهزة بملحقات على جانبيها تمكن من تحميلها مباشرة فوق الإبل في حال نقلها. وكانت المكتبة غير منظمة إلى حد ما؛ فقد كومت الكتب فيها الواحد فوق الآخر بغير اهتمام؛ لأن السيد إدريس كان غائبًا لفترة طويلة، كما كان هناك عدد كبير من المخطوطات الموضوعة في حافظات مغربية جميلة، والعديد من الكتب الحديثة التي طبعت في القاهرة والهند، بالإضافة إلى

مخطوطات من المغرب والجزائر وتونس. وباستثناء بعض الكتب باللغة الفارسية كانت كلها عربية، كما وجدت أيضًا مخطوطين أو ثلاثة للقرآن الكريم مزخرفين بماء الذهب - كان امتيازًا كبيرًا أن يسمح لي بالدخول إلى هذه المكتبة؛ لأنه، كقاعدة عامة، لم يكن يسمح لأحد بذلك - ووجدت العديد من المخطوطات القديمة التي كتبت بعناية باللغة على رق الغزلان، وهي أعمال في: الفلسفة، واللغة العربية، والفقه، والتصوف، والشعر، وأخرى في التعاويذ والسحر. أمضيت الكثير من الساعات المثيرة والممتعة بين هذه المجموعة، وكانت الأجواء والبيئة المحيطة ملائمة تمامًا؛ فقد كنت بعيدًا للغاية عن الضوضاء، ويفصلني عن العالم أميال عديدة، تكفى لأن يشعر المرء أنه في حالة تسمح له بتشرب الأفكار التي توجد في هذه المخطوطات واستيعابها. وجرب أن تجلس على مقعد مريح وسط الحضارة، وحاول أن تقرأ مثل هذه الكتب فإن رنة واحدة من الهاتف كفيلة بأن تنتزعك منها.

السبت ٧ أبريل: تلقيت زوجًا أنيقًا من الأحذية البدوية هدية من شاروفا، كما حضر زعماء الزوى لزيارتي مرة أخرى، وتحدثنا خلال تناولنا القهوة عن تاريخ الزوى، واكتشفت أن الزوى لم يكونوا أول من انتزع "الكفرة" من التبو، بل قام بذلك - فيما سبق - قبيلتا "غوازي" و"جاهام"، حتى إن اثنتين من أسماء قرى "الكفرة" هما عبارة عن اسمين لعائلتين من قبيلة جاهام، وهما: "طولاب"، و"زوروق".

أعطيت كل فردٍ من زواري صورة للمجموعة كنت قد التقطتها لهم منذ عدة أيام مضت، وكانوا سعداء بها.

أدركت فى نهاية هذا اليوم مخاطر "الكفرة"؛ فقد كاد رولفس أن يفقد حياته هنا بسبب قلة الطعام، بينما أكاد أن أفقد حياتى بسبب الكرم، فقد تغديت بإفراط - كالمعتاد - عند سيد العبيد، وتلا الطعام شرب القهوة، ثم ثلاثة أكواب من الشاى، المعطر بالعنبر وماء الورد والنعناع، وبعد ذلك ثلاثة أكواب من الحليب الممزوج بعجينة اللوز، ثم أصر شاروفا على أننى يجب أن أذهب إلى داره، وقدم لى ثلاثة أكواب أخرى من الشاى المعطر، تبعها مرة أخرى بثلاثة أكواب من اللبن الممزوج بعجينة اللوز، وكنت أعلم جيداً أن الرفض يعنى الإهانة، لذا ابتلعت المشروب الذى أصبح الآن يدفعنى للغثيان، إلا أن النهاية لم تأت بعد، فقد اصطحبنى بعد ذلك شمس الدين إلى داره ووضع أمامى بسكويماً وبندقاً وكأساً ضخمة مليئة بعصير الفاكهة، أصبح الأمر أصعب من أن يتحملة بشر من لحم ودم، ولكن الرفض يعنى الإهانة، ثم تلاها ثلاثة أكواب من القهوة وتناولتها وأنا مثل رجل ذاهب إلى حبل المشنقة.

وبينما كنت ممدداً فى حجرتى لأتعافى، طاف بخدى العديد من الأفكار، لعل من أطرفها أننى تمنيت لو مات قبل أن يولد ذلك البدوى - أيّاً كان - الذى اختار رقم ثلاثة كرقم سرى يميز الضيافة فى الصحراء، ولعله من حسن الحظ أنه لم يختار رقم سبعة عوضاً عن ثلاثة. فقد جئت إلى الصحراء مستعداً تماماً للهلاك بواسطة قسوة الطبيعة، أو الرجال المعادين، ولكن فكرة الهلاك من خلال عسر الهضم لم تخطر على بالى مطلقاً.

ورغم هذا ذهبت فى الموعد المحدد إلى دار سيد العبيد من أجل العشاء، وكان بعض زعماء البدو رفقائى فى الاستضافة، ومرة

أخرى ناقشنا أمر الرحلة صوب الجنوب، وأصر بوحليجا على رفضه الذهاب عبر طريق "العوينات".

وقال إن الشروط التي وضعها السيد إدريس، تتعلق برحلة إلى "الواداي" وليس "دارفور"، وما كان ليرسل رجاله أو إبله إلى هذا الطريق. وجادلته قائلاً إنه طالما تعاقد على تزويدنا بخمس وثلاثين (مراحل) - أو يوم سفر من الكفرة صوب الجنوب - فإنه يجب ألا يكون هناك فرق سواء استخدمت هذه (المراحل) في الذهاب إلى "الواداي" أو إلى "الفاشر" أو حتى العودة إلى مصر، لم يقنعه هذا التفكير، ولكن عندما لاحظ أنني مصمم، وأن سيد العبيد لا يعارض خطتي، وأنني مستعد لأصطحب إبل أقل مما يتطلبه الأمر في العادة، وافق كارهاً بشرط ألا يذهب هو أو يرسل أحداً من رجاله.

الأحد ٨ أبريل: وصل أمر حسان بوحليجا إلى نهايته، فقد اشترите بثلاثة وثلاثين جنيهاً، كان قوياً وقادراً على السفر بصورة عظيمة، ولا يحتاج للشرب سوى كل يومين.

بعد الغداء التقطت صورة لسيد العبيد، وتحدثت معه طويلاً عن مرضه، وكيف أنه يتحمله بجلد حقيقي، وعن الوضع الراهن في برقة ومصر، وخططي للسفر إلى السودان.

صادف سوء الحظ أعمالى العلمية في "الكفرة"؛ فلم يكن من السهل على الفرار من المراقبة، أو التحرك بمفردي، أو استخدام أدوات العلمية دون إثارة الريبة، وكان من أسوأ الأمور أن ظلت السماء ملبدة بالغيوم منذ أن وصلت إلى هناك، وكنت غير قادر على أن أرصد الشمس أو النجم القطبي باستخدام الثيودوليت.

بعد العشاء أصبحت متعبًا للغاية؛ فقد استنفدت كل حبوب عسر الهضم التي أحضرتها معي، وكنت أشعر أنه قد يكون من المريح أن أعود مرة أخرى إلى بساطة الصحراء.

الاثنين ٩ أبريل: ظل الجو مليدًا بالغيوم، وهبت بعض النسمات الباردة. أمضيت يومًا هادئًا، أقرأ داخل مكتبة السيد إدريس، وأحمض بعض الأفلام، وأشتري قربًا وشعيرًا للرحلة، كما أعطاني سيد العبيد نسخًا كتبها بخط يديه من خطابات السيد المهدي للإخوان، وأهداني إحدى سكاكين البربر في جراب من الفضة ومسدسًا ذا زناد مكفّف بشغل نحاسي جميل.

الثلاثاء ١٠ أبريل: انقشعت السحب بعد ظهر هذا اليوم، والتقطت بعض الصور للوادي، ورتبت مع صانع أحذية ليصنع أحذية لي ولرجالي، وأن يزودنا بأحزمة عريضة للكتف من تلك التي يوضع بها الرصاص، والتي أصر الرجال على الحصول عليها بعد الإشاعات المحذرة التي سمعوها.

قابلت محمد سكر للمرة الأولى، والذي من المفترض أن يكون دليلنا على طريق "العوينات"، وقد راقني كثيرًا.

الأربعاء ١١ أبريل: سمع سيد العبيد عن شرائي لحصان بوحليجا، فأرسل لي سيفًا من سيوف الطوارق وبندقية إيطالية قصيرة من ماركة "كاربين" لكي أحملهما عندما أمتطيه.

وأخيرًا أصبحت قادرًا على أن أجمع ملاحظاتي باستخدام ثيودوليتي، وكنت تواقًا لمعرفة هل سوف تتفق نتائجي مع نتائج رولفس أو لا؟

الخميس ١٢ أبريل: أرسلت إحدى بنادقي هدية إلى سيد العبيد. وتوجهت بعد الظهر مع السيد محمد بوتمانيا وزروالى إلى "جوف"، وهناك قابلنا زعيم القرية، وزرت السوق الذى يعقد أسبوعياً هناك، والزاوية التى تعد أقدم مدرسة سنوسية فى "الكفرة"، والمسجد الموجود بها.

و"جوف" هى المركز التجارى "للكفرة"، وكان من المثير أن أجد فى سوقها خراطيش البنادق التى يعود تاريخ صنعها إلى ثلاثين عاماً مضت جنباً إلى جنب مع علب الصلصة الإيطالية القادمة من "بنغازى"، والقماش القطنى الأزرق والأبيض المصنوع فى "مانشستر" والمستورد من "مصر"، والجلد والعاج وريش النعام القادم من "الوادى"، إلا أن منتجات الجنوب بصفة عامة ليست كثيرة فى "الكفرة" فى الوقت الحالى، باستثناء تلك التى يجلبها التجار الذين حال أمر ما دون أن يستكملوا رحلتهم إلى الشمال فيضطروا أن يبيعوا ما أحضروه فى "برقة" أو "مصر".

وقد شهدت "الكفرة" أفضل أيامها بوصفها مركزاً تجارياً قبل احتلال السودان؛ ففي هذا الوقت كان من الأسهل تدفق منتجات "الوادى" و"دارفور" عبر "الكفرة" مقارنةً بالطريق الذى يوجد فى الشرق، وحتى الآن لا تزال بعض السلع تهرب عبر "الكفرة"، كالعاج الذى تحرم الحكومة السودانية تجارته.

بالإضافة إلى التجارة التى تمر عبر "الكفرة"، فإن معظم زعماء الزوى الكبار الذين لديهم ما يكفى من العبيد يمارسون الزراعة؛ حيث يزرعون الشعير والذرة، ويعد السنوسية أكثر تقدماً منهم؛ لأنهم

يزرعون البطيخ، والعنب، والموز، والكوسة، والخضراوات الأخرى الشهية، التي يعد تناولها رفاهية كبيرة بعد رتابة الترحال فى الصحراء، كما يزرعون النعناع والورد، ويصنعان منهما ماء السورد وروح النعناع اللذين يعدان عنصرين أساسيين فى مراسم الضيافة فى الصحراء، ومن أشجار الزيتون القليلة ينتج زيت الزيتون فى معاصر بدائية، وتقتصر الحيوانات فى "الكفرة" على الإبل، والغنم، والحمير، وبعض الخيل، ويعد اللحم باهظ الثمن نظراً لوجود مساحات محدودة للرعى فى هذه المنطقة. وتعلف الحيوانات على نوى التمر المطحون، الذى يعد غذاء رئيسياً جيداً، إلا أن الأعشاب الخضراء قد تعد ضرورة فى بعض الأحيان. والسوسية الذين يعدون أكثر تطوراً من جيرانهم فى كل شىء يربون الدجاج والحمائم.

* * *

وعندما كنت فى "الكفرة" علمت أن أسعار العبيد قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً فى السنوات الأخيرة؛ لأنه لم يعد هناك عبيد جديدة تأتى من "الوادى"، نتيجة ليقظة السلطات الفرنسية فى هذه المقاطعة. ويتحایل البدو أحياناً على هذا الأمر من خلال إبرام عقود زواج على الإماء فى "الوادى"، وعندما يعودون يطلقونهن ثم يبيعهن. وفى إحدى رحلاتى عام ١٩١٦ عُرض على إحدى الإماء مقابل ستة جنيهات ذهب أو ما يعادل (١٢٠ فرنك)، أما الآن فالسعر يتراوح بين ثلاثين وأربعين جنيهًا، وبصفة عامة يعد سعر الإماء أرخص من العبيد، وقد يتزوج البدو من إماءهم فى بعض الأحيان، وإذا ما أنجبت الأمة طفلاً ذكراً فإنها تصبح حرة على نحو تلقائى. ولا يوجد لدى

البدو أى تحامل تجاه اللون؛ لأنه إذا ما ولدت إحدى الإماء طفلاً من شيخ القبيلة، وكان هذا الطفل أكبر أبنائه الذكور، فإنه سيصبح عندما يشب - بحكم واقع الأمور - رأس القبيلة، مهما كان سواده، فى حين يظل أبناء العبيد عبيدًا، كما يصبح طفل الأمة والرجل الحر حرًا مهما كان فقيرًا، حتى وإن مات والده وأصبح يتيمًا، فإنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يصبح عبدًا. واقتناء العديد من العبيد يعد من الأمور المفضلة لدى البدو، وقد يصبحون ذوى قوة ونفوذًا أكبر من الرجال الأحرار استنادًا إلى ثقل أسيادهم. وهم يعاملون جيدًا ويصبحون أعضاء فى الأسرة، ويرتدون ثيابًا جيدة؛ لأن ثياب العبد الرديئة تنعكس بصورة سيئة على سيده؛ تمامًا مثلما تنتقص ملابس الخادم الرثة من تألق الرولزرويس الخاصة بالمليونيرات.

والعبد الأثير للسيد إدريس - على كاجا - لا يعد أكثر الرجال الذين يثق بهم فحسب، بل لديه أيضًا قوة وسلطة بين البدو أنفسهم أكثر من العديد من الرجال الأحرار؛ فهذا العبد يعامل كمؤتمن؛ فإذا ما حضر إلى عبد السيد عبيد ومعه رسالة، فإنى ألتقاها على اعتبار أنها حقيقة مطلقة، عالمًا أنه من واجبه أن يتلو بالضبط ما قيل له. وبالطريقة نفسها، فإذا ما رغبت فى أن يصل شىء ما إلى أذن سيد العبيد، وتحديدًا إلى أذنه فقط؛ فأنا أعلم أننى أستطيع أن أقوله لعبده دون لحظة تردد واحدة، وأثق تمامًا أن الأمر لن يذهب إلى أى مكان آخر، ويسمح للعبد بشراء أمة لنفسه ليتزوجها.

وذات مرة سألت على كاجا عن أسعار العبيد فتذمر قائلاً " لقد أصبحوا باهظى الثمن هذه الأيام؛ فمذ أيام اشتريت أحدهم وكلفتنى

٤٠ جنيهاً بالعملات الذهبية الإنجليزية"، قالها بنغمة كما لو لم يكن هو نفسه عبداً.

وأضاف قائلاً إن العبد رث الملابس الذى تراه الواحة غالباً ما يكون عبداً قد أعتق، ويُنظر إليه بفضول بالغ من قبل العبيد الآخرين، بينما يشعر هو فى قرارة نفسه بالعار؛ لأنه أعتق ولم يعد ملكاً لأحد.

* * *

هناك العديد من أشجار النخيل التى تنتشر فى وادى "الكفرة"، والعديد منها تخص السنوسية؛ فعندما دعا الزوى السيد بن السنوسى ليأتى إلى "الكفرة"، منح كل فرد منهم السنوسى ثلث ممتلكاته من الأرض والنخيل، ومن ثم أصبحت نسبة امتلاك النخيل بين السنوسية والزوى هى واحد إلى اثنين على الترتيب، واعتباراً من هذا الوقت أصبح ينظر بإجلال إلى الزوى، كما قام السكان القاطنون فى الوادى بزراعة أشجار جديدة مما زاد من حيازتهم، ولا يزال المرء يستطيع رؤية تلك الجدران التى تفصل بين أرض السنوسى وتلك الخاصة بالزوى.

* * *

فى طريق عودتنا من "الجوف" مررنا بحفل زفاف؛ فقد كان الضابط قائد الفرقة العسكرية فى "الكفرة" يتزوج، ودعانى والد العروس لأن أفرغ بندقيتى على شرف هذه المناسبة، وكنت سعيداً بأن أجامل هذا الضابط الذى كان صديقاً قديماً لى، وبينما كانوا يطلقون بنادقهم للتحية، عدوت بحصانى إلى الحفل - وفق الطريقة

البدوية الأصيلة - وكبحت جماحه فجأة أمام العروس، وأطلقت بندقيتي صوب الأرض أمامها، وكان ما يدعو للدهشة هو كيف استطاع "بركة" - الحصان - في اللحظة التي سمع فيها صوت البنادق أن يعدو ويحضر بي في سرعة بالغة عند الموضع الملائم لإطلاق النار، فقد كان ذلك جزءًا من تدريبه.

الجمعة ١٣ أبريل: حضر إلى أحد عبيد السيد إدريس يشكو من مرض يعانى منه منذ شهرين، بدا كما لو كان عسر هضم يصاحبه قىء مستمر، أعطيته أثيرًا ممزوجًا بالسكر واللبن والأرز كدواء، وفى المساء أصبحت حالته أفضل.

وصل بوحليجا من "الهوارى" ومعه سبعة عشر جملاً وناقاة، وطلبت منه أن يكملها خمسة وعشرين كما اتفقنا من قبل.

زارنى العريس وحماء ليشكرانى على المجاملة التى قمتُ بها فى موكب الزفاف.

السبت ١٤ أبريل: أحضر بوحليجا باقى الإبل، وكان يعانى من مأزق إرسال أحد معنا؛ فلم يكن يبغى إرسال ابنه أو حتى أحد عبيده فى هذه الرحلة الخطرة، التى قد لا يخرج منها أحد على قيد الحياة، بينما فى المقابل كان هناك احتمال بعيد أن يكون القدر رحيمًا بنا ويدعنا ننجو، وفى هذه الحالة - رغم أنها قد تكون بعيدة الاحتمال بالنسبة إليه - فإذا لم يكن هناك من يمثله معنا، فكيف له أن يستعيد إبله أو على الأصح قيمتها؟ لأنه من الطبيعى أن يبيعها فى نهاية الرحلة.

قضينا فترة بعد الظهر في حزم الأمتعة، بينما أمضيت المساء في جمع الملاحظات العلمية، أصبح الطقس أكثر روعة، وكانت تلك هي الليلة الثالثة التي استطعت فيها رؤية النجم القطبي منذ أن وصلنا إلى هذه البقعة، وكنت قد عازمت ألا أترك "الكفرة" قبل أن أتمكن من رصده على الأقل في ليلتين مختلفتين.

الأحد ١٥ أبريل: أنفقنا الصباح في تحميل الإبل، وكان بوحليجا لا يزال يواجه مأزق إرسال رجل معنا، لكن طالما حصلت على الإبل فكان سيان عندي ما سوف يقرره.

كان العبد الذي كنت أعالجه مندهشاً من تحسن صحته، وجاء لي شكرني، ولم يكن أحد أكثر اندهاشاً مني بما استطعت فعله.

في الثانية بعد الظهر تحركت القافلة صوب "عزيلا"، وهي آخر آبار وادي "الكفرة" في الجنوب، وكنا سنتوجه هناك "للتجهيز"، والذي تطلب بضعة أيام لاستكمال استعدادنا النهائي، كما اشتريت خروفين من أجل "بوزافار"؛ حيث لم يكن أحد منا قد قطع هذه الرحلة من قبل. كان كل رجال يرتدون ملابس جديدة، ويبدون في مظهر مبهج في ملابسهم البيضاء النظيفة وأحذيتهم الحمراء، وقد نظفوا بنساقهم بعناية، وكانت تتألق وهي معلقة خلف ظهورهم، كما بدت معظم الإبل الجديدة نشيطة وقوية.

الاثنين ١٦ أبريل: أخذ عبدالله الحصان إلى "التاج" لتركيب حداو له؛ لأنني وجدت أن الأرض الصخرية كانت قاسية عليه، كما أرسلت صينية نحاسية إلى القائد كهدية زفاف، وأرسلت آخر ثلاث زجاجات من البوفريل إلى عبد السيد إدريس المريض.

تأخر رحيلنا؛ لأن دليلنا كان لا يزال مشغولاً مع القاضي حول بعض الأمور القانونية المتعلقة بالإبل.

الثلاثاء ١٧ أبريل: تناولت الإفطار في "الجوف" عند سليمان بوماتاري مع زروالي، وعبد الله، والقائد، وصلاح، ومحمد بوتامنيا، وقد ظل الجميع يداعبون القائد؛ لكونه عريساً جديداً، ورفض أن يشاركهم تناول الأطباق المطهية بالبصل، ووجدت بوتامنيا يقول له وهو يغمز بعينه "إنهن لا يسامحن عندما يكن صغاراً".

اشتريت أحد الهجن أو إبل الحذور لاستخدامي الشخصي، ودفعت تسعة جنيهات ثمناً له، وفي النهاية أصبحنا مستعدين لنبدأ في اليوم التالي.

وبينما كنت أجمع آخر ملاحظاتي عن النجم القطبي، أصبح لدى أمل قوى بأنني سوف أنجح في وضع "الكفرة" في موضعها الصحيح على الخريطة. وكنت شغوفاً بالتحقق مما حدده رولفس عن موضع "الكفرة"، والتي قام بها اعتماداً على ملاحظات رفيقه ستير في "بوما"؛ "فالتاج" لم تكن قد بنيت في زمن رولفس.

إلا أنه عندما جمعت ملاحظاتي الأولى عن "التاج" اكتشفت أنها لا تتفق مع نتائج ستير في "بوما"، والتي تبعد نحو كيلومترين عن التاج بدرجة ٥٤ درجة صوب الشرق من الشمال الحقيقي؛^(٣٥) لذا

(٣٥) يفرق الجغرافيون بين نوعين من اتجاه الشمال هما: الشمال الحقيقي "الجغرافي"، والشمال المغناطيسي. واتجاه الشمال الحقيقي ثابت لا يتغير، بينما الشمال المغناطيسي - الذي تستخدم البوصلة لتحديد - يتغير من منطقة إلى أخرى نتيجة لما يعرف بالانحراف المغناطيسي للمنطقة، وعند معرفة قيمة هذا الانحراف يُعاد تصحيح قراءة البوصلة لتتوافق نتائجها مع الشمال الحقيقي. "المترجمان"

عزمت على ألا أترك "الكفرة" حتى أرصد عددًا كافيًا من الرصدات الآمنة تكفى لتلافى حدوث أى خطأ محتمل؛ فقد رصدت النجم القطبى بواسطة الثيودوليت على مدار ست ليالٍ مختلفة، وفق الضوابط التى ذكرها دكتور بول فى ورقته العلمية المستخلصة من نتائج الرحلة، والتى بيّن فيها أن مدى الخطأ المحتمل لا يزيد عن دقيقة واحدة فى خطوط الطول أو العرض.

ووفقًا لنتائج ملاحظاتي، عندما تم استخلاصها بعد عودتي إلى القاهرة، وجدت أن "الكفرة" تقع على بعد نحو ٤٠ كيلومترًا جنوب الجنوب الشرقى من الموضع الذى حدده رولفس طبقًا لملاحظات ستيكر، كما وجدت أن منسوب "الكفرة" يكاد أن يكون على الارتفاع نفسه الذى سجله رولفس، البالغ ٤٠٠ متر "لبوما" عند منسوب أرض الوادى، ونحو ٤٧٥ مترًا "للتاج" عند حواف الوادى.

الفصل الخامس عشر

وَاحِدَةُ أَرْكِينُو الْمَفْقُودَةِ

«الأربعاء ١٨ أبريل: أخيراً عثر بوحليجا على رجلين وافقا على أن يذهبا مع إبله هما: بوكارا وحميد، كانا فقيرين، وبدا في عينيهما أن المال الذي سيجنياه أكبر من الخطر المنتظر».

أرسل سيد العبيد ثلاثة أفراد نيابةً عنه ليودعونا، وأحضروا منه خطاب وداع مسّ قلبي. كما جاء بوحليجا ليسلم علينا، وفي اللحظة الأخيرة كانت هناك دموع في عينيهِ، ولا أحسب أن سببها الخوف على إبله أو الرجال الذين أرسلهم معنا، فعلى الرغم من خلافنا حول الطريق، فقد ظللنا صديقين حقيقيين، كان بيننا ود واحترام متبادل.

أما رجالى فقد ودعهم أصدقائهم، كما لو كان ذلك هو آخر لقاء لهم. كان هذا الوداع هو أكثر الوداعات المؤثرة طوال هذه الرحلة. "ربنا يخلى السلامة ترافقكم...الى مكتوب مكتوب وهو الذى هيصل. ربنا يرشدكم للطريق الصحيح، ويحميكم من الأشرار". كان هناك قليل من ذلك اليقين بسلامة الوصول الذى يملك أولئك الذين يذهبون وأولئك الذين يبقون عندما يكون الفراق لقضاء عطلة.

كانت هناك بعض الرعدة فى جُمْل الوداع الأخيرة؛ فالكُل يعلم ما قد مر فى الأيام الماضية والخوف الذى تعرض لهُ الرجال.

وكنـت أستطيع أن أـخمن ما يجول بعقولهم؛ فبينما كنت مستثـاراً بأفكار الواحات المفقودة، والسير فى طرق غير معروفة، والذهاب إلى المجهول، كانوا يفكرون أن هذه المرة قد تكون الأخيرة التى يصافحون فيها أصدقاءهم، حتى إنه كانت هناك نظرة شفقة تعتلى وجوه بعض أولئك الذين جاءوا ليوـدعونا ويدعوا لنا برحلة موفقة، كما لو كان دعاءهم لرجال هالكين، ورغم هذا - فلأنهم بدو - فقد كانوا يشعرون أيضاً بأن ذلك مكتوب.

قرأنا الفاتحة - السورة الأولى فى القرآن الكريم - وختمناها بكلمة آمين، ثم تلا ذلك النداء لإقامة الصلاة...

كنا عند حدود وادى "الكفرة"؛ حيث تنتهى الواحة وتمتد الصحراء أمامنا، وتبادلنا الوداع عند هذا الموضع، وبينما كنا نعبـر الوادى إلى الصحراء المنبسطة، نظرنا خلفنا صوب أشجار النخيل، كانت الشمس وقت الغروب وبدأ الليل يرخى سدوله، وصارت "الكفرة" ذاتها فى الضوء المتضائل تومض كما لو كنت تنظر إليها من ثقب كاميرا. ورجع أولئك الذين جاءوا لوداعنا، ولم يعودوا ينظرون خلفهم أكثر من هذا، بينما انطلقنا نحن صوب المجهول.

كنت مثلهـفاً على الرحيل من "الكفرة" حتى أجعل رجالى يحولون ذهنهم صوب المهمة التى تواجههم.

أخيراً قمنا بالبداية الحقيقية؛ فكل شىء أمامى مجهول، ملىء بالغموض والسحر الكامن فى تلك المناطق من سطح الأرض، تلك التى لم يطرـقها أى إنسان من العالم الخارجى.

بدأنا فى الرابعة والنصف ظهراً، وتوقفنا فى الثامنة والرّبع مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة خمسة عشر كيلومتراً، كان الجو صحواً وصافياً، يخلو من الرياح. سرنا فوق رمال قاسية يكسوها حصى دقيق للغاية، ذات تموج طفيف، وبعد أن تركنا نخيل "عزيلة" و"الكفرة"، عبرنا نطاقاً من الحطب يشبه ذلك الذى فى "زيغن"، وفى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة دخلنا السريرة، وفى السادسة والنصف مساءً مررنا بتل صغير يشكل الحد الجنوبى لوادى "الكفرة"، وفى الثامنة والرّبع وصلنا إلى "حطية الحوش"، التى يميزها الحطب الجاف، الذى لا بد من أنه كان أخضر فى يومٍ من الأيام. تركنا رجلين خلفنا ليجلبا حملين من هذا الحطب سوف يحملانه على إبل التبو.

أصبحت قافلتنا الآن تتألف من سبعة وعشرين جملًا وناقة وتسعة عشر فردًا هم: أنا، وزروالى، وعبد الله، وأحمد، وحماد، وإسماعيل، وسنوسى بوحسان، وسنوسى بوجابر، وحامد الزوى، وسعد العجيل، وفراج "العبد"، وبوكارا، وأخوه الصغير حميد، والجمال، وحسان، ومحمد دليلنا، وثلاثة من أفراد التبو.

مداخلة من مذكراتى:

الخميس ١٩ أبريل: بدأنا فى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ظهراً، وتوقفنا فى السابعة والرّبع مساءً، قطعنا نحو أربعة وعشرين كيلومتراً، بلغت درجة الحرارة القصوى نحو ٣٢ درجة مئوية، ودرجة الحرارة الصغرى ١١ درجة مئوية، كان الجو صحواً وصافياً، مع بعض السحب البيضاء. هبّت نسيمات من الجنوب

الشرقى توقفت عند الظهر، بعد أن تركنا "حطية الحوش" دخلنا إلى السريرة مرة أخرى، وكانت عبارة عن امتداد مسطح من الرمال القاسية يغطيها الحصى الدقيق، وكانت تمتد شرق الحطية سلسلة من الروابي الرملية تكسوها أحجار بنية داكنة، وإلى الغرب منها توجد سلسلة أخرى مشابهة تبعد نحو أربعة كيلومترات.

فى الثانية والرّبع ظهرًا مررنا بنهاية "حطية الحوش"، وكان اتساع الحطية نحو كيلومترين، وفى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة شاهدنا "جّارة" على يسارنا تبعد نحو كيلومترين، وفى الخامسة مررنا بجّارة أخرى تبعد نحو أربعة كيلومترات عن يميننا، وفى السادسة والنصف أصبحت الرمال أنعم، مع وجود رقع من الأحجار الحمراء والسوداء، وأصبح السطح متموجًا.

تأخرنا فى البداية؛ فقد انتظرنا الجمالين اللذين تركناهما خلفنا، واستثمرنا ذلك الوقت فى جمع الحطب، كان الجو حارًا للغاية، وسريعًا ما شعرت الإبل بالتعب بسبب الحرارة. كانت المنطقة التى نعبّرها تشبه تلك التى توجد بين "بوظفل" و"زيغن"، وبمعاونته هجينى الجديد أصبح من السهل علىّ أن أتقهقر خلف القافلة لأجمع الملاحظات دون أن أثير الشبهات، وكان علينا أن نخيم مبكرًا بسبب حالة الإبل.

الجمعة ٢٠ أبريل: بدأنا فى الثانية صباحًا، وتوقفنا فى التاسعة والنصف صباحًا، وعدنا للسير مرة أخرى فى الثالثة والنصف بعد الظهر، وتوقفنا نهائيًا فى الثامنة مساءً، قطعنا ثمانية وأربعين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بينما

بلغت درجة الحرارة الصغرى ١٠ درجات مئوية، والتي قيست بعد منتصف الليل بنصف ساعة، كان الجو صحواً وصافياً، مع وجود رياح جنوبية شرقية باردة فى الصباح الباكر، توقفت ظهراً، ثم عادت للهبوب من جديد فى الرابعة بعد الظهر، وفى المساء تغير اتجاهها إلى الشمال الشرقى.

فى الرابعة صباحاً اجتزنا منطقة متموجة تنتشر بها الأحجار، وفى السادسة دخلنا السريرة المسطحة مرة أخرى، وفى الخامسة وخمسين دقيقة أشرقت الشمس. وحينئذ كانت تمتد على يميننا ويسارنا تلال رملية منخفضة على بعد يتراوح بين ٨ و ١٠ كيلومترات، وفى الصباح شاهدنا أحد طيور السنونو،^(٣٦) وبعد الظهر شاهدنا أحد الصقور، وفى الرابعة وعشرين دقيقة عبرنا كثباناً رملية منخفضة، وشاهدنا جارة سوداء عبارة عن رابية طويلة منخفضة تقع فى اتجاه ١٠ درجات جنوب الجنوب الشرقى.

كان هذا أسوأ أجزاء الرحلة فى السفر - حتى الآن - إذا ما وضع فى الاعتبار ظروف درجة الحرارة؛ ففي منتصف اليوم كان السير صعباً جداً؛ لأن الجو كان حاراً للغاية، وفى المساء كان الجو شديد البرودة؛ لذا كنا نبدأ سير بعد منتصف الليل ونستريح خلال حرارة النهار. وكنا نعانى مشاكل مع الأمتعة بسبب صعوبة الحزم الجيد والتحميل فى الظلام. ومع ذلك فقد سافرت الإبل بشكل أفضل فى هذه الأيام.

(٣٦) يسمى أيضاً "بالخطاف"، وهو طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. "المترجمان"

كان هذا هو اليوم الرابع من الشهر القمري، والبدو يراقبون حالة الطقس في هذا اليوم، لاعتقادهم أن طقس باقى الشهر سوف يكون مشابهاً لهذا اليوم، وقد أثبت هذا الأمر صحته خلال هذه الفترة.

السبت ٢١ أبريل: بدأنا فى الثانية والنصف صباحاً، وفى السادسة صباحاً مررنا بمنطقة صخرية وتلالية استمرت لنحو ١٢ كيلومتراً، ثم مررنا على يسارنا بجاره تسمى " جارة كودى"، وفى التاسعة صباحاً دخلنا مرة أخرى إلى السريرة، مع وجود كثبان رملية بعيدة من اليمين واليسار.

بعد أن بدأنا بقليل سقط أحد الإبل مريضاً، ورفض أن يقوم حتى بعد أن وضعت عنه كل حمولته؛ لذا تركنا بدويين خلفنا ليستدמיانه ولكن جهودهما لرعايته ضاعت سدى، وكان يجب أن يُذبح، وقد حرمت على البدو أكل لحمه، ولكن بعد ذلك، عند توقف الظهيرة قام اثنان من التبو بإلقاء حمولة جمليهما، وعادا ليحففا لحمه ويتركاه لحين عودتهما من "العروانات"، على أن يلحقا بنا بعد ذلك، وقد أخرجنا هذا الأمر نحو الساعة.

فى الليلة السابقة نام الرجال قليلاً، وكانوا متعبين للغاية بعد شروق الشمس، خاصة من تأثير الحرارة الشديدة التى أجهدت كل من الرجال والإبل؛ لذا توقفنا من الظهر حتى الساعة الرابعة، حيث كانت قافلة مجهدة للغاية تلك التى بدأت مرة أخرى فى الرابعة والنصف، وتحركت ببطء للأمام.

وعلى الرمال رأيت صقرين وعُشاً حديثاً للطيور.

الأحد ٢٢ أبريل: سافرنا فوق رمال خشنة منبسطة، كما كانت توجد بها بعض الروابي الرملية، التي يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وعشرة أمتار، وكانت تكسوها صخور سوداء. وفي الخامسة والنصف صباحًا رأينا سلسلة من التلال على يسارنا تمتد من الشمال إلى الجنوب الغربي، وفي الثامنة صباحًا دخلنا منطقة تلال وعرة، استمرت طوال اليوم، كانت تسمى "وادي الماراهيج"، كما عثرنا في طريقنا على بيض نعام محطم.

كان تحميلنا أفضل هذا اليوم، إلا أن الرجال كانوا متعبين، وسقط الكثير منهم محاولاً اقتناص نصف ساعة من النوم، ثم لحقوا بالقافلة عندما استيقظوا.

أحضر لي بوكارا نسرين صغيرين جلبهما من عشهما الذي كان فوق قمة إحدى الجارات، وأمرته أن يعيدهما، وتابعته حتى فعل ذلك. مرض هجيني، وأصبح لزاماً أن يسير بعد الظهر دون حمل أو حتى سرج.

في أثناء توقف الظهيرة، سقط الرجال نياماً على الفور وتصاعد غطيظهم بقوة؛ فهذا النمط من الترحال عمل قاس وممل، لكننا اعتدنا عليه.

الاثنين ٢٣ أبريل: بدأنا في الثانية والنصف صباحًا، وتوقفنا في التاسعة والرابع صباحًا، وعدنا للسير مرة ثانية في الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا في التاسعة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة ستة وأربعين كيلومتراً.

كانت تلك أكثر مراحل الرحلة إجهادًا، من بين كل ما قطعناه حتى الآن؛ فلمدة ثمانية أيام لم يُتَح لنا سوى أربع ساعات للنوم كل يوم، كما كنا نبدأ بالكاد قبل الرجال الذين كانوا يقتطعون نصف ساعة من النوم، تاركين الإبل تتبع الوهج الشاحب لمصباح الدليل، ولم أستطع السماح لنفسي بهذا الامتياز بسبب قلقى على معدائى العلمية؛ فالتحميل الذى يتم فى الظلام غير آمن، وانزلاق الأربطة قد يعنى تحطيم المعدات أو الكاميرات.

وفى هذه الأثناء كان يتوقف جمل أو اثنان ويبرك ويأبى النهوض، وعندها يأتى أحد التبو ويضغط بإبهامه على أحد الأوردة الكبيرة فى جبهة الجمل فيعالجه، ويبدو أن هذا الأمر يريح الدابة.

أمضينا وقتًا عصيبًا فى عبور الكثبان الرملية العالية شديدة الانحدار، عندما برز فجأة أمامنا جبل مثل قلعة "ميدفيل" المختفى نصفها فى الضباب، وبعد بضع دقائق، بزغت الشمس فوقه لتحيل ذلك اللون الرمادى البارد إلى الوردى والقرنفلى الدافئ.

تركتُ القافلة تمضى، وجلستُ لمدة نصف ساعة فوق الكثبان الرملية، وسمحت لمشهد هذا الجبل الأسطورى أن يفعل ما يشاء بعقلى وقلبى؛ فقد وجدت ما أتيت للبحث عنه، تلك هى جبال أركينو.

كانت لحظة بارزة طول الرحلة، فأى مصاعب تحملتها، وأى مصاعب مازالت تنتظرني كانت لا تعنى شيئًا عند مقارنتها بالبهجة التى تعترينى الآن أمام مرأى هذه التلال، لم يكن الأمر أشبه بالذهاب للبحث عن كنز مخفى يجب أن تحفر لتستخرجه من الأرض، فقد كان

يقف هناك منتصبًا عاليًا أمامي؛ لذا كنت أمتع عيني برؤيته، حتى إنني حاولت استعادة لحظة اكتشافه، كنا نتهاذى أعلى وأسفل، ونحن نعبر الكثبان الرملية في الساعات الرمادية الباردة التي تسبق الفجر، وفجأة عند الكثيب الأخير بدا الأمر كأن أحدهم يسحب ستارة عن هذه التلال السحرية، التي لم أرَ شبيهًا لها في الصحراء الليبية كلها، منذ أن تركت "السلوم" حتى وصلت إلى هذه البقعة، لم يكن هناك شيء يشبه جبال "أركينو"، تملكنتي رؤيته حتى شعرت لبرهة أنني لم أعد في الصحراء بعد الآن.

الثلاثاء ٢٤ أبريل: كان قد مرَّ ١١١ يومًا على مغادرتي "السلوم"، ونحو ١٤٠ يومًا على مغادرتي "القاهرة".

اجتزنا منطقة وعرة، رمالها تكسوها الصخور، وأرضها متموجة. وفي الخامسة صباحًا دخلنا منطقة كثبان رملية كثيفة، وبعد هذه الكثبان عادت الأرض صخرية من جديد، ثم بعد ذلك أصبحت رمالًا قاسية يكسوها الحصى. كان هناك تل كبير من الأحجار الرملية يبلغ طوله ٢ كيلومتر تقريبًا، وارتفاعه مائة متر أو نحو ذلك تقريبًا إلى الشمال من جبل "أركينو"، وعلى بعد مائة متر فقط منه.

كان هناك شروق رائع للشمس، بظلالها الحمراء والذهبية التي تخترق السحب الرمادية، وسرعان ما توقفت الرياح الباردة، وأصبح الجو حارًا وخانقًا.

وجبل "أركينو" عبارة عن كتلة من الجرانيت، تجوى^(٣٧) سطحها الرمادى، وتحول إلى اللون البنى الضارب إلى الحمرة، وهو يرتفع فى اتساق لنحو ٥٠٠ متر من سطح الصحراء، ويتألف من سلسلة من الكتل المخروطية، التى تمتد معاً دون أى فاصل بينها. اقتربنا منه عند أقصى نقاطه الغربية، وعندما وصلنا صوبه، لم نستطع أن نقرر إلى أى مدى يمتد صوب الشرق، فعند أبعد نقطة شرقاً استطعنا رؤيتها فى هذا الاتجاه ارتفع ليصبح قمة جبلية واختفت معالمه فى الأفق، سرنا حول الركن الشمالى الغربى لكتل الجبل، ووصلنا إلى مدخل وادٍ كان يجرى صوب الشرق، وكانت توجد شجرة وحيدة فى هذا الفضاء، يسميها القرعان^(٣٨) "أركينو"، ومنها استمدت الواحة اسمها. خيمنا بالقرب منها، وكانت تلك بقعة سيئة؛ لأن "قرادة الجمل"، التى تعيش فى ظل الشجر جاءت - حرفياً - تعدو بالعشرات عندما اقتربت إيلنا؛ لذا اضطررنا إلى أن نخيم على مسافة ما من

(٣٧) التجوية: هى ظاهرة طبيعية تحدث فى الصحراء نتيجة لزيادة مدى التغير الحرارى اليومي وتأثر الصخور بهذا الأمر؛ ففي النهار تلهب الشمس بأشعتها سطح الأرض فترتفع درجة حرارتها، بينما فى الليل تنخفض درجة الحرارة انخفاضاً كبيراً، وبالتالي تنخفض درجة حرارة هذه الصخور، ولما كانت الصخور ما هى إلا معادن تتمدد وتتكسب بالحرارة، ونظراً لأنها رديئة التوصيل للحرارة، فإن تأثير ذلك التغير الحرارى والتمدد الناجم عنه ينحصر فى مستويات الصخور العليا دون السفلى، ويترتب على ذلك ضغوط تؤدى إلى إحداث تكسر بهذه الصخور، وفى الغالب الأعم يكون موازياً لسطوحها. "المترجمان"

(٣٨) إحدى القبائل التى تسكن المنطقة، وجاءت تسمية قرعان من قرع كما ورد فى لسان العرب، وقيل إن جدهم الأقرع بن جالس الصحابي الجليل رضى الله عنه، وقد ورد اسم القرعان ضمن القبائل القحطانية العربية، ويتركز معظمهم فى تشاد حيث تعلموا من اختلاطهم بالقبائل الزنجية الموجودة هناك الرطانة بالرغم من عروبتهم، كما ينتشرون فى شمال السودان خاصة فى قرى "الطبعة" و"أوقر" و"أبوراي" و"الزغفروا" و"حلة دومي أم سيال". "المترجمان"

الشجرة، طالما أن الحشرة بدت أنها لا تبالي بالتخلي عن ظلها حتى لكي تهاجم الإبل.

وفي إحدى المرات التقطت إحدى هذا القرادات، وكانت تبدو مثل قطعة من الصخور المتحجرة. ضربتها بعصا فصدر عنها صوت يشبه صوت قطعة من الصخور. استدرت وتظاهرت بأننى مشغول عنها بشيء آخر، وتطلب الأمر ما بين ثلاث وأربع دقائق قبل أن تصدر عنها أية دلالة على الحياة؛ فالقرادة تعلم بالغريزة أن أمانها يكمن فى تظاهرها بأنها متحجرة، ثم انطلقت بلا مقدمات مثل البرق. ولا تجد هذه القرادات ما تحيا عليه عندما لا يكون هناك إبل؛ فهى تمتص دماء الإبل حتى تنتفخ، وعندها تستطيع الحياة، ويقول البدو إنها تعيش على ذلك أعوامًا، لكن بكل تأكيد تعيش بضعة أشهر.

بمجرد أن وصلنا أرسلنا الإبل إلى الوادى لتشرب وتعود بموئ المياه التى كنا فى أمس الحاجة إليها.

وبعد ساعتين من نصبنا مخيمنا وصل رجلا التبو اللذان تركناهما خلفنا، ومعهما بعض لحم الجمل المذبوح، الذى أكلوه بنهم على العشاء، بينما ظلت الرياح الحارة العاصفة تهب طوال فترة ما بعد الظهر. وبينما كنت أستريح فى خيمتى تنبّهت فجأة على شيء يداعب أذنى، حاولت أن أزيحه بعيدًا، دون محاولة اكتشاف ما هو، وفى هذه اللحظة هبّت عاصفة ريح نفخت أحد حوائط خيمتى، والذى كان مرفوعًا للتهوية، وشعرت أن شيئًا ينساب سريعًا عبر جسدى، وحاولت القبض عليه غريزيًا ولحسن الحظ أننى أخطأته، فقد كان ثعبانًا طوله نحو أربع أقدام، واستطاع رجالى الإمساك به بعد ذلك وقتله.

بعد الظهر نظم الرجال مسابقة في التصويب، وبدأ الأمر مملاً، ولكن زادت إثارته عندما رصدتُ جنيهاً تركياً "مجيدياً" كجائزة، وفاز سنوسى بوجابر في المسابقة رغم قصر نظره، وقد عبّر حميد عما يجيش في قلب باقى المتسابقين عندما قال " إنه المجيدى الذى تلاعب بعواطفى وجعلنى عصبياً، فكم أصبت العلامة من قبل".

قمتُ بجمع الملاحظات والتقطتُ بعض الصور، وبالمصادفة عالجتُ أسنان الدليل.

وفجأة ظهر من الوادى بعض القرعان، وهم قبائل السود فى الجوار، ومكثوا ليتعشوا مع رجالى، لم يكن أحد قد حلم بحضورهم حتى ظهروا، فقد بدا الجبل قفراً ومهجوراً، ولا يمكن للمرء أن يشك أن فى داخله يمتد وادٍ خصب مأهول بالسكان، وللحق فإن "أركينو" ليست مسكونة على مدار العام؛ ففي الوادى نباتات جيدة، وفى الماضى كان البدو، والتبو، والقرعان يُحضرون إليها إيلهم فى موسم الرعى، وكانوا يغلِقون مدخل الوادى بالصخور، ويتركون الإبل هناك بلا متابعة لمدة ثلاثة أشهر، وعندما يعودون لاستعادتها - كما قال محمد الدليل - فإن الدهن فوقها يصبح هكذا، وضم قبضتيه ووضعهما فوق بعض.

الأربعاء ٢٥ أبريل: أحضرت لنا عائلة القرعان التى تقطن فى هذا الوادى ضيافة تتكون من: خروف، ولبن، وسمن - وهو زبد فى صورة سائلة بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو - كما قاموا أيضاً بدفع غنمهم نحو مخيمنا حتى تحلب من أجل رجال القافلة.

بعد الغداء ركبت إلى "وادي أركينو" مع زروالى وبوكارا، وهو عبارة عن منخفض أو وادٍ ضيق متعرج، يمتد لنحو ١٥ كيلومتراً داخل الجبل، به أعشاب وشجيرات وبعض الأشجار العارضة، زرنا كوخ القرعان؛ حيث التقطت صوراً لفتاة وصبيين من أفراد الأسرة، وكان الصبيان يرتديان ثوبين أبيضين، يرمزان بأنهما من أبناء أحد الشيوخ، وعندما عدت إلى المخيم أرسلت هدية للأطفال الثلاثة، عبارة عن قماش ومناديل وأرز.

كانت ليلة مقمرة وجميلة، وقررت أن نمضى ثلاثة أيام أخرى في "أركينو"، بسبب عشب الرعى الجيد هناك، كما بدت الإبل متعبة من الرحلة القاسية التي قطعناها، وقد أصبح هجيني أفضل، والتقطت بعض الصخور من أجل العينات الجيولوجية، الأمر الذى أثار ارتياب بعض رجالى؛ فقد ظنوا أنه يوجد ذهب فى تلك الصخور التى جمعتها، وإلا لما كبدت نفسى مشقة حملها عند العودة للوطن.

الخميس ٢٦ أبريل: فى "أركينو"، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٦ درجة مئوية، ودرجة الحرارة الصغرى ٩ درجات مئوية، كان الجو صحواً وصافياً، مع هبوب رياح قوية وحارة من الجنوب الشرقى، لدرجة أنها أدت إلى انهيار الخيمة مرتين.

أرسلنا الإبل للشرب والرعى. كان يوماً يجعلك تتصبب عرقاً، فقد زادت درجة الحرارة عن ١٠٠ درجة فهرنهايت داخل الخيمة، وقلّت قليلاً عن ذلك فى الظل. وجمع الملاحظات كان عسيراً بسبب الرياح، ولم أبغ أن أحتمى خلف خيمتى بينما أتركهم للخوف الحتمى الناجم عن إثارة الفضول والريبة. فى المساء توقفت الرياح وأعاد

إلينا المساء البارد الجميل وقمره الرائع ما أنفق فى حرارة اليوم القاتظ، وكان هناك رقص وغناء من بوكارا وبعض الرجال حتى منتصف الليل.

الجمعة ٢٧ أبريل: كانت "أركينو" هى أولى الواحيتين المفقودتين اللتين أسعدنى الحظ أن أحدد موضعهما على الخريطة؛ فقد كان هناك اعتقاد قديم أن هاتين الواحيتين تقعان بالقرب من الركن الجنوبى الغربى لمصر، ولكن الموقع الإحداثى الذى بينته بعض الخرائط كان يبعد نحو ٣٠ إلى ١٨٠ كيلومتراً من موضعها، كما لم يصفهما أحد من واقع زيارته الفعلية، وقد بينت ملاحظتى أن "أركينو" تقع شمال خط عرض ٣٢° ١٢' ٢٠" وشرق خط طول ١٥° ٤٤' ٢٤" وعلى ارتفاع نحو ٥٩٨ متراً من سفح الجبل؛ لذا فهى تقع داخل الحدود المصرية.

أما القيمة الحقيقية لهذه الواحة - كما "للعوينات" أيضاً - فتكمن فى الإمكانيات التى تتيحها لاكتشاف الركن الجنوبى الغربى من مصر، الذى لم يصل إليه أحد حتى الآن سواء من الجيش أو شركات البترول أو الرحالة، كما لا يعلم أحد على وجه اليقين مصدر المياه فى هذا الجزء من الصحراء الذى يمكن الاعتماد عليه؛ فالماء فى "أركينو" - على ما يبدو - ثابت، وصالح للشرب، وذلك على الرغم من أنه ليس صحيحاً للبشر كما كان المرء يأمل. ومن المتصور أن تثبت "أركينو" قيمتها الإستراتيجية فى المستقبل، استناداً إلى أنها تقع تقريباً عند نقطة التقاء حدود مصر الغربية والجنوبية.

وتختلف كل من "أركينو" و"العوينات" عن الواحات الأخرى بالصحراء الغربية فى مصر، فى أنهما ليستا منخفضين فى الصحراء

يستمدان ماءهما من المياه الجوفية، بل إنهما منطقتان جبليتان، حيث يتجمع ماء المطر فيهما في أحواض طبيعية في الصخور.

وسلاسل "أركينو" الجبلية - كما رأيتها - تمتد لنحو ١٥ كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب، ونحو ٢٠ كيلومتراً من الشرق إلى الغرب، ولكن لم تكن هناك فرصة لاستكشافها في اتجاه الشرق؛ لذا لا أستطيع القول ما إذا كانت تمتد في هذا الاتجاه أبعد مما حددت، واستطعت فقط ملاحظة ما أمكنني رؤيته من الصحراء عند السفوح الغربية للجبل، وربما كانت سفوحه الشرقية تنساب لتصبح سلاسل تلالية بعد ذلك؛ حيث تمتد جبال العوينات أيضاً صوب الجنوب، وهناك فرصة لمزيد من الاستكشاف للجهة الشرقية لكلا هاتين الكتلتين الصخريتين مقارنة بما كنت قادراً على فعله بما لدى من الوقت وموارد تحت إمرتي.

وأقرب نقطة معلومة "لأركينو" و"العوينات" صوب الشرق أو بالأحرى الشمال الشرقي هي واحة "الداخلية"، التي تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتراً، ويقال إن هناك طريقاً كان يربط مصر وهاتين الواحتين، ولكن رحلة من "الداخلية" إلى "أركينو" و"العوينات" بالقافلة، قد تستغرق على الأقل أربعة عشر يوماً، وقد يكون من العسير القيام بها.

الفصل السادس عشر

واحة العوينات المفقودة

«السبت ٢٨ أبريل: بدأنا في التاسعة والنصف مساءً لنقضى أول ليلة من السير المتواصل، ونتوقف في الساعة من صباح يوم ٢٩ أبريل، قطعنا نحو ٤٠ كيلومترًا، ظل الجو صحواً وصافياً، مع هبوب رياح حارة شديدة من الجنوب الشرقي طوال اليوم، واستمرت الرياح تهب من الاتجاه ذاته طوال الليل، وإن أصبحت دافئة أكثر من كونها حارة. وكانت الأرض من نوع السريرة، ذات صخور كبيرة، أعاقت تقدم الإبل، وفي السادسة صباحاً وصلنا إلى الركن الغربي من جبل "العوينات"، وخيمنا بعد ساعة من ذلك».

مرّ اليوم في هدوء؛ خاصة أثناء وقت الظهيرة من أجل رحلة المساء القادمة، ومع بداية المساء أرسلنا الرجال ليحضروا الإبل من رعيها. واستأجر بوكارا جملاً من التبو، ليريح جملة؛ لأنه أراد أن يكون قادراً على بيعه بسعر مرتفع في نهاية الرحلة، كما استأجرت أنا ثلاثة من أفراد التبو وإيلهم ليرافقونا، ولكن ليس للسبب ذاته، فقد كنا نحتاج إلى وسائل نقل أخرى، نظراً لأن رحلتنا من "الكفرة" بيّنت أن حمولتنا كانت ثقيلة جداً؛ فالإبل سرعان ما أصبحت مجهدة.

فى الساعة الثامنة مساءً أضرنا الإبل، وبدأنا فى التحرك بعد ساعة ونصف الساعة من ذلك. كانت حملتها خفيفة هذه المرة؛ لأننا لم نصطحب معنا مياهًا من "أركينو"؛ فالمياه هناك كانت سيئة للجهاز الهضمى بالإضافة إلى أن مذاقها كان غير مستساغ، كما كان لدينا بين الرجال ثلاث حالات سيئة من الإصابة بالدوزنتاريا، امتطى المرضى الثلاثة الإبل منذ البداية، بينما أخذ باقى الرجال دورهم فى أثناء الليل.

بدأت القافلة وأفرادها فى أفضل مزاج، وفى إحدى الفترات الفاصلة، توقف أحد الأفراد ذوى الروح المرحّة وبدأ فى الغناء، وخلال لحظة اصطف نحو نصف دسّة منهم بجواره، وصار الكل يغنى، ويضرب الأرض بقدميه ويصفق بيديه فى إيقاع مشترك، بينما كان ركب الإبل يمضى، وكانت كلمات الأغنية دائماً واحدة:

"إن كان عزيز علينا لنزوره

حتى لو كان بعيد الدار"

وتتلق بلهجة قوية، تختلف فى شطريها، وكما ميزتهما فمن الممكن ترجمة هذين الشطرين هكذا، دون أية محاولة لجعلها تلائم الإيقاع الموسيقى الذى قد يكون مطلوبًا ليكتمل التأثير لدى المستمع الغربى: "أيها المحبوب عيننا تسعى خلفك، حتى ولو كانت خيامك بعيدة".

مرة تلو الأخرى تكررت الأغنية، حتى انتهى العرض فى صيحة مفاجئة، وكنت أنا كل جمهور هذا العرض الصغير، أجارى

الإيقاع بسوطى، وعندما انطلقت صيحتهم الأخيرة، صحتُ " فرغوا البارود " بمعنى " أطلقوا بنادقكم"، وكانت إشارة إطلاق الابتهاج من البنادق، وبعدها اتخذنا أماكننا فى القافلة ومضينا فى بهجة.

إن السير ليلاً له مميزاته؛ فالوقت يمر أسرع مقارنة بينه وبين النهار - ما لم يكن المرء مجهداً للغاية - والنجوم صحبة مبهجة لأى محب للطبيعة. وفى الأفق أمامنا كانت تلوح الكتل الداكنة لجبال "العوينات"،^(٣٩) ومن الأسهل كثيراً أن تسير وأمامك مقصد واضح، من أن تسير فوق سطح الصحراء المنبسط؛ حيث تشبه كل نقطة فيه أية نقطة أخرى، ويظل الأفق دائماً على المسافة ذاتها التى تبعث على الجنون، اقتربنا بثبات نحو الجبال حتى ارتفعت الشمس فوقها، لوَّنت وذهبت ذراها، وألقت على الصحراء ظلاً ثقیلاً تتراجع حوافه باطراد صوب سفوح الجبال، بينما كنا نقترّب منه من الاتجاه الآخر، وبعد فترة وجيزة من شروق الشمس أصبحنا فى مواجهة الجانب الشمالى الغربى من الجبال، وبعد ساعة من ذلك خيمنا بالقرب من حوائطه الصخرية، وعند هذه النقطة كانت هناك فجوة فى جانب الجبل، وفى نهايتها الداخلية كان يوجد كهف به بئر، نصبنا خيامنا عند فم هذا اللسان الصغير لبحر الرمال، وبعد عشر دقائق من ذلك غرقنا كنا فى النوم، كانت تلك هى أول ليلة كاملة من السفر، وكان لدينا بعض النوم المتأخر علينا أن ننجزه، ورغم هذا، لم ننم بالقدر الذى كنا نتوقعه؛ فقد استيقظنا قبل الظهر، وتغير انتباهنا إلى الطعام؛ فمقولة

(٣٩) يبلغ ارتفاع هذا الجبل نحو ١٩٠٧ أمتار، ويقع معظمه خارج حدود الأراضي المصرية. " المترجمان "

الفرنسيين "إن من ينام يشبع" قد تكون صحيحة وفق بعض الظروف، لكننا في الصحراء نجد الأمور مُرضية عندما نكون قادرين على فعل الشيئين معًا؛ فقد كنا جميعًا نجد متعة بالغة في شواء أجزاء من الخروف الذى أحضره محمد كضيافة لنا من "العوينات".

أمضيت بقية اليوم فى زيارة البئر الموجودة داخل الكهف، وجمع الملاحظات، والتطلع لما يحيط بنا؛ فعند هذه النقطة كان الجبل يرتفع على شكل جرف صخرى، مع وجود كتل من الصخور المستديرة، الضخمة والصغيرة، التى تتكوم قبالة سفوحه. والصخور التى تُكوّن هذا "التابرى" - كما يسميه الجيولوجيون - قد نحتت بفعل سنوات من عمل الرياح والرمال المنجرفة التى أحالتها إلى شكل كروى مصقول، ربما كان العمالقة فى أيام البطولة يستخدمونها فى مقاليعهم ليقتلوا بها الوحوش أو ككرات فى بعض الألعاب الضخمة.

كانت العين أو البئر تقع على بعد بضعة أمتار من المخيم، داخل تجويف فى الجدار، ومسقوفة بصخور ضخمة، وهى عبارة عن بركة من الماء المتجدد الذى يظل باردًا نتيجة لحمايته من الشمس. والصحراء فى هذه المنطقة من العالم تعرف نوعين من الآبار: العين وهى بالمعنى المحدد للكلمة ينبوع، والبئر أو الماتان وهو عبارة عن موضع يمكن الحصول منه على الماء عن طريق الحفر فى الرمال. ونسمى آبار "العوينات" عيونًا، نظرًا لعدم وجود كلمة أفضل على الرغم من أنها ليست ينابيع، لكنها مخزون فى الصخور حيث تتجمع مياه الأمطار.

ويقال إنه يوجد فى "جبال العوينات" سبع من هذه العيون، وقد تمكنت من رؤية أربع منها قبل أن أعاود التحرك صوب الجنوب. كما

سمعت أيضًا عن وجود بئر أو بئرين فى الواحة، ولكننى لم أرهما.

فى المساء كان المخيم مليئًا بالحياة والبهجة. وغنى الرجال ورقصوا كأن لم يكن هناك أيام مملة من الرمال الساخنة والرياح اللاذعة التى تعدو خلفهم وتنتظرهم.

الاثنين ٣٠ أبريل: استيقظت مبكرًا، وذهبت مع زروالى، وعبدالله، ومحمد، وملكونى - من التبو - إلى العين الكبيرة الموجودة فوق الجبل، كان التسلق شاقًا للغاية، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلنا إلى العين، وكانت زاخرة بكمية وفيرة من الماء العذب يحيطه فى مشهد رائع غاب رفيع وطويل، وقد أخذت بعضًا من سيقانه معى لكى أصنع منها مباسم لجليونى؛ فهى تعطى للدخان مذاقًا لطيفًا.

مع بداية المساء امتطيت هجينى وخرجت مع ملكونى وسنوسى بوحسان وسعد لنستكشف الواحة، كانت ليلة مقمرة بها نسيمات من الهواء الدافئ الذى كان يهب من الجنوب الشرقى، ولمدة أربع ساعات ظللنا نسير فوق سريرة وعرة بمحاذاة الركن الشمالى الغربى من الجبل، وفى منتصف الليل دخلنا واديًا به سلسلة من التلال قليلة الارتفاع، وكان قاع الوادى تكسوه الرمال الناعمة التى تنتشر فوقها الصخور الكبيرة التى جعلت التقدم عسيرًا على الإبل، وبعد ساعة عندما أصبحت أرواح الرجال وشجاعتهم - كما يقال - فى أدناها، توقفنا لبضع دقائق كي نحتسى الشاى القوى من "الترموس" الذى كان معى، ثم تقدمنا بعد ذلك، ولكن معنوياتنا كانت على أية حال منخفضة. كان هناك شىء سحرى يتعلق بهذه الليلة وضوء القمر وتلك الجبال، يجعل منها تجربة تثير الخيال وتسمو بالروح. حدثت

نفسى بذلك، لكن بدا أن الرجال قد أصابهم بعض هذا الشعور أيضًا.

فى الخامسة مساءً انفتح الوادى على سهل متسع من السريرة المستوية، بالإضافة إلى بعض التلال التى تبعد نحو عشرة أو خمسة عشر كيلومترًا صوب الشمال الشرقى. استدرنا بشدة صوب الجنوب حول أنف الجبل، وفى الفجر توقفنا من أجل صلاة الصبح.

بركت الإبل ووقفنا على الرمال ووجهتنا صوب مكة المكرمة؛ فعندما يصلى المسلمون فإنهم يقفون فى حضرة الله - سبحانه وتعالى - وليس كما يقول بعض الأفراد المضللين فى حضرة سيدنا محمد ﷺ، الذى لا يعد إلها بل هو نبي، وأول أساسيات الصلاة هى نظافة الجسد والقلب والروح، وفى الصحراء فإن نظافة الجسد تصبح رمزية طالما أن الماء من الصعب الاستغناء عنه. فنقوم "بالتيمم" حيث نأخذ الرمال بأيدينا ونحك بها كل يد وذراع، ثم نمرره بنعومة فوق وجوهنا، وبأكفنا المبسوطة وأذرعنا المرفوعة نتلو صلاة محددة، ثم نسجد حتى تلمس جباهنا رمال الصباح الباردة.

فى الصحراء الصلاة ليست طاعة عمياء لعقيدة دينية، بل إنها خبرة غريزية للمرء وتجربة تصالح مع أعماق ذاته؛ فالصلاة فى الليل تجلب الهدوء والسكينة، وفى الفجر عندما تدب الحياة من جديد فى جسد المرء، فإنه يتوجه - متلهفًا - إلى الخالق ليقدم اعترافه وعرفانه المتواضع بجمال العالم والحياة، وينشد إرشاده فى اليوم المقبل؛ فالمرء يصلى إذن ليس لأنه ملتزم بهذا، بل لأنه محتاج إلى هذا.

فى الساعة السابعة تمامًا وجدنا أنفسنا ندخل واديًا عريضًا يتجه صوب الجنوب بانحراف قليل صوب الشرق، وترتفع الجبال العالية

على جانبيه، وكان قاع الوادى منبسّطاً مثل اللوحة المرسوم عليها باقات من العشب، التى تتخللها هنا وهناك أشجار السنط والشجيرات الصغيرة التى تعطى أوراقها عبيراً أشبه بعبير أوراق النعناع عند هرسه، وفى الفواصل كانت الأرض تكسوها نباتات الحنظل الزاحفة، بأوراقها الخضراء المنقطة بكرات صفراء رائعة تشبه الجريب فروت، ويصنع القرعان والتبو من هذه الثمار "الأبرا"؛ فهم يغلون البذور بشدة حتى يتخلصوا من مذاقها المر ثم يطحنونها مع البلح والجراد فى هون خشبى، وتعد "الأبرا" طبقهم الرئيسى.

لمدة ثلاث ساعات ظللنا نصعد الوادى، وفى العاشرة خيمنا ونحن نعانى من القىظ والتعب، ولكننا كنا مسرورين. تناولنا وجبة جيدة من الأرز، وشربنا أكواب الشاي الثلاثة، ثم ذهبنا للنوم فى ظلال سلاسل الجبال، كانت إغفاءة غير مريحة، بسبب هجوم أسراب الذباب، وتحرك ظل هذه الحافة، الأمر الذى جعل كل منا يغير موضعه من وقت إلى آخر.

وبينما كنت أفتح عيني رأيت بجوارى مشهداً بدا كأنه جزء من حلم جميل، كانت فتاة جميلة من القرعان، ذات جسد نحيل ممشوق لم يكن يشينه ذلك الزى البدائى الذى ترتديه، وكانت تحمل بين يديها وعاءً مملوءاً بالحليب، قدّمته لى بحياء به كبرياء، ولم أجد بُدّاً من قبوله، وشربه بعرفان، وبعدها سألتنى عن دواء لأختها التى لا تلد أطفالاً، وعندما رفضت أن تصدق أنه ليس معى دواء من الممكن أن يساعد شقيقتها، عدت للحبوب الجافة، كعلاج غير مؤذٍ لعله أكبر من قدرتى، وأعطيتها أيضاً مجيدة ومنديلاً من الحرير هدية لها. كما

ظهر أحد أفراد التبو ومعه قطعة من لحم "الوادان" أو الخروف البرى، وفى المقابل أعطيته أرزاً ومكرونة، وبعدها ذهب إلى حال سبيله سعيداً.

بعد أن تناولنا الطعام توجهت لرؤية بعض آثار الإنسان التى ترجع للعصور السحيقة؛ فعندما كنت فى "أركينو" تحدثت مع أحد القرعان، لأعرف بعض المعلومات عن سكان "العوينات" الحاليين، سألته إن كان يعرف أى شىء عن السكان السابقين للواحة؟ فأعطانى إجابة مفاجئة قائلاً "أنواع مختلفة من البشر عاشوا حول هذه الآبار، أكثر مما يستطيع أحد أن يتذكره، حتى الجن عاشت قديماً فى هذا المكان".

"الجن؟! "تعجبت" وكيف عرفت ذلك؟"

فأجاب " ألم يتركوا رسوماتهم على الصخور؟!

وباستثارة حاولت إخفاءها سألته أين؟

فأجاب "فى وادى "العوينات"، هناك العديد من الرسومات فوق الصخور"، لكننى لم أستطع إغراءه بأن يصفها لى أكثر من قوله "هناك كتابات ورسومات لكل أنواع الحيوانات الحية، ولا يعرف أحد أى نوع من الأقلام استخدموها؛ لأنها محفورة بعمق كبير داخل الصخر، ولم يستطع الزمن أن يؤثر فى هذه الكتابات" - بذلت قصارى جهدى لكى لا أظهر له استثارتى - وتساءلت هل يستطيع إخبارى فقط أين توجد تلك الرسومات؟

فأجاب " فى نهاية الوادى عندما يبدأ ذيله فى التموج".

وطوال الوقت كنت أتذكر هذا؛ لذا بعد أن أنفقنا بعض الوقت في التأكد من مخزوننا من المياه - الذي يعد أكثر الأشياء أهمية - نظرت حولى من فوق قمة التلال إلى المنطقة المحيطة، وبدأت المهمة المثيرة المتمثلة في تفقد أرجاء الواحة، ولكن كان أكثر أجزائها تشويقاً هو العثور على تلك النقوش الصخرية، خاصة أن التاريخ الذى استطعت جمعه عن الواحة كان ضئيلاً للغاية؛ فقد عرفت أن "العوينات" كانت موطن التبو والقرعان الذين كانوا يتوجهون صوب الشرق ليهجموا ويسلبوا قبائل "الكبابيش" (٤٠) وكانت "أركينو" و"العوينات" بالفعل أماكن جيدة للغاية لهذا الغرض، طالما أنها تزود بالماء القبائل الغازية، وفى الوقت ذاته كانت بعيدة جداً عن أيدي "الكبابيش" حتى يجروا على الثأر أو محاولة استعادة ما يخصهم.

وطبقاً للوصف الذى فى مخيلتى اصطحبت ملكونى - الذى انضم إلى القافلة فى "أركينو" - وتوجهنا ومع غروب الشمس إلى مكان تلك الرسومات التى توجد فى الوادى عند ذلك المكان الذى يبدأ عنده فى التلاشى، وينحرف بنعومة، وجدناها على الصخور التى تقع بالقرب من منسوب سطح الأرض، وكنت قد أخبرت بوجود رسومات أخرى مشابهة على مسافة نصف يوم سير من ذلك المكان، ولكن نظراً لأن الوقت كان متأخراً، ولم أكن أريد أن أثير الريبة، لم أذهب إليها.

(٤٠) قبيلة الكبابيش: هى فى الحقيقة مجموعة من القبائل العربية التى انصهرت فى قبيلة واحدة أصبحت تعرف بهذا الاسم، والموطن الرئيسى لهذه القبائل غرب السودان، وهى منطقة شبه صحراوية وليس بها أنهار دائمة الجريان، ومن ثم فهى لاتصلح للزراعة الدائمة وإن كانت المراعى بها جيدة، ومن ثم يعيش أفراد هذه القبائل على رعى الأغنام. "المترجمان"

لم يكن هناك شيء سوى رسومات الحيوانات؛ فلم تكن هناك أية نقوش، وبدا الأمر لي كما لو أن أحد الأشخاص حاول تصوير مشهد ما، ورغم بدائية الشخصوص؛ فقد كانت تتم عن يد فنية؛ فالرجل الذى رسم اسكتشات هذه الحيوانات كان لديه حس فنى، ورغم أن الصور التى على الحوائط الصخرية كانت بسيطة، فإنه لا يمكن القول إنها لم تنحت بمهارة. كانت هناك رسوم لأسود، وزراف، ونعام، وكل أنواع الغزلان، وربما الأبقار، رغم أن الكثير من هذه الأشكال قد تأثر بفعل الزمن، وكان عمق النحت يتراوح بين ربع ونصف بوصة، وكانت حواف الخطوط قد تآكلت بفعل عوامل التعرية؛ حتى إن بعض أجزائها كان من الممكن كشطه بسهولة بواسطة الأصابع.

سألت من رسم هذه الصور؟ والإجابة الوحيدة التى حصلت عليها جاءت من ملكونى - فرد التبو - الذى أعلن عن اعتقاده بأنها من أعمال الجن، وتساءل " أى رجال يمكنهم فعل هذه الأشياء الآن؟".

ورغم أننى لم أستطع الوصول إلى أية روايات متوارثة حول مصدر هذه الرسومات المثيرة، فقد صدمنى أمران لا يوجد زراف فى هذه المنطقة الآن، كما أنها لا تعيش فى أى صحراء مشابهة فى أية منطقة أخرى، وثانيهما أنه لا يوجد رسومات للإبل بين هذه الأشكال المنحوتة على الصخور، والمرء لا يستطيع الوصول إلى هذه الواحة إلا بواسطة الإبل، ترى هل كان الرجل الذى رسم هذه الصور يعرف الزراف ولا يعرف الإبل؟ فكرت مليًا وتذكرت أن الإبل جاءت إلى أفريقيا من آسيا منذ نحو ٥٠٠ عام قبل الميلاد.

فى الخامسة والنصف بدأنا التحرك صوب مخيمنا، وانتهى طريقنا عند ممر جبلى منحدر، يتسع بالكاد لشخص واحد، كان شديد الخطورة على الإبل، ووصلنا إلى أعلى نقطة فى الممر، وعندها تخيرنا طريقاً منحدرًا إلى منسوب الصحراء التى توجد جنوب الجبل، وعند أعلى نقطة وصلنا إليها كانت هناك بعض القمم التى يرتفع منسوبها أعلى مما كنا عليه من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر. صعدت الإبل وهبطت هذا الممر المنحدر على نحو رائع على الرغم من الظلام، وفى العاشرة والنصف كنا عند سفوح الجبال.

بدا أنه من الأفضل أن نريح الإبل، فتوقفنا فى الحادية عشرة لمدة ساعتين، تناولنا خلالها الشاى، وجاءت لزيارتنا أسرة التبو التى كان مخيمها فى الجوار، واقتنصنا غفوة قصيرة استيقظنا بعدها نشيطين. كانت هناك رياح باردة تهب، وكان الركوب للخيام فوق منسوب الصحراء يعد من الأمور السارة، بعد مشقة تسلق الصخور واجتيازها. وصلنا المخيم فى العاشرة من صباح يوم ٢ مايو، واستقبلنا بإطلاق البنادق وبالترحيب اللائق.

الأربعاء ٢ مايو: عند وصولنا إلى المخيم وجدنا فى انتظارنا الشيخ هارى، زعيم القرعان الذى يسمى ملك العوينات ومعه مائة وخمسون فردًا من السكان المحليين، كان قد جاء فى اليوم السابق لزيارتى وانتظر عودتى، وهو كهل ظريف للغاية، ذو وجه هادئ به جلال، وأحضر خروفين وحليًا وبعض الأبرا كضيافة، كان صائماً، وصمت على بقاءه معنا حتى الليل، وإلا ما استطعت أن أقدم له الضيافة، طالما أنه لن يأكل أو يشرب حتى غروب الشمس.

تحدثتُ معه ومع محمد طويلاً، وكان الزعيم الكهل لا يزال متيمًا بوطنه الذي يوجد شمال "الواداي" وتتهد عندما تحدثنا عنه؛ فهو ينتمي إلى عائلة "الريزي"، التي تعد إحدى أسر القرعان الحاكمة في شمال الواداي، وقد جاء إلى "الكفرة" كمنفى اختياري، عندما دخل الفرنسيون إلى "الواداي"، ثم استقر بعد ذلك في "العوينات".

وجدت نفسي متعبًا بعد الثماني والعشرين ساعة من السير التي تخللها تسع ساعات فقط من الراحة، ولكن الاغتسال ووجبة وغفوة قصيرة جعلت الحياة تستحق أن تحيا من جديد في المساء.

نظم بوكارا كورس من الرجال، وأمضينا المساء مع الأغاني البدوية والسودانية والتيبوية.

الخميس ٢ مايو: عندما استيقظت حضر هاري إلى خيمتي ومعه وعاء من اللبن، وعندما شكرته، هز رأسه بحزن قائلاً " هذا هو كل ما أملك أن أقدمه لك، وهو ليس مقامك، لكنك سوف تسامحنا لأننا غير قادرين على أن نمنحك الضيافة التي يجب أن تتأهلها".

أكدت له أن المعنى هو الذي يُعَوَّل عليه في هذا الأمر وليس القيمة المادية لما يُقدم.

أمضينا اليوم في الإعداد للتوجه نحو الجنوب، الذي كنت آمل أن يكون في الغد.

الجمعة ٤ مايو: رتبتُ مع هاري أن يرافقنا إلى "إردى" بوصفه دليلاً إضافيًا؛ فمحمد لم يجتز هذه المنطقة منذ سنوات عديدة؛ لذا شعرت أن هاري قد يعرفها على نحو أفضل.

بعد الظهر ذهبْتُ في تمشية طويلة، لكي ألتقط بعض الصور للجبال، وخلال هذا الوقت كان "التبو" و"القرعان" المستوطنون، الذين يتناثرون حول الواحة، حيثما يوجد عشب لرعى دوابهم، قد سمعوا عن حضورنا، وجاءوا لزيارتنا؛ لذا كان لدينا العديد من الضيوف على العشاء هذا المساء، وأصبح المخيم مبهجاً للغاية، وكانت واحدة من الليالي السعيدة خلال هذه الرحلة.

* * *

قبل أن نترك "العوينات" يجب أن أذكر شيئاً عن بوكارا الذي يعد واحداً من أكثر الرجال إثارة في القافلة، وهو بحق صورة للرومانسية، كان طويل القامة، نحيلاً، رقيقاً، مرحاً دائماً والغناء لا يفارق شفتيه، حتى في اللحظات الحرجة من اليوم، سواء في بداية الصباح أو نهاية الليل، وعندما يكون الرجال مجاهدين من السير ليلاً ويحتاجون للتشجيع.

لم أكن أعلم أنه يدخن حتى ضبطته في أحد الأيام وهو يجمع أعقاب السجائر من البقعة التي كانت فيها خيمتي، ومن بعدها شاركته سجائري، وكانت متعة بالغة أن أعطيه رزمة من هذه المادة الثمينة، وأراه ينطلق - من السعادة - في الرقص والغناء.

وبوكارا هو أحد أكثر البدو الذين قابلتهم ترحالاً؛ فرغم أنه كان في الخامسة والثلاثين من عمره فقد سافر إلى: "الواداي"، "وبرقة"، و"بورنو"، و"دارفور"، وقد رأى أياماً من الحظ السعيد في الماضي، أما الآن فهو لا يملك سوى جمل واحد، وقد جاءت قرعته في قافلتى

بعد أن رتب مع بوحليجا أنه سوف يحصل على حصة من المال الذي سوف يقبضه ثمنًا للإبل المتبقية عندما تباع في نهاية الرحلة.

وهو يتحدث معظم لهجات قبائل السود، ويعرف الكثير عنهم، كما أنه أيضًا موسيقى رائع وذو روح مرحة؛ ففي إحدى الأمسيات لف نفسه بالقماش الأخضر الخاص بخيمتي كما لو كانت عباءة، ومع سعد وحميد اللذين كانا يثغوان خلفه مثل الخراف، جاء إلى المخيم متظاهرًا بأنه أحد شيوخ البدو، جلب معه خروفين كضيافة، وعندما كشف عن شخصيته ظللنا نقهقه حتى قام بوكارا فجأة بإلقاء القماش الأخضر بعيدًا، وانتزع رمحًا من أحد التبو، وانخرط في رقصة الحرب الخاصة بالتبو، وساعده فرد التبو من خلال ضبط الإيقاع فوق أحد الفناطيس الفارغة، وتلا هذا العرض المضحك حفلة من الغناء البدوي من "برقة"، و"قزان"، و"طرابلس".

وكثيرًا ما رأيت بوكارا يأبى امتطاء الإبل حتى عندما يكون البدو كلهم قد استسلموا للإغراء.

وسألته "لماذا لا تمتطي جملًا يا بوكارا؛ فهناك العديد من الإبل غير محملة؟"

فأجاب بنبرة ازدراء لهذه الفكرة: ماذا ستقول واشون - زوجته - إذا ما سمعت أن بوكارا قد ركب في المسافة بين "أركينو" و"العوينات"؟

وأخبرني أنه في إحدى المرات عهد إليه باصطحاب نحو خمسين جملًا إلى "العوينات" لترعى، وكان بمفرده وقد نفذ طعامه.

وقال ببساطة " لمدة اثني عشر يومًا لم أذق أى طعام فيما عدا بذور الحنظل التي أفسدت شهيتي، وبعدئذ وصلت إلى "الكفرة"، وكان الرجال الذين أرسلوني من أجل الإبل قد نسوا أن يرسلوا إليّ طعامًا، وكانوا ينتظرونني في الكفرة مبكرًا".

وعندما تساءلت " ولكن لماذا لم تذبح إحدى الإبل؟ "

فردّ بفخرٍ " وأسمح للرجال في الكفرة أن يقولوا إن بوكارا لم يتحمل الجوع وذبح جملاً؟ "

وبوكارا متيم بزوجته بصورة تدعوا إلى التأمل؛ فعندما وصلنا إلى "أركينو" قال لى "أشعر أنني أفضل الآن، لكننى أبكى مثل طفل عندما أودع واشون في "الكفرة"، وهكذا يكون الأمر دائمًا عندما أبدأ رحلاتي؛ فإذا ما كانت الصحبة جيدة أنسى بسرعة".

الفصل السابع عشر

السير ليلاً إلى إردى

«الأحد ٦ مايو: أصبحنا على الطريق فى السادسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، سرنا اثنتى عشرة ساعة بشكل جيد، قطعنا فيها نحو أربعة وخمسين كيلومتراً، كانت رحلة مجهدة بكل ما فى الكلمة من معنى، ومع ذلك فبالنسبة لأول ليلة سير كان من المتوقع أن يكون الأمر كذلك. ولم تُتَح للرجال أية فرصة للنوم فى أثناء اليوم، بل على النقيض كانوا أكثر انشغالاً من المعتاد، فرغم ضجرتنا، كان علينا مراقبة الأحمال بعناية، وإعادة تنظيمها بين الحين والآخر، وعند الفجر سقط معظم الرجال خلفنا من أجل إغفاءة قليلة».

فرَّ أحد الإبل عائداً إلى "العوينات"، وكان على مالكونى أن يترك القافلة عند منتصف الليل ويسعى خلفه. وفى النصف الأخير من الليل بزغ ضوء القمر، وفى الثالثة صباحاً هبَّت نسمة باردة منعشة، رعت الإبل ما شاء لها على العشب الذى ينمو هنا اعتماداً المياها التى تتسرب بين التلال. وعندما وصلنا إلى وقت التخيم، وجدت إحدى أفضل قربنا مثقوبة ونصف فارغة، كان سوء حظ؛ فلم نكن قد ادخرنا ماء من المرحلة السابقة، وكان علينا أن نمضى عشرة أيام قبل أن نصل إلى بئر، وطوال اليوم لم يظهر مالكونى أو الجمل الهارب.

دونت فى يومياتى ما يلى:

الاثنين ٧ مايو: ظلّ الجو غائماً طوال اليوم، كما هبّت رياح شمالية شرقية توقفت بعد الظهر، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية، وعند السفر ليلاً لا يستطيع المرء تسجيل درجة الحرارة الصغرى، التى تراوحت بين درجتين وثلاث درجات؛ لأننا كنا نتحرك فى هذا الوقت، بدأنا فى السادسة والنصف مساءً، وتوقفنا فى الحادية عشرة والنصف مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٢٠ كيلومتراً، كانت الرمال ناعمة للغاية والأرض شديدة التموج تتخللها نطاقات من عشب جاف صالح للرعى.

بعد الظهر وصل فرد التبو ومعه جمل محمل بالأمّعة التى كانت فوق الجمل الهارب، وأخبرنا أن جمل مالكونى قد ألقى حمولته وفر عائداً إلى منطقة الرعى فى "العوينات"، وأن مالكونى يسعى خلفه، وبحلول الحادية عشرة والنصف مساءً توقفنا فى منطقة رملىة ناعمة للغاية ترصعها الصخور والرقع الصالحة للرعى بالقرب من "بارت شيزو" انتظاراً للهرب، وبعد وصولنا بوقت قليل ظهر مالكونى، إلا أننى كنت قد قررتُ ألاّ نتقدّم أكثر فى هذه الليلة؛ فقد شعرت أن الراحة سوف تفيدنا جميعاً.

الثلاثاء ٨ مايو: بدأنا فى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، فى ظل وجود سحب كثيفة، وبعد ساعتين من ذلك أمطرت السماء قليلاً، وقام البدو - الذين تعتمد حياتهم على المطر - غريزياً بالصياح مرحاً والغناء للإبل بحماس.

كانت الأرض متموجة، وقاسية، تكسوها الصخور والحصى الكبير، وبعد قليل من بدايتنا عبرنا بعض الغرود^(٤١) الصغيرة، ثم عادت الأرض منبسطة مرة أخرى، تكسوها الرمال الناعمة، وفي الثالثة والنصف صباحًا دخلنا حزامًا من الكثبان الرملية العالية، عبرناه بعد ساعة ونصف، وبعد الكثبان عادت الأرض مرة ثانية إلى السريرة القديمة المألوفة، وهنا عثرت على قطع من قشر بيض النعام.

في بداية اليوم أخذ أرامى - أخو مالكونى - كيسًا وذهب ليجمع بعض الحطب، وكان واسمه يحكى مصيره؛ لأن "التبو" و"القرعان" يسمون الرجل الذى قتل آخر "أرامى" - وقال إنه سوف يلحق بنا بعد ذلك، ولم يكن لدينا ما يقلقنا عليه؛ خاصة وأنه أخبرنا أنه يعرف الطريق جيدًا، إلا أنه بعد ساعتين من السير على الطريق أصابنا القلق، وتوقفنا لانتظاره، وأطلقنا العديد من الطلقات لنلفت انتباهه، ونوجهه إلى موضعنا، وصاح الرجال باسمه بأعلى ما يستطيعون، ولكن كل هذا ذهب عبثًا.

استدريت إلى ملكونى وسألته عما ينوى فعله.

فقال "أخى مجنون، فلم يطلب منه أحد جمع الحطب، لقد غادر المخيم دون حتى أن يتناول طعام الإفطار، ربما دعاه الله إلى أجله، عندما يبرغ القمر سوف أترك حمولة جملى، وأعود للبحث عنه؛ فإذا كان حيًا فسوف أعود به، أما إذا كان ميتًا فسوف أدفنه وألحق بكم

(٤١) هى عبارة عن كثبان رملية صغيرة الارتفاع، لكنها بالغة الطول، تفصل فيما بينها مسافات قصيرة جدًا. "المترجمان"

بعد ذلك". قال ذلك بهدوء وببساطة كما لو أنه شيء طبيعي. نقلت الأمتعة من فوق جمل مالكونى إلى جمل آخر، وعاد للبحث عن أخيه.

وكان آرامى بالفعل قد نجا من الموت أكثر من مرة، وتغنى كل شخص أن ينجو هذه المرة أيضًا، إلا أن محمدًا كان يشك فى هذا، وقال "ربنا رحيم، لكننى أظن أن آرامى قد مضى إلى حتفه".

كنت أخشى أن يكون على صواب؛ فقد كان هناك شيء غريب فى آرامى منذ البداية. وقد علمت أنه فى إحدى رحلاته من "إردى" إلى "العوينات" نفذت مؤنه من المياه، وأصابه "عطش سيئ" كما يدعونه أبناء الصحراء، ووصل إلى "العوينات" نصف ميت، ومثل هذه التجارب تترك بصماتها على المرء، وبالطبع فإن الأمر يتطلب وقتًا طويلاً قبل أن يعود المرء إلى نفسه مرة ثانية. وقد لاحظت فى عينيه تلك النظرة الغامضة، المجهدة، الغريبة، وكم تساءلت عنها. وكنت أعلم أنه إذا لم يعد فإن الصحراء - فى أحد صورها القاسية - سوف من نصيبها.

ففى الصحراء، فوق الدروب الطويلة التى تخلو من الماء، وتحت تأثير الإرهاق والعطش والتعب وقلة النوم غالبًا ما يفقد الرجال رعوسهم، أو كما يقول البدو "يسIRON إلى حتفهم"، وهو ما يعنى أنه ما لم يكن رفاقهم منتبهين إلى هذا الأمر، ويبقونهم مع القافلة، فإنهم يسIRON بعيدًا فى الصحراء، متجاهلين حتى غريزة الإبل التى تبقىها مع القطيع. وفى هذه الحالة، إذا ما عاد الهائم فجأة إلى وعيه، فإن عليه أن يجلس حيث وجد نفسه ولا يتحرك؛ لأنه من المعروف أن

رفاقه عندما يدركون غيابه، سوف يتعقبون آثار القافلة ثم آثاره على الرمال لينقذوه، وقد قابلت بدويًا في "الكفرة" كان قد تاه عن قافلته ثماني عشرة ساعة، وعندما أنقذ كان غائبًا عن الوعي، ويعاني بشدة من الظمأ، وقال "إن الله كان رحيمًا بي؛ فقد كنت قادرًا على أداء صلاتي، والتوجه إلى الله قبل ما ظننت أنه الموت المحتوم"، ثم أضاف مبتسمًا " لكننا نعيش ونموت بمشيئة الله سبحانه وتعالى".

الأربعاء ٩ مايو: بدأنا في الرابعة والربع بعد الظهر، وتوقفنا في العاشرة والربع مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة أربعة وعشرين كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى سبع وثلاثين درجة مئوية، كانت هناك سحب بيضاء، ورياح قوية دافئة من الشمال الشرقي، استمرت طوال اليوم، وفي المساء زادت لتصبح عاصفة رملية، وسقطت بعض قطرات من المطر في السابعة مساءً، واستمرت العاصفة الرملية من الثامنة إلى العاشرة مساءً. كانت الأرض عبارة عن سرير عادية، مع وجود رمال ناعمة في بعض المواضع، ولا يوجد أي أعلام أو عشب جاف، وفي الصباح الباكر رأينا على البعد كثبانًا رملية تمتد على يميننا.

في الليلة الماضية سرنا نحو أربع عشرة ساعة ونصف، ورغم هذا لم ينل التعب منا؛ فالإفطار وأربع ساعات نوم أعادونا جميعًا نشيطين مرة أخرى. وقد أراد محمد أن نبدأ مبكرًا، نظرًا لوجود منطقة غرود عسيرة تقع أمامنا، وكان من الصعب عبورها في الظلام؛ لذا فبحلول الرابعة والربع صباحًا كنا على الطريق، حيث تمتد السريرة تحت أقدامنا، وتهب الرياح الشمالية الشرقية الباردة من خلفنا.

وبعد الثامنة صباحًا بفترة وجيزة شعرت بالرياح تLFح وجهى، جفلت مروعًا، فالرياح ليس من عاداتها أن تغير اتجاهها فجأة، إلى جانب أن طبيعة الرياح لم تتغير؛ فهذه الرياح التى تواجهنا يجب أن تكون قادمة من الجنوب، ومع ذلك فهى ليست دافئة. كان هناك شىء غريب، نظرت عاليًا إلى النجوم، ولكن السماء كانت تكسوها السحب الداكنة بالكامل، أخرجت بوصلتى، وذهلت عندما اكتشفت أننا نتوجه صوب الشمال الشرقى، بدلاً من الجنوب الغربى، بدا واضحًا لى أن محمدًا قد "فقد رأسه" كما يقول البدو، وأصبح يقودنا إلى الاتجاه المعاكس للاتجاه الصحيح. كانت لحظة خطيرة، من تلك التى تتطلب لباقة وحذر فى التعامل؛ فمن الخطر أن تقوض ثقة دليل الصحراء؛ لذا هبطت من فوق جملى، وامتطيت حصانى، وعدوت به إلى حيث يقود محمد القافلة.

وفى أثناء ذهابى لاحظت أن معظم رجال القافلة الذين ألفوا السير فى هذه المنطقة، وهذا النوع من المناخ، شعروا أيضًا أننا نسير فى الاتجاه الخطأ، لكن من آداب الصحراء أنه يجب ألا يجادل الدليل بأية حال؛ فدليل القافلة هو بالضبط مثل قبطان السفينة، وهو بكل تأكيد سيد القافلة، فى كل ما يتعلق باتجاهها، ويجب أن يستشار أيضًا فى مواعيد سيرها وتوقفها.

ومن حسن الحظ أننى كنت قد سألت محمدًا قبل أن نترك "العوينات"، عن الاتجاه الذى سوف نسلكه، وطابقت بوصلتى عليه، وبينما كنت أقترب من الدليل وجدته متجهًا، ويفتقد ابتسامته المألوفة، وشعوره بالثقة بالنفس، أريته البوصلة، وأوحيت له بأننا نسير فى

الاتجاه الخطأ، لم يقل شيئاً، لكنه مسح الأفق بتلهف بحثاً عن نجمه المفضل "الجدى"، لكن دون جدوى؛ فقد كان النجم القطبى يختفى خلف السحب.

وفى هذه اللحظة أطفأت العاصفة الرملية - التى بدأت تهب - مصباحه، كما لحقت القافلة بنا، ولاحظ كل فرد أننا ضللنا طريقنا. وتجمعت الإبل والرجال معاً، تضربهم العاصفة والرمال المؤلمة، بينما جعلت الرياح من المستحيل على المرء أن يسمع صوته أو أن يقول شيئاً لأى رجل آخر.

تخلت ثقة محمد عنه تماماً، واستطعت أن أرى أثر ذلك على وجوه الرجال، فقد كانوا جميعاً من رحالة الصحراء، ويعلمون معنى أن يضل المرء طريقه وسط السريرة حيث لا يوجد أثر لعلم أو طريق.

وقالت مجموعة " يجب أن نخيم حتى تصفو السماء"، لكننى كنت أعلم مدى خطورة هذه الفكرة، فهى تعنى أنهم سوف يمضون أربع أو خمس ساعات يتأملون مصيرهم، وينمو الإحباط واليأس فى داخلهم أكثر وأكثر؛ لذا قلت " لا حاجة بنا للتوقف؛ لأن بوصلتى يعول عليها، وقد اختبرتها أكثر من مرة، وطابقتها على الاتجاه الذى حدده لنا محمد، هذه الرياح تهب من الشمال"، جزمت بذلك فى هدوء وثقة بالنفس خلال إحدى فترات سكون العاصفة؛ لأنه كما كان الحال فى الأيام القليلة الماضية، فهى لو كانت تهب من الجنوب لكانت حارة، هذا هو الجدى، وهذا هو طريقنا"، وأشارت إلى حيث يجب أن يكون النجم القطبى.

فقال محمد مستجمعًا شجاعته "ربنا يحفظك، والله إن ما تقوله هو الصدق".

واقترب منى سنوسى بوحسان - الذى كان دليلنا إلى "الكفرة" - وبصوت عال آمن معقبًا "والله، ما تقوله هو الصدق". قالها بثبات "لقد فكرت فى ذلك، إلا أننى لم أستطع الكلام، لأنه لم يكن لدى دليل؛ لأن الجدى كان قد اختفى خلف السحب".

كان ذلك يكفيننا، فأشعلنا المصباح بصعوبة، وبمعاونة محمد وبوحسان، قدت الطريق.

وفى هذه الأثناء سأل صوت من الظلام "كم علينا أن نمشى؟" فأجاب بوكارا ضاحكًا "دع الرياح تلفح قفاك الأسود، وعندها سوف تعرف".

وبعد بضع ساعات، أمسك محمد بيدي وأشار إلى كتبان رملية أمامنا، وهتف بقوة قائلاً "الغرود، الحمد لله، ربنا كريم"، وعاد للابتهاج مرة أخرى.

وسرعان ما هدأت العاصفة تمامًا، وعادت السماء صافية، وحتى أكثر الرجال تشاؤمًا لم يعد لديه ما يقلقه، ولكن خبرتنا القليلة المستمدة من هذه العاصفة الرملية، برهنت على أن الأشياء الصغيرة أثناء السفر فى الصحراء قد تكون لها أهميتها؛ فبوصلتى فقط هى التى أنفذتنا من هذا الموقف الخطير.

كان محمد متخوفًا من محاولة عبور الغرود فى الظلام؛ لذا خيمنا حيثما كنا.

الخميس ١٠ مايو: بدأنا فى الرابعة والرّبع صباحًا، وتوقفنا فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، ثم بدأنا مرة أخرى فى الرابعة والنصف بعد الظهر، وتوقفنا فى السابعة من صباح يوم ١١ مايو. قطعنا خلال هذه الأوقات نحو ٧٥ كيلومترًا، كان الجو صحواً وصافياً، مع هبوب رياح شديدة البرودة فى الصباح الباكر، معتدلة بعد ذلك، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية. وكان اتساع نطاق الكثبان الرملية كيلومتريين، وكانت رمالها شديدة النعومة وخطرة فى بعض الأماكن، بعد ذلك دخلنا سريرة عادية.

بحلول الخامسة والنصف مساءً أصبح المكان مرصعاً برقع من الأحجار السوداء والبيضاء، مثل تلك التى كانت قبل "الكفرة". وفى الثالثة من صباح يوم ١١ مايو دخلنا نطاقاً من العشب الجاف الذى يمتد فوق رمال منبسطة وناعمة. وفى الرابعة والنصف صباحاً مررنا بحزام من الكثبان الرملية.

فى الصباح الباكر كنا على الطريق نعبّر الغرود، وسرعان ما أدركنا مدى خطورة الخطأ الذى كنا سوف نرتكبه بمحاولة عبورها فى الظلام؛ فقد كانت شديدة الانحدار ورمالها ناعمة بشكل غادر، وغاصت الإبل حتى ركبها، وكان على الرجال مساعدتها على السير، وتطلب الأمر منا ثلاثة أرباع الساعة لكى نعبرها. توقفنا فى التاسعة صباحاً ونحن جوعى للغاية؛ لأننا لم نأكل منذ غداء اليوم السابق، وكنا نحتاج للطعام أكثر من النوم؛ لأن ساعات الراحة القليلة التى حصلنا عليها فى أثناء الليل أنعشتنا تماماً.

كان الجو لا يزال حاراً عندما بدأنا مرة أخرى فى الرابعة والنصف بعد الظهر، ولكن النسائم التى كانت تهب من الشمال

الشرقى لطفت ذلك الجو القابض، وطلب منى هارى بضع يردات من القماش الأبيض لكى يصنع منها عمامة؛ لأن حرارة الشمس كانت تؤثر على رأسه، وكنت سعيدًا بإعطائها إياه، رغم أنه بين التبو والقرعان كان الشيوخ فقط هم الذين يرتدون الزى الأبيض.

فى هذه الليلة شعرتُ برغبة فى السير على قدمى؛ فامتطيت جملى أقل من المعتاد؛ ومنذ أن تركنا "العوينات" كنت أسير لما يتراوح بين ست وسبع ساعات فى الليلة، ولكن فى هذه الليلة سرت تسع ساعات. تقدمنا على نحو جيد حتى الثالثة صباحًا، عندما شعرت فجأة أو سمعت شيئًا يحفّ بحذائى، فنظرت إلى أسفل ووجدت عشبًا، فقد غيرت الصحراء من مظهرها. كانت الإبل جوعى؛ لأننا رحلنا عن "العوينات" ومعنا فقط طعام يومين لها، بأمل العثور على منطقة رعى لها؛ لذا تركناها تأكل على سجيّتها بدلاً من دفعها للسير أسرع.

وكان السير مرهقًا للجميع؛ فقد كان علينا أن نتأخر فى النوم حتى نتأكد ونحافظ على تقدم الإبل داخل نطاق الرعى، وهو أمر بالغ الصعوبة، وقد ركب محمد وهارى معظم الطريق بينما حمل حسان المصباح، وقبل الفجر بقليل ترجل محمد وأراحه. وعندما جمعنا الإبل من أجل صلاة الصبح بدا الرجال مرهقين على نحو لم أرهم عليه من قبل.

الجمعة ١١ مايو: بدأنا فى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا فى الثالثة والرّبع صباحًا - من يوم السبت الموافق ١٢ مايو - قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٤٢ كيلومترًا، ظل الطقس صحوًا وصافيًا، وبلا رياح، وكان دافئًا طوال اليوم والليل، بلغت

درجة الحرارة القصوى ٣٩ درجة مئوية، كنا نجتاز نطاقاً من الرمال الناعمة التي تغطيها باقات من الأعشاب الجافة، والتي بدت مثل حقل من حقول الذرة اليانعة، وفي الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مررنا بغرود عادية، وفي الواحدة دخلنا سريرة منبسطة تخلو من الأعشاب، وفي الثالثة والرابع توقفنا عند تل من الحجر الرملي، بعد أن شعرنا أننا ضللنا طريقنا.

أمضينا اليوم في النوم وتناول الطعام، وفي الرابعة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر بدأنا وفي نيتنا أن نستمر في السير طوال الليل، ولكن بحلول العاشرة مساءً أصبح الجميع مجهداً يغلبه النعاس، حتى إن محمداً امتطى جملة، وخلال الساعات القليلة التالية سقط نائماً بين الفواصل، وبسبب تعبته لم ينظر خلفه ليصح اتجاهه اعتماداً على هدى النجم القطبي، وعندما يتجاهل الدليل "الجدى" فإنه يضل طريقه بالفعل، وشعرت أنا وسنوسى بوحسان بيقين أنه لا يسير في الاتجاه الصحيح، لكننا لم نرد مجادلته مرة أخرى بعد الليلة السابقة.

في الثالثة والرابع صباحاً وصلنا إلى سلسلة من التلال وتوقف محمد تماماً. وحتى هذه اللحظة كنت أسير خلف القافلة، وأتحقق من وقت إلى آخر من الاتجاه الذي نسلكه، فقد كنا نسير منذ العاشرة صوب الجنوب أكثر من ذي قبل. وعندما توقفت القافلة عدوت للأمام صوب محمد وسألته لماذا توقفنا؟! فقال وهو يشير أمامه "هذه الفتحة التي في التلال لا أعرفها، كما لا أعرف طبيعة الأرض التي بعدها"، ومهما يكن خطؤه فقد كان صريحاً تماماً.

لم أرد زيادة الشعور بالقلق لدى الرجل؛ لذا قلت ببساطة "دعنا نخيم هنا حتى الفجر؛ فجميعنا متعب هذه الليلة"، وما كدت أنتهى من كلامي حتى بركت الإبل ووضعت حمولتها على الأرض، لم أر أبداً رجالاً تنام بمثل هذه السرعة؛ فقد لف كل فرد نفسه سريعاً فى جيرده واحتفى من الرياح الشمالية الشرقية الباردة خلف أية قطعة من الأمتعة.

أما محمد فقد ذهب إلى السلاسل ليلقى نظرة عليها، وتبعته، وقلت له ملمحاً "أظن أنك قد تبعت الجدى أكثر من اللازم"؛ بمعنى أنه كان يتوجه أكثر صوب الجنوب، لم أرد الإشارة إلى أنه غفا فوق جملة، فلم أرد أن أهرثقته بنفسه وأضعف معنوياته، تمتم وهو يمسح الأفق بتلهف "ربنا يباركك، لا بد أننى فعلت هذا؛ لأنه لا يفترض بنا أن نصل إلى التلال مبكراً هكذا، لقد كنت أتوقع أن نصل إليها فى الفجر، ولكن فى الصباح ربنا سوف يجلب لنا الفرج".

كنت منزعجاً بعض الشيء عندما تركته وتوجهت للسير بضع دقائق، أملاً ألا نكون قد سرنا بعيداً عن مسارنا الصحيح، لكننى كنت مجهداً للغاية لأستمر فى القلق؛ لذا سرعان ما غلبنى النوم.

السبت ١٢ مايو: فى الرابعة والنصف فجراً سُمع صوت محمد وهو يؤذن للصلاة. فاستيقظنا سريعاً، وخلال ساعة كنا على الطريق، تقدم محمد القافلة، وانضمت إليه، كان لا يزال قلقاً، ولكن بينما كنا ندور حول التلال تنسم الصعداء وقال "ربنا كريم، من هنا يمتد طريقنا"، وأشار إلى الركن الشمالى الغربى من سلاسل التلال، وتوجهنا إليه. وبحلول التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً وصلنا

إليه ونصبنا مخيمنا. أرسلت الإبل إلى داخل التلال - مسافة كيلومتر أو كيلومترين - كي ترعى، وكان الرجال والإبل فى حالة سيئة بالفعل، وبدأ الماء الذى معنا ينفد.

بعد الظهر سبقنا محمد وهارى إلى التلال وصنعا أثرًا على الرمال بأحد قوائم الخيام لنتبعه، وفى الخامسة مساءً تبعناهما إلى الكثبان الرملية، وبعدها إلى التلال، ولحسن الحظ أن الغرود لم تكن كثيرة، برغم أنها كانت وعرة بما يكفى، إلا أن الأرض التلالية التى تمتد بعدها هى التى أجهدتنا؛ فقد ظلت أقدامنا ترتطم بالصخور فى الظلام، ولا تحمى الأحذية البدوية من آلام هذا الارتطام. وبدأ التصادم والإرهاق يزداد على وجه الخصوص فى ساعات الصباح المبكرة عندما أصابنا النعاس بصورة رهيبة، وكنا نسير بعين نصف مغلقة.

فى الليلة السابقة حاولت تجربة إطلاق طلقتين أو ثلاث من بندقيتى لأوقف الرجال، وكانت الاستجابة جيدة؛ وفى كل مرة كانوا يستجيبون بتهليل عال، ويسرعون من خطواتهم على الفور، ولكن فى هذه الليلة فشل هذا الأمر تمامًا. وفى نحو الثالثة صباحًا - أكثر الساعات ظلمة - كنت قد أفرغت بندقيتى بالكامل، ولكن دون أية استجابة.

على كل حال كان هناك تعويض بسيط، فى وسط هذا الامتداد المميت من التعب والكآبة، وفى الصباح الباكر بزغ الهلال كقوس فضى منظوم مع النجوم اللامعة التى توجد فوقه، قطعة فاتنة من المجوهرات السماوية، ثبت عينيّ على جمالها ونسيت للحظة الرضوض التى أصابت قدمى المسكينة.

بعد فترة قليلة وصلنا إلى نطاق من العشب الجاف، كنا جميعًا مستعدين لترك الإبل ترعى لفترة، ولنمنح أجسادنا المنهكة فترة قصيرة للراحة، وفي الفجر توقفنا مرة أخرى لصلاة الصبح، وما كدنا ننهض من سجودنا حتى لف معظم الرجال أنفسهم في جيرودهم وسقطوا على الرمال الحمراء الجميلة مثل الأحجار البيضاء، بينما سارت القافلة تتهادى، وانضم إلينا النائمون بعد فترة وجيزة، كنت آمل أن يمنحهم هذا النوم بعض الانتعاش.

في هذا الصباح آلمتني أوصالي بشدة، ولم أستطع إراحتها، رغم أنني جربت كل وضع ممكن فوق جملي، وكل طريقة ممكنة في السير وسرعته، ولكن لم تجد أي منها، بدت جفوني أيضًا كأنها مثقلة بالرصاص.

وفي السادسة صباحًا أسعدنا الحظ أن نمر ببعض رقع العشب الأخضر، ونصبنا مخيمنا بعد ثلاث عشرة ساعة من السير والعذاب، وكانت الأعين تحتقن بلون الدماء، والأجساد تحتج بكل عضلة وعصب، وخلال نصف الساعة أصبح المخيم صامتًا.

الأحد ١٣ مايو: استيقظنا في العاشرة صباحًا من أجل الإفطار، ثم عاد الرجال للنوم مرة أخرى، لكنني لم أستطع فعل ذلك، بدأنا مرة ثانية في الخامسة والرابع مساءً، وفي هذا المساء أصبحت الأمور أسوأ مما قبل؛ فالأرض ازداد تضرسها ووعورتها، وأصبح السير كارثة مؤلمة لكل من الرجال والإبل، وكانت الإبل باستمرار تتأخر خلفنا في أثناء دوراننا حول وبين الكثبان والتلال الصخرية الصغيرة، نتيجة لعثورها على مقدار ضئيل من العشب الذي كانت

ترعى عليه. وكان من الصعب تمييزها وسط الرمال الحمراء المليئة
برقع من الصخور الداكنة.

توقف الغناء مبكرًا في هذه الليلة؛ فالأمر الأكيد أن الرجال كانوا
مجهدين للغاية، كما أخبرني زروالى أن محمدًا جاء وقال له إنه من
الأفضل أن نخيم مبكرًا، ولانحاول السير طويلًا هذه الليلة. كان التقدم
صعبًا للغاية، وكثيرًا ما كنا نغير من اتجاهنا لندور حول هذه النقاط
العالية والنتوءات الصخرية؛ لذا كان نواجه خطر أن نضل طريقنا،
ولكن زروالى العالم لمدى كرهى لأى تأخير أخبر الدليل أننى أبغى
مواصلة السير فى هذه الليلة.

وفى النهاية أصبح السير صعبًا للغاية، وكانت الإبل تتخلف عنا
باستمرار، وشعرت أنه لا فائدة من التقدم أكثر، ولو كنت فى حاجة
إلى دليل على أن الرجال قد نال التعب منهم لكان ماثلاً فى حقيقة أن
حسان - الذى من الواجانبى - المعتاد على السير الشاق قد امتطى
جمله فى بداية هذا المساء ولم يهبط من عليه.

وفى الحادية عشرة والنصف مساءً خيمنا، ولففت نفسى فى
جيردى، وقلت للرجال ألا يزعجوا أنفسهم بتجهيز حماية لى، فأنا
واثق من أننى لن أتحرك من موضعى الأول الذى سقطت فيه حتى
الخامسة صباحًا.

استيقظت بظهرٍ متيبسٍ وأقدامٍ متألّمة.

ورغم ذلك فإن نسمات الصباح الصافية والمنعشة، ومظهر
الرجال المشغولين والمتلهفين على التقدم أنسانى آلامى الجسدية،

وبرغم الآمال الجديدة التى جلبها الصباح، فإن الأمور لم تكن مشجعة كثيراً بالنسبة لنا؛ فالأرض كانت وعرة للغاية، وبدأ الرجال كما لو أنهم قد فقدوا ثقتهم بمحمد وهارى، وكانت الإبل فى حالة سيئة، ومخزوننا من الماء أوشك على النفاذ.

الاثنين ١٤ مايو: بدأنا فى السادسة صباحاً وتوقفنا فى التاسعة صباحاً، ثم عدنا للسير ثانية فى الخامسة والنصف مساءً لتوقف فى العاشرة مساءً، قطعنا نحو ٣٠ كيلومتراً، كان الجو صحواً وصافياً. فى السابعة صباحاً هبت نسمة باردة من الشمال الشرقى، توقفت فى الظهر، كان المساء والليل هادئين، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٢ درجة مئوية، بدأنا والأرض تتكون من الرمال الناعمة التى تكسوها الأعشاب الجافة والخضراء، وبعد فترة وجيزة من بدايتنا بعد الظهر تغيرت المنطقة لتصبح الأرض متموجة مع وجود أودية مليئة بالأعشاب الخضراء و"النيشا" الجافة، وكانت تلك إحدى الإشارات على أننا نقرب من "إردى". وفى الثامنة والنصف مساءً عبرنا منطقة تلالية امتدت نحو أربعة كيلومترات، ثم بعد ذلك مررنا بوادٍ كبير به أعشاب وبعض الأشجار.

عندما بدأنا فى الصباح نويت أن نستمر فى التقدم لأربع أو خمس ساعات، ولكن سرعان ما أصبح الجو حاراً للغاية وخيمنا فى التاسعة صباحاً، وكانت الراحة لمدة أربع ساعات لها تأثير جيد علينا، ولم يذهب أحد إلى النوم بعد ذلك حتى تناولنا الإفطار.

وبحلول الخامسة والنصف مساءً أصبحت القافلة على الطريق، وأصبح الماء الذى معنا قليلاً للغاية وسيئاً، وبدأت الإبل ضعيفة

ومجهدة. كنا متلهفين على الوصول إلى "إردى" بأسرع ما يمكن، وبعد فترة قليلة من بدايتنا عثر بوكارا وآرامى - ليس ذلك الشخص الذى ضل فى الصحراء واختفى، بل شخص آخر قتل رجلاً من قبل- على آثار "واران" كبير أو سحلية، وتتبعناها إلى جحرها. كان ممارسة القليل من العبث أمرًا جيدًا للترويح، حفرنا داخل الجحر، ولكن السحلية لم تكن فى داخله، تتبعنا آثارها إلى كومة من الصخور، وبعد عشرين دقيقة من الحفر أمسكنا بهذا الكائن.

ويستخدم البدو والسود دهن "الواران" كدواء للروماتيزم، ويقولون إنه إذا حمل شخص ما رأسه معه فإنه آمن من السحر الأسود، ويعلق جلده فى المنازل لإبقاء الثعابين بعيدة، و"الواران" لا يعرض، لكن لديه ذيل مثل السوط يستخدمه فى القتال، وقد دبغ آرامى المخلوق من أجلى.

تتبعنا الآثار التى صنعها دليلنا، لكننا فقدناها أكثر من مرة فى الظلام، وأضبعنا وقتًا كثيرًا فى محاولة العثور عليها، وأخيرًا بدأت تتذبذب أمامنا، ولاحظت أن محمدًا لم يكن واثقًا من اتجاهه. أمرت الرجال بالتخيم، وأطلقت طلقات فى الهواء، وبعد فترة وجيزة انضم إلينا محمد وهارى، اللذان أدركا أننى قررت التوقف، وأخبرنى الدليل أنه ليس واثقًا من الطريق فى هذه المنطقة فى الظلام، لكنه يعلم أننا لسنا بعيدين عن البئر.

وللمرة الأولى منذ أن غادرنا "العوينات" أتيت لنا خمس ساعات من النوم المتواصل، وقبل الذهاب إلى الفراش تحدثت مع آرامى عن "إردى" وآبارها.

فقال "إن محمدًا دليل جيد في ضوء النهار، لكنه كهل ولا يستطيع الرؤية جيدًا في الليل، إلى جانب أنه لم يكن في هذه المنطقة منذ سنوات عديدة، فقد كان يجب أن نخيم بجوار أول بئر هذا المساء، لكننا ضللناها، والله أعلم"، قلت له ألا يقول شيئًا من هذا للرجال، وإلا سوف يزداد قلقهم ويلومون محمدًا.

أعددتُ حقيبة نومي وجلستُ أفكر، كانت تلك أكثر اللحظات المحبطة طوال الرحلة؛ فالرجال فقدوا ثقتهم، وعانوا من الحرارة كثيرًا، وكانت الإبل تضرب بشدة للسبب ذاته، والدليل لم يكن واثقًا من الطريق، وبدأ الماء ينفد ويفسد، وكان أى من هذه الأمور كفيلاً بأن يجعل المرء قلقًا، ولكن وجودها مجتمعة تحطم أعصابه تمامًا.

وبينما كنتُ أستعرض صعوبات الرحلة وأخطارها - حتى هذا الوقت - تذكرت أن أحدًا لم ير أرامى المجنون أو أخاه ملكونى الذى ذهب ليبحث عنه مرة أخرى، ووجدتني أتساءل عما إذا كان القدر ينوى أن يسلبني ما كنتُ قادرًا على إنجازه؛ فلو كان القدر ماهرًا، فقد تخير اللحظة الملائمة ليضرب ضربته، فإذا كنت قد أخطأت "أركينو" و"العوينات" لم يكن الأمر سيصبح قاسيًا، ولكن الآن بعد أن حققت إنجازى المتواضع، كنت أشعر أنه يجب أن أعود به للديار. وتساءلت ترى أتكون ليلة بلا نوم؟! ولكن الصحراء مارست سحرها مرة ثانية، وتعجبت أن أجد جفونى أصبحت أثقل، وأن النوم الذى جاء كان حلواً للغاية.

الثلاثاء ١٥ مايو: استيقظنا فى الرابعة فجراً، وكنا لانزال غير متأكدين أين نحن؛ لذا تقدمت مع محمد وهارى لنستطلع المكان،

عندما بزغت فجأة أمامنا تلال "إردى" الحمراء، أرضيتُ نفسي بتفحصها بنظارتى المعظمة لأتأكد أنه لم يلتبس علينا الأمر، وبعد ساعة من ذلك انطلقنا صوبها، وقبل أن نبدأ ثار جدل أيهما أفضل أن نخيم فى التلال عند بداية الوادى الذى ينتهى عنده البئر، أم نهبط إليه. كان النزول صعبًا على الإبل، ورغم هذا فقد قررنا أن نهبط ونخيم فى قاع الوادى، ففى حالة تعرضنا لهجوم مغيرين فسوف يكون لدينا مصدر للتزود بالماء.

وتدريجياً بدأنا فى تسلق ممر وعر بين جروف من الصخور الحمراء، وفجأة خرجنا إلى قمة جرف عالٍ حيث يمتد وادى "إردى" الذى كان منبسطاً تحتنا؛ وهو عبارة عن وادٍ ضيق يبلغ طوله عشرة كيلومترات تقريباً، بينما لا يزيد اتساعه عن ١٠٠ متر، تحيط به حروف حادة من الصخور الحمراء. وبعد السريرة الرتيبة الجرداء والصخور غير الصديقة التى كنا نجتازها منذ أن غادرنا "العوينات" تأتى تلك الأشجار والأعشاب الخضراء، لتوحى بكل ما تعنيه جملة "واحة فى الصحراء"، وبينما كنا نقترّب من البئر سبقنا محمد وهارى مرة ثانية ليستطلعا المنطقة؛ فالسود دائماً حذرون عندما يصلون إلى بئر؛ إذ إنهم لا يقتربون منها مباشرة، بل يرسلون رجلاً أو رجلين أمامهما ليتأكدوا ما إذا كان هناك أحد بالفعل، وأنه ليس غريباً أو على الأقل ليس عدواً؛ لذا فالدليلان كانا لم يحددا الطريق الذى يجب أن نتبعه فحسب، بل سيكتشفان أيضاً إذا ما كان يجب علينا أن نكون متيقظين لأى هجوم مباغت عندما نقترّب من البئر أم لا.

سلكنا طريقنا بجهد عبر ممر وعر مفضى إلى الوادى، ونصبنا خيامنا عند بدايته، وكانت البئر تقع فى أقصى جزئه الجنوبى، ولا

يوجد طريق للوصول إليها بأمان من أعلى - دون وجود خطورة
بالغة على الإبل - فيما عدا الطريق الذى هبطنا منه.

اشتركت الوجبة الهائلة من الأرز والخبز الطارج الذى أعدناه
مع الجو الرائع المحيط بنا فى أن تجعلنا جميعًا سعداء كما لو كنا فى
حفل عرس، أما أفكارى السوداء فى الليلة السابقة فقد بدت الآن
كابوسًا منافيًا للعقل، على الرغم من وجود قدر كبير من الحقيقة بها؛
ففى الصحراء غالبًا ما تكون المسافة التى تفصل بين الأمان والراحة
والكارثة لا تتجاوز فى اتساعها سُمْك شعرة الرأس الواحدة.

بعد أن شربنا ثلاثة أكواب من الشاي الساخن شعرنا بكسل
الرفاهية، وذهب الرجال إلى البئر ليسقوا الإبل وليجلبوا ماء للمخيم،
وعندما عادوا بدأت الحلاقة والاستحمام وغسيل الملابس، واستعادة
احترام الذات، والثقة، وعادت الحياة مبهجة من جديد.

وفى الخامسة بعد الظهر تسلقت حائط الوادى ومعى الثيودوليت
وجمعت بعض الملاحظات، بينما ذهب زروالى وسنوسى بوحسان
وآرامى ليصطادوا "وادان" أو خروفاً جبليًا، لكنهم عادوا بخفى حنين.
وعندما سألت آرامى عما إذا كان خطأ القناصين أجاب "والله، لا، فقد
صوبوا على نحو صحيح، ولكن الله كان رحيمًا بالوادان".

مضت ليلة المخيم فى إراحة الإبل والغناء والمرح، وشعرتُ
أننى لا أحتاج إلى شىء من هذه الليلة سوى الأحلام السعيدة.

الفصل الثامن عشر

الدخول إلى السودان

«استيقظت مبكرًا كي أفتح صندوق الأفلام، وأعيد ملء الكاميرات بينما كان الجو لا يزال باردًا. وفي الساعة صباحًا خرجت مع محمد وحمام لزيارة البئر».

وادي "إردى" الذي يعرف باسم "كركور" هو منخفض ضيق طويل ينساب بين التلال كالثعبان، ويجرى صوب الجنوب لنحو سبعة أو ثمانية كيلومترات، لينتهي عند جزء مسدود يشبه الجيب؛ حيث يقع البئر في تجويف ظليل تحت الصخور، وهو ذو شكل شبه دائري يبلغ طول محيطه نحو ستة أمتار، وتشبه هذه البئر تلك التي في "العوينات"، وإن كنت أشك أنه بالإضافة إلى ماء المطر فإنها من المحتمل أن تعتمد في تغذيتها على المياه الجوفية. وكان الاقتراب منها وعراء، وإلى حد ما كانت خطرة في التسلق، حتى إنه في الليلة السابقة انزلق أحد الإبل الذي يحمل المياه وأصاب نفسه إصابة سيئة.

بعد أن تسلقنا للوصول إلى العين، استرحنا وتناولنا الشاي، ثم عدنا للديار تحت لهيب الشمس الحارقة، كان الوادي جميلًا بحوائطه شديدة الانحدار ذات الصخور الحمراء، بينما تنتشر الأعشاب الخضراء والأشجار عند سفوحه. وقد أخبرني محمد أن هذا الوادي يعد من أصعب الأودية في هذا الإقليم من حيث الدخول إليه؛ لذا فهو يعد أسهلها في الدفاع عنه.

وعند الغروب تسلقت حوائط الوادى لأشاهد غروب الشمس الرائع ومشهد الضوء على الرمال الحمراء والصخور الوردية الملونة، كما خلق الرجال رءوسهم، وشذبوا لحاهم، وغسلوا ملابسهم ورتقوا، التى أصبحت مهترئة للغاية.

أنقذ عشب الرعى فى هذه المنطقة إبلنا، وكان من الحكمة أن نمضى هذا اليوم فى الراحة والتعافى. وأخبرنى محمد وهارى أنه اعتباراً من الآن، لن يكون من الممكن السفر ليلاً؛ فقد كانت المنطقة كثيرة التلال، ولن تكون آمنة للسفر فى الظلام، وقد سلم كل البدو بمهارة محمد، بعد قيادته للإبل وسط الصخور شديدة الانحدار، للوصول إلى الوادى أمس.

فى المساء انطلق الكلب فى نوبة نباح، وشككنا أن أحداً كان قريباً منا؛ لذا أسرعنا بإطفاء النيران، وجمعنا الإبل معاً، وجهزنا بنادقنا، ووضعنا خفارة حول المخيم من الخارج، لكنه كان تحذيراً كاذباً، ومثل هذا الحذر الذى يشبه الحذر الذى نأخذه عندما نقرب من بئر ما، قد يبدو سخفاً عندما ينتهى الأمر، ولا يحدث شئ، ولكن فى المناطق المجهولة مثل هذه فإن القافلة التى لا تتخذ قد تكون حمقاء للغاية؛ فهجوم أفراد القبائل المعادية أو الخارجين على القانون أمر ليس بعيد الاحتمال.

الخميس ١٧ مايو: استيقظنا فى الرابعة صباحاً، وأصبحنا على الطريق بحلول الخامسة والنصف، كان التسلق للخروج من الوادى لا يقل صعوبة عن النزول إليه، وانزلق أحد الإبل، إلا أنه من حسن الحظ لم تنجم نتائج خطيرة، وعندما وصلنا إلى حدود الوادى ونظرنا

خلفنا، لاحظت الاختلاف بين الأودية في هذه التلال وتلك التي في "أركينو"، و"العوينات"؛ فهنا كان قاع الوادي على المنسوب ذاته للسهل الخارجي، والمرء يدخل إليه من خلال المرور عبر ممر كما لو كان يجتاز بوابة، بينما في الإقليم الذي كنا به الآن كانت الأودية عبارة عن منخفضات أسفل المنسوب العام للمنطقة، والمرء ينزل إليها من خلال الدوران عبر ممر صخري.

وخلال ساعة خرجنا من الوادي، وانعطفنا صوب الجنوب الشرقي؛ كنا في منطقة جبلية من الصخور السوداء والحمراء، وكان جلياً أننا لا نستطيع السفر فوق هذه الأرض في الظلام. وفي التاسعة والنصف صباحاً هبطنا إلى واد كبير عبر ممر شديد الانحدار، وفيه تعثر جملان وألقيا حمولتيهما، وكان أحدهما يحمل مياهاً، وكان قريباً للغاية من أن تدق عنقه، لولا ذهن عبدالله الحاضر، الذي سحب سكيناً وقطع حزام السرج مما أنقذ الموقف. وانفتحت السدادة الخشبية لأحد الفنتاسين وسكب ثلاثة أرباع الماء الموجود به، ومن حسن الحظ أن البئر التالية كانت على مسيرة ثلاثة أيام أمامنا، كما كان لدينا رصيد وافر لرحلة أطول. فحادثه مثل هذه قد تعد كارثة إذا ما كنا في "الدفا" أو كما يسمى الطريق الطويل الخالي من المياه الممتد بين الآبار.

في هذا الصباح حدث فجأة موقف خطير، وكاد أن يسفر عن نتائج مهلكة لولا شيء من الحظ؛ فقد كان أحمد - الطاهي الذي قدم معي من مصر - يمتطي جملاً بلا لجام، وسبق أن طلب من حميد - جمال بوحليجا - أن يزوده بلجام، إلا أن الأخير لكونه عليمًا بطرق الإبل، رأى من الأفضل عدم فعل هذا؛ لأنه كان الأهم أن تكون الإبل

قادرة على الرعى على سجيبتها، فقد كانت فى حاجة للطعام أكثر من حاجتها للتوجيه.

وفى هذه الأثناء رأى جمل أحمد باقة من العشب الجيد؛ فهرع إليها مباشرة، وفى الطريق مر أسفل شجرة كثيفة الأشواك، ولم يستطع الراكب أن يفر من البروزات الحادة الناتئة من الشجرة، فجرح وجهه جرحاً شديداً، وتحت تأثير الألم، شرع أحمد فى لعن الجمل ومالك الإبل، وعلى الفور رد حميد بالمثل ولعنه قائلاً له ألا يلعن الشريف مالك الحيوانات.

وبالمصادفة كنت قريباً منهما، وفى قرارة نفسى أثبتت على سلوك الجمال وولائه لسيدته بوحليجا.

هبط أحمد سريعاً من فوق جملة، والدماء تتدفق من وجهه، وذهب فى ثورة غضبه صوب حميد، وهرع كل من سنوسى بوحسان، وحميد الآخر، وسعد العجيلة ليأخذوا جانب شقيقهم البدوى، بينما وقف عبد الله بجانب أحمد، ليصبح المصريان كتفاً بكتف.

كانت لدى خبرة بمثل هذا الشجار من قبل، ونظرت سريعاً لأرى أين توجد البنادق، وشعرت براحة عميقة وأنا أراها مربوطة بأمان فوق ظهور الإبل، ولم يكن مع الرجال سوى العصي ليتقاتلوا بها، ورغم هذا كان من الضروري اتخاذ موقف حازم قبل أن تصبح المشكلة أكثر خطورة.

عدوت بفرسى وسط الرجال، ودفعته بين الفريقين المتقاتلين، وبملاحظة أمرت أحمد وعبد الله أن يتراجعا، كانت أكثر اللحظات

صعوبة؛ ففي أحد الجوانب يقف رجالى وفى الجانب الآخر يقف رجال قافلتى.

نظر سنوسى بوحسان وحميد خلفهما، وفى جزء من الثانية رأيت أعينهما تركز على البنادق المعلقة، وكانت أية كلمة مشجعة منى للفريق الآخر قد تعنى كارثة؛ لأن البدو يفوقونا عددًا، وفى الجانب الآخر لم يكن الوقت ملائمًا لأهين رجالى أمام البدو، حتى ولو كانوا مخطئين؛ لذا سألت الرجال فى كلا الجانبين بلا تحيز " ماذا تقصدون بتصرفكم هكذا مثل الأطفال؟ رجال مثلكم يجب أن يخلجوا مما يحدث!"

بدأ حميد فى التحدث " لقد أهاننى".

. قاطعه أحمد " لقد هاجمنى عندما كنت أهبط من فوق جملى".

أعلنت بحدة " أنا لا أبالى مَنْ أهان مَنْ أو مَنْ هاجم مَنْ، جميعكم رجالى، ومن العار أن أراكم تتصرفون هكذا مثل جماعة من الأطفال".

وفى هذه اللحظة حضر زروالى، واستدريت إلى عبد الله ثم إلى سنوسى بوحسان، وقلت لهما بصرامة "وأنتما يا أكبر مَنْ فى الرجال سنا، بدلاً من أن تهدئا الموقف أجدكما بشاركان فى هذا الشجار المهين، لعلنى ارتكبت خطأ، كان على أن أختار رجالاً لقافلتى وليس صبية".

وفى هذه الأثناء بدأ كلا الجانبين يهدآن، ويفقدان نظرتيهما المتوترة التى يتسم بها رجال على وشك أن ينخرطوا فى شجار.

ووجدت زروالى، الذى من المحتمل أنه توقع أن آخذ جانب أبناء
بلدتى عبد الله وأحمد - وكان غير مسلح - يفعل شيئاً غير متوقع، فقد
أمر العبد فراج قائلاً "ضع حميد على الأرض، سوف أجده بسوطى".

وفى سرعة البرق قام فراج قوى البنية بإلقاء حميد بفضاظه على
الأرض وشل حركته بركبتيه، وقبل أن أستطيع معارضة سوط
زروالى، كان قد هبط عليه مرتين، ولكن فى هذا الوقت كنت قد
ترجلت وأمسكت بذراع زروالى.

وقلت جازماً "إنها ليست مسألة عقاب، نحن لا نعلم من المخطئ،
سوف أتحقق من الأمر بنفسى، وأعاقب بيدي من يثبت أنه مذنب".

واستدرت للرجال وأمرتهم "اتبعوا الإبل".

وأمرت محمد وهارى، اللذين ظلا بلباقة بعيدين عن هذا الأمر،
وأنا أشير بعصاتى "قودا القافلة".

تحرك الجميع، وسرت بمفردى، محاولاً الحفاظ - من أجل
الصالح العام - على تعبيرى المتجهم الرافض، وتدرجياً تحرك
زروالى بالقرب منى وسأل مستكراً "لعل البيه ليس غاضباً مما
حدث؟ ربنا العالم أننى عندما استيقظت هذا الصباح، كان هناك شيء
ثقيل يطبق على قلبى، وشعرت بكل تأكيد أن أمراً بغيضاً سوف
يحدث، وشعورى عكسه سلامك على".

ولاحظت أننى أيضاً خامرنى شعور غامض، ولم يكن هناك
سبب له؛ فكل شيء كان يمضى بنعومة وعلى نحو جيد، ورغم ذلك
فقد كان هناك شيء يحزننى.

وخلال فترة وجيزة بدا الجانبان مثل الأطفال غير المطيعين، ولاحظت أن كلا الجانبين يختلسان النظر إليّ، ليريا إذا ما كان غضبى قد زال أم لا، لكننى حافظت على أمارات التجهم حتى وقت الغداء.

أولئك الذين سافروا فى الصحراء، ويعرفون البدو، سوف يدركون مدى احتمالات خطورة هذا الموقف؛ فكلمة واحدة قاسية يتم تأويلها كإهانة قد تعنى إطلاق النار إذا كانت البنادق قريبة من اليد؛ لذا فلو كانت البنادق مع الرجال، وكنت بعيدًا بضع مئات من الياردات - على النحو المألوف - لكان هناك بكل تأكيد إطلاق نار، وكان من المحتمل أن يقتل البدو أحمد وعبد الله من ناحية، ومن ناحية أخرى ماذا كنت سأفعل؟! كمصرى كنت سأثار لأبناء جلدتى مهما كلفنى الأمر.

لذا فقد كان حظنا جيدًا أن البنادق كانت مربوطة بالإبل، وكنت أنا قريبًا من الموقف.

قال زروالى "نحن قريبون من نهاية الرحلة، وعند هذه المرحلة عادةً ما يتشاجر الرجال".

ومع مرور الوقت تلاشت آثار هذه الحادثة الخطرة.

أصبحت الشمس شديدة الحرارة، وخيمنا فى الوادى فى ظل بعض الأشجار الصغيرة، ووجدت الإبل بعض الأعشاب الصالحة للرعى، بينما أكلنا واسترحنا. وقبل أن نبدأ بعد الظهر جاء محمد، وسنوسى بوحسان، وبوكارا، وحميد الجمال، ليطلبوا منى أن أسامح حميدًا لأنه سمح لغضبه بأن يتغلب عليه عندما تشاجر مع أحمد،

وعفوت عنه بكل سرور، وذهب إلى أحمد وقَبَّلَ رأسه، ورد أحمد
المجاملة، وعندها انتهى الشجار وفق أفضل التقاليد البدوية.

واصلنا هبوط الوادى الضخم لنحو ثلاث ساعات، وخيمنا بالقرب
من مصبه فى الساعة السابعة والرّبع مساءً، وقبل فترة قصيرة من
توقفنا رأينا فى المواجهة تلال "آجه" حيث تقع البئر التالية. كانت
الأرض الممتدة أمامنا عبارة عن سريرة مستوية، وكان من المريح
رؤيتها؛ ففي الصباح عندما كنا نهبط عبر الوادى بدا كما لو أن كل
حقائبنا ستصبح قطعًا صغيرة، إذا ما كان هناك المزيد من هذه
المنحدرات؛ ففي بعض الأماكن كان الهبوط شديد الوعورة؛ لذا كان
من الآمن لنا أن ننزل حمولة الإبل، وأن يحمل الرجال الأمتعة
ويهبطوا بها على الصخور شديدة الانحدار، والتي كانت تصل لنحو
ثلاثة أقدام من صخرة إلى أخرى.

بزغ القمر الجديد ونحن نخيم، وكان اليوم التالى هو يوم عيد
الفطر الذى يأتى بعد نهاية شهر رمضان، وجاء زروالى ليقول إن
الرجال يبغون الاحتفال به وفقًا للعقيدة الإسلامية، ورحبت بذلك،
طالما أن تلال "آجه" كانت على مرمى بصرنا، ومؤن المياه كانت
وفيرة، بالإضافة إلى أن عشب الرعى الممتاز فى هذا الوادى كانت
الإبل فى حاجة له.

نهضنا جميعًا مبكرًا فى اليوم التالى (الجمعة ١٨ مايو)،
وارتدينا ملابس نظيفة للاحتفال بيوم العيد، وتبادلنا الأمنيات الطيبة،
ثم تبعتها بصلاة العيد، كانت هناك نظرة تكسو كل وجه، وكان
الرجال يفكرون فى أولئك الذين تركوهم فى الديار.

أخرجت بعض الجنيهاات المجيدة والجنيهاات المصرية ووزعتها؛ حيث ذهبت العملات المعدنية إلى كل من محمد، وهارى، وحسان، وآرامى، الذين كانوا سيتركوننا قبل أن نصل إلى الحدود حيث الجنيهاات المصرية متداولة هناك، بينما حصل الباقي على أوراق البنكنوت التى سيكونون قادرين على استخدامها فى "الفاشر"، وأعطيت زروالى عشرين خرطوشة من طلقات المسدسات وزجاجة عطر، بينما قسّمت زجاجة العطر الأخرى بين الرجال، وتلقى بوكارا أحد غليونائى وتبغاً ليستخدمها، وأعلن أنه لا يدرى ماذا يفعل ليرد كل هذا العطف الذى أبديته نحوه، وقال "لا أملك سوى جملى والملابس التى ارتديها، لقد أعطانى قيمة جملى تبغاً".

كان مخيمًا بهيجًا وقت الإفطار؛ فقد كان الرجال مسرورين بهداياهم، وكنت أستمع برضاهم، وبعد الإفطار تمددنا جميعًا من أجل غفوة قليلة، إلا أننا نهضنا سريعًا وأجسادنا تحك بقوة نتيجة لهجوم النمل الأبيض.

فى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، كنا قد بدأنا السير، وبعد نصف الساعة من ذلك خرجنا من الوادى إلى السريرة، وفى مواجهتنا كانت تمتد سلسلة من التلال صوب الشرق والغرب وفى وسطها جبل كان يقع "أيسلنجة"، وإلى اليمين جبل "آجه" الذى كنا نتجه صوبه، وخبرنى هارى إنه توجد بئر أيضًا فى جبل "أيسلنجة"، ولكن كان من الصعب الوصول إليها، وكان الوادى الذى خيمنا عنده أبرز ما يميزه هو وجود شجرة عند الجانب الشرقى لمدخله.

كان يومًا حارًا، وتحركنا ببطء لمدة ست ساعات، حتى وصلنا إلى حزام من الكثبان الرملية أوقف تقدمنا ليلاً.

السبت ١٩ مايو: بدأنا فى الخامسة والرّبع صباحًا، وتوقّفنا تمامًا فى الثامنة مساءً، كانت هناك رياح شمالية شرقية حارة تهب من التلال، توقفت فى المساء، سرنا فوق رمال ناعمة شديدة التموج مغطاة بأعشاب جافة، وكلما اقتربنا من التلال كان تسطح الأرض يزداد مع وجود رقع من الصخور السوداء الصغيرة. وسرعان ما أصبحت الشمس حارة فى الصباح، كما تعرضنا لهبوب رياح حارة؛ لذا خيمنا فى التاسعة والنصف صباحًا فى ظل شجرة "تومتوم"، وكان ظلها السار ونبوءاتها من الثمار الحمراء تضيف شكلاً جذاباً فوق رعوسنا.

فى الثالثة والنصف بدأنا مرة أخرى على الرغم من الحرارة، على أمل الوصول إلى تلال "آجه" قبل حلول الظلام، وكان على الإبل أن تضرب حتى نبعدّها عن ظل الشجرة، لتمضى تحت الشمس الحارة، وفى الساعة والنصف مساءً وصلنا إلى سفوح التلال، مع بزوغ الهلال الشاحب، وفجأة أطلق محمد تحذيرًا؛ فقد عثر على آثار حديثة لأقدام رجلين تقود إلى "ميردى"، وفى الصحراء فإن الشعور بوجود غريب على مقربة أمرًا يدعو لليقظة حتى يُثبت أنه ليس عدوًا، حُلّت البنادق سريعًا، ونزعت الأقمشة المليئة بالزيت التى كانت تسد خزائنها وعُمرت بالطلقات، وجمع الرجال الإبل التى كانت تنتشر هنا وهناك لترعى، وتقدم محمد، وهارى، وسنوسى بوحسان للأمام صوب الوادى ليستطلعوا الأمر، وبعد البحث الدقيق عادوا ليعلنوا أنه لا توجد آثار تقود إلى الوادى، ولكن هناك آثار حديثة تخرج منه. خيمنا عند مدخل الوادى الخالى من الأشجار والنباتات حتى نرى إذا ما اقترب أحدهم ليلاً، تناولنا عشاءنا على عجل،

وأطفأنا نيران مخيمنا، ووضعت الإبل والقرب في منتصف المخيم، ورتبت الأمتعة حول حدوده، ووضعنا أربع نوبات للحراسة في أثناء الليل، وذهبنا إلى مضاجعنا، ولكن النوم كان عسيرًا، بسبب حرارة الجوى الخانقة والترقب.

في صباح يوم الأحد استيقظنا مبكرًا، واقتربنا من الوادى بحذر، ومررنا بأثار حديثة لأغنام ورجال، كنا على يقين أن أحدهم يخيم في الوادى، لذا سبقنا محمد وهارى؛ لأن سكان هذه المنطقة كانوا من "القرعان"، ولا يوجد شخص آخر يتحدث لغتهم، وسرعان ما عادا ومعهما ثلاثة أفراد من القرعان، قابلتهم وفي وقار تبادلنا مراسم الأمان؛ حيث تقدم كل منا صوب الآخر وألقى ما كان معه من أسلحة "سيوفاً أو بنادق" على الأرض، وخاطبتهم بعبارات تحمل جلال الزمن "أقسم بالله أننا رجال مسالمون، وأننا لا ننوى بكم أى سوء، وأننا لا نعتزم سركتكم"، ثم فعل فرد منهم بدوره الشيء نفسه، ثم انخرطنا في أسئلة وإجابات مختصرة من كل جانب، من أنتم؟ متى جئتم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟ لأى غرض؟ ثم تصافحنا بالأيدي بصورة رسمية، والتقط كل منا أسلحته، وانسحب الجانبان.

حاولنا شراء خروف منهم، لكنهم رفضوا بيعه، وخلال فترة وجيزة رحلوا ثم عادوا ومعهم ثلاثة خراف، قدموها لنا على سبيل الضيافة، رافضين قبول أى ثمن لها، وردًا على مجاملتهم أعطيتهم قماشاً أزرق، كانوا سعداء به للغاية.

أرسلت الإبل للبئر لتشرب ولتحضر المياه للمخيم، بينما شغل الرجال أنفسهم بالإعداد لوليمة اللحم الكبيرة، وبعد الظهر التقطت

بعض الصور للمنطقة، وفي المساء جمعت بعض الملاحظات العلمية، وكان المصباح اليدوي " البطارية " الذي كنت أستخدمه في قراءة الثيودوليت يفرع صبية " القرعان " في البداية، ثم أصبحوا يسنروا لرؤيته بعد ذلك.

ولعل وادي " آجه " جدير بأن يكون مشهدًا لصورة رائعة، وهو عبارة عن ممر طويل ضيق يمتد بين جروف عالية، تكثر به النباتات والأشجار، أكثر مما رأيناه في هذه الأرجاء، وعند منتصفه يتشعب إلى فرعين أحدهما يمتد في اتجاه الجنوب الغربي صوب البئر، والآخر يمتد في اتجاه الجنوب إلى الصحراء الشاسعة، والبئر التي توجد عنده تشبه تلك التي كانت في "إردى"، ولكن ماءها ملوث بشكل سيئ بفعل الأغنام والإبل، والوادي مليء بالطيور التي كان تغريدها العذب يجعل المرء يظن أنه أمام أحد أقفاص الطيور بحديقة الحيوان.

استيقظنا ولا تزال الدنيا ظلامًا، والنجوم تلمع في السماء. وجاء القرعان ليودعونا، وبعد أن سرنا لمسافة صغيرة انحرف آرامى وحسان إلى الجنوب أكثر، وتركنا ليعودا إلى "العوينات" ومعهما جمل آرامى، بينما اتجهنا إلى أسفل صوب التشعب الشرقي من الوادي، وكانت جوانبه شديدة الانحدار تحمينا من الشمس، وفي الطريق رأينا ثلاثة غزلان، وحاول بعض الرجال مطاردتها، ولكن الحيوانات الفطنة تسلقت التلال واستطاعت الفرار. وأطلق حامد وهو من الزوى النار على أحدها وأخطأه، وحتى لا يسخر منه الآخرون، رفض الاعتراف بفشله الكامل، وأذكر ذلك بقوة قائلاً "بعون الله أصبته، لقد رأيت الدماء تسيل منه". ولم يكن الأمر يعنى كثيرًا طالما أنه كان لا يزال لدينا لحم متبقٍ من ضيافة القرعان.

سرعان ما أصبح الجو شديد الحرارة ورفضت الإبل أن تتقدم؛
لذا خيمنا في ظل شجرة، إلا أنه سرعان ما اكتشفنا أن أفضل حماية
من الشمس بين الصدوع الصخرية.

تركنا الإبل ترعى على سجيبتها وهدأ الرجال ليستعدوا لوجبة
الظهيرة، فذبح خروفان وغرس لحمهما في عصي، وقلبا ببطء فوق
النار حتى يتم شواءهما بالطريقة البدوية، كان مذاقهما لذيذاً. وفي
أثناء إعداد اللحم، جرح سعد يده، ورأيت الدماء تسيل منه، وسألت
من أين جاءت؟! فقال بوكارا "من غزال حميد، ومرة أخرى انطلقت
الضحكات بين الرجال حول واقعة الصيد الفاشلة.

بعد الغداء ملأت ساعاتي، وسجلت قراءات البارومتر الجاف،
وترمومترى درجة الحرارة القصوى والصغرى، ودونت مذكراتي،
وفجاء جاء حميد يعدو نحونا وهو يقول إنه رأى سرباً من النعام
قريب منا، قبضنا جميعاً على بنادقنا، ووقفنا مستعدين، وسرعان ما
ظهر النعام، وكان عدده يتراوح بين الثلاثين أو الأربعين، إلا أن
البدو كانوا غير صبورين وفتحوا النيران عليها، بينما كانت المسافة
لاتزال كبيرة للغاية، فاندفع النعام إلى وادٍ آخر، والرجال يلاحقونه
بحرارة، وأطلقت العديد من الطلقات، ولكن سرعان ما عاد زروالى
ليقول إنه لم يتم اصطياد أية نعامة.

وبعد فترة وجيزة ظهر حميد وهو يحمل نعامة صغيرة، ويتبعه
سنوسى بوحسان، كان كلا الرجلين يطالبان بحق إصابة الطائر،
ونظراً لأنه كان مصاباً بطلقتين - رغم أن أيهما قد تكون أمانته -
فقد حضرا إلى لأحكم فيما بينهما، وسألت عن رأى الرجال الذين

شاهدوا إطلاق الرصاص، فأجمع الكل على أن طلقة حميد هي التي صرعت الطائر؛ لذا حكمت لصالحه.

أما حميد الآخر - الجمال - فقد كان ضئيلاً، حاد الملامح، لا يخشى حيواناً حتى الثعابين، وقد فوجئ بنعامة في أحد الأجزاء المغلقة من الوادي، وبعد أن فشل في الهجوم عليها بالأحجار، اندفع صوبها وأمسكها من عنقها، وتصارع معها بشجاعة، لكنها رفسته في جنبه بإحدى قدميها القويتين، وفرت - كنت أشاهد هذا القتال من خلال نظارتي المعظمة، وتكاد جوانبي أن تتفجر من الضحك - ثم قفزت النعامة حافة الوادي وهي تنظر خلفها باحتقار إلى حميد، الذي وقف يلعنها وينفض ريشها عنه، ثم سار في مشية امرأة عجوز ويده تضغط على الجانب الذي أصابته النعامة.

وعندما عاد سأله على انفراد "هل أصابتك النعامة؟"

فأجاب سريعاً بعد أن رفع يده من على جنبه "آه، لا"

فسأله مرة ثانية "إذا لماذا لم تعد بها؟"

فعل ذلك بتفسير يحمل قدرًا من القناعة "كان على أن أتركها تذهب، فما هي إلا أنثى".

ولعل أحد أكثر الأمور التي ندمتُ عليها في هذه المرحلة هو أنني لم أكن قادرًا على متابعة الصيد كما كنت أحب؛ فليلة السير بين "العوينات" و"إردى" تركتني في الصباح مجهدًا للغاية، لفعل أي شيء عدا تسجيل قراءات مُعداتي العلمية، ومحاولة اختلاس ساعة أو ساعتين من النوم قبل أن يصبح الجو حارًا للغاية، كما أن مؤننا من

الطعام بدأت تتناقص وتتناقص، ولم أستطع المكوث في "آجه" حيث يوجد الكثير من الغزلان، والنعام، والخراف البرية؛ فندرة المياه جعلتني لا أضيع وقتًا كثيرًا هناك؛ حيث إن البئر كانت شديدة التلوث بفعل الحيوانات. كما كانت بندقية الجيش المصرية القديمة التي معي، وبندقية الفرسان الإيطالية التي أهديت لي في "الكفرة" تصلحان للاستخدام في الدفاع عن النفس فقط، بينما فائدتهما كانت ضئيلة في القنص من على مسافات بعيدة، خاصة بالنسبة للغزلان؛ لذا كان الصيد رفاهية أنكرتها على نفسي.

كان الجو شديد الحرارة، ولم نستطع البدء حتى الخامسة مساءً، وبعدها واصلنا السير في الوادي البهيج لما يربو على الساعة، وبعد ذلك بدأنا في تسلق التلال، وعندما وصلنا إلى القمة كنا نستطيع رؤية جماله بوضوح؛ حيث كانت التدرجات الخضراء من الأشجار والشجيرات تصنع شكلاً خلاباً فاتناً يتناغم مع الرمال الوردية والصخور الحمراء للتلال التي تحرس الوادي، والأصوات الناعمة للحمام الذي لا يحصى عدده، والذي كان يخلق مع نسيمات المساء الباردة، وغروب الشمس الرائع، بلونيه الأحمر والذهبي، لتكتمل هذه المجموعة التي ليس من السهل نسيانها، أوقفت حصاني، ومكثتُ نصف الساعة سعيداً، وأنا ممدد فوق الرمال الناعمة أرتشف من بهجة هذه القطعة الصغيرة من الجنة، وسرعان ما حل الظلام، وبدأ الهلال، ومن بعيد سمعتُ بدو قافلتني يغنون، نهضت على كره وعدت للطريق من جديد.

وسرعان ما أصبحنا فى منطقة مختلفة وعرة وشديدة التموج، تحيط بها تلال شديدة الوعورة، وكانت الإبل تعاني من ماء "آجه" الملوث، والرجال أيضاً. لذا خيمنا مبكراً لهذا السبب، وبسبب أنها كانت منطقة من الخطر السفر فيها على هدى ضوء قمر ضعيف، فقد انعطفنا صوب وادٍ ذى رمال ناعمة يبعد نحو مائتى متر عن طريقنا، وخيمنا هناك.

استيقظنا يوم الثلاثاء ٢٣ مايو، وكانت النجوم لم تغادر السماء بعد، وبدأنا مع شروق الشمس الرائع، تحركنا ببطء، نظراً لكثافة الشجيرات والصخور المتناثرة، بالإضافة إلى أن محمداً وهارى لم يطأ هذه المنطقة منذ عشر سنوات، لذا كانا يفتشان عن الطريق بحذر.

قلت لحמיד الجمال بينما كنت أسير فى موضعى المفضل خلف القافلة "أحسب أن محمداً يمتطى جملة وإلا ما تحركنا بمثل هذا البطء". فقال رفيقى الفطن بسرعة "يا بيه، الرجل أشيب الشعر يسير، فأثار أقدامه على الأرض".

ومرة أخرى أعجبت بقوة ملاحظة البدو، خاصة الجمالين، فقد عرف حميد خصائص آثار قدم كل فرد يسير فى القافلة، وبالطبع كان يعلم آثار أقدام كل جمل أيضاً.

فى يوم الأربعاء استيقظنا مبكراً عن المعتاد، لتلهفنا على الوصول إلى بئر "عنبه"؛ فمياه "آجه" كانت أسوأ ما تذوقناه، وكانت آثارها على الرجال والإبل سيئة، وبعد ثلاث ساعات من السير وصلنا إلى حدود الوادى حيث تقع البئر، هبطنا إليها واكتشفنا من

آثار أقدام الأغنام، والحمير، والرجال الموجودة فى المنطقة أن المكان مأهول بالسكان، لذا سبقنا محمد ليقابل الرجال الذين يعيشون هناك، ويعطى ويتلقى الأمان، وسرعان ما خيمنا بجانب البئر، كان الماء ممتازاً، واستمتع الرجال والإبل بمذاقه.

كان هناك بالفعل مخيم كبير للبدو، به مئات الأغنام، وبضعة خيول، وبعد قليل حضر كل السكان يقودهم الشيوخ لتحيتنا، تصافحت معهم، ووزعت بعض العطر عليهم واضعاً القليل فى يد كل منهم.

بعد الظهر أحضروا خروفاً كضيافة، ومن بينهم امرأة كانت لديها حاسة تجارية قوية - عرضت زبدًا وسمناً وجلدًا لتبيعه لنا، وأعطيناها فى المقابل جنيهاً مجيدية وأقمشة. وفى المساء جمعت بعض الملاحظات وكان البدو - سكان المنطقة - مرعوبين من الثيودوليت والبطارية، وبدأت شكوكهم تتزايد؛

حتى إن أحد الشيوخ دخل خيمتى وباغتتى وأنا أفتح حقيبة المعدات العلمية التى كانت معى، وعندما شاهدته أغلقت الحقيبة سريعاً، وقتها أدركت على الفور خطئى؛ فقد استطعت أن أرى فى وجه الأسود القاسى وعينيه الصفراوين اللتين كانتا تشبهان عيني الثعلب أنه يؤمن بأن معى ذهباً فى الصندوق، وبينما كان يغادر خيمتى أمرت سنوسى بوحسان وحميداً أن يقفا كحراس فى المخيم، وأشرت لهما وأخبرت الشيخ ألا يسمح للنساء أو الأطفال بالاقتراب من المخيم فى الليل، مخافة أن يرتكب رجالى خطأ ويطلقون النار عليهم، كانت مجرد إشارة إلى أننا متيقظون للغاية؛ لذا فلا أمل فى مباغتتنا واستطعت رؤية الإشارة وهى تصل إلى مقصدها.

الفصل التاسع عشر

إلى فوراويا مع نقص المون

«وادي "عنبه" تكسوه الرمال الناعمة التي تنتشر فوقها الشجيرات الجافة والخضراء بالإضافة إلى الكثير من الأشجار».

نمت جيدًا في الليلة السابقة، واستيقظت على جلبه امرأة بدوية، تتفاوض مع رجال قافلتى على مقايضة الصفائح الفارغة، وعرضت مقابلًا لها لبنًا ونوعًا من الشجيرات الجافة يسمونها "توباكو"، كما تلقينا خمس غنمات أخرى على سبيل الضيافة، وفي المقابل وزعت المزيد من الهدايا.

بدأنا في الثالثة والرابع ظهرًا تحت تشجيع الرياح الجنوبية الغربية الباردة، ولكن سرعان ما توقفت الرياح، ليصبح تقدمنا بطيئًا بسبب حرارة الجو، ومع ذلك فقد كان المساء أكثر برودة واستطعنا تعويض بعض من الوقت الضائع، أما الليل فقد كان باردًا للغاية.

الجمعة ٢٥ مايو: استيقظنا في الرابعة صباحًا، وبدأنا السير بعد ذلك بساعة وربع الساعة، كانت الأرض شديدة التموج والوعورة، ولم يكن هارى واثقًا من الطريق؛ لذا فقد تحركنا ببطء بسبب صعوبة السير وعدم تيقن الدليل من الطريق. وبعد التاسعة بقليل دلفنا إلى أحد الأودية الجانبية وخيمنا بعد ساعة من ذلك.

وجدت سنوسى بوحسان بينما كان يسير بجانبى يصوغ رأيه فى الدليل بصورة تعكس اعتزازه ببداوته، قائلاً " هؤلاء القرعان يتهادون مثل الإبل، فهم لا يسرون مثل البدو الذين يطرون مباشرة إلى هدفهم مثل الطيور".

عندما عدنا للطريق بعد الظهر، كانت الشمس لا تزال حارقة؛ لذا تحركت الإبل ببطء، وكان غناء الرجال أشبه بصوت موسيقى القرب المحطمة. ولعل ذلك مرده أيضاً إلى أننا كنا مجبرين على التحرك ببطء؛ لأن هارى زاد عدم يقينه من الطريق الذى كنا نسلكه عما قبل. وفى بعض الأحيان كنا نتتبع بعض الآثار التى خلفها قطع من الأغنام فقد افترضنا أنه متوجه إلى " باو"، ولكن فى الفواصل ضاعت تلك الآثار وسط نطاقات الصخور المهشمة.

بعد الخامسة بقليل دخلنا إلى وادٍ كبير - عرفنا بعد ذلك أن اسمه "كونى مينا" - يتشعب صوب الشرق والغرب، وكان مليء بالأشجار الصغيرة، وقبل أن نصل إليه بقليل قابلنا أحد القرعان ومعه بضعة غنمات، توجه نحوى وألقى سيفه ورمحه على الأرض وخلع نعليه، ثم تصافحنا مع تكرار قول " كيف حالك؟ طيبون"، فقد كانت تلك هى كل الكلمات العربية التى يعرفها. وبعد ذلك تحدث معه محمد وهارى، وعرفا أنه يوجد مخيم للقرعان فى الوادى الممتد أمامنا، وأن أحد تجار الماشية قد وصل للتو، قادماً من "قادا" التى توجد فى "الوادى"، ومعه أغنام وأبقار فى يتجه بها إلى "الفاشر"؛ لذا سبقنا محمد وهارى واقتربا من أكواخ القش التى يتكون منها مخيم القرعان، بينما توجهنا صوب الوادى وخيمنا عند حدوده.

وسرعان ما جاء أحدهم وهو يعدو، طالبًا منا أن نعود إلى المخيم، ونبدأ مرة أخرى في اليوم التالي. قدرت اقتراح الضيافة، إلا أنني شعرت أننا لا نستطيع أن نتراجع حتى ولو كيلومترين، شكرته على الدعوة وأخبرته أننا في عجلة شديدة من أمرنا، وأنه يجب علينا أن نخيم في الجوار انتظارًا لعودة دليلنا، وبعد ساعة من ذلك ظهر محمد محملاً بأخبار من "فادا" و"الفاشر"، حصل عليها من التاجر.

انشغلنا هذا المساء بفحص حقائبنا وإصلاح الأضرار التي لحقت بها، واكتشفنا أن كل الحبال التي معنا أصبحت بالية، وكذلك حقائب البدو المصنوعة من الصوف، وأنها نفقد الكثير من الوقت على الطريق في إعادة التحميل ونقل الأشياء من جملٍ إلى آخر، ولكن عزاءنا أننا كنا نعلم أنه خلال أسبوعين سوف نصل إلى "الفاشر".

وفي ٢٦ مايو شاهدت أجمل شروق شمس لم أر مثيلاً له من قبل، كانت أشعة الشمس البيضاء المتألقة تنعكس على الصخور الحمراء والسوداء القريبة والتلال البعيدة فتجعل كل شيء رائعاً ومتميزاً، وسرعان ما تغير لون هذه الأشعة إلى الأحمر الدافئ المتقد، ثم نفذت الأشعة الذهبية عبر السحب الرقيقة وفاضت فوق كل شيء، بينما كانت الظلال الطويلة التي تلقيها الصخور والشجيرات على سطح الأرض أشبه بالرسومات السوداء على الرمال الصفراء، وبدأت ظلال القافلة وهي تتحرك ببطء كرسم خرافي.

وسرعان ما أثبت أنه صباح شديد الوطأة فقد ارتفعت درجة الحرارة بصورة كبيرة.

فى صدر النهار انضم إلينا هارى، ومعه خروف مذبوح وهو الضيافة القادمة من مخيم القرعان.

تتبعنا آثار الإبل والأغنام، وسرنا من وادٍ إلى آخر إلى أن خيمنا فى أكبرها، كان به العديد من الأشجار الظليلة.

وكانت هناك دائماً مشكلة سواء توقفنا تحت ظل شجر وعانينا من هجوم النمل الأبيض وكل أنواع الحشرات الضارة، أو نصبنا خيامنا فى الشمس الحارقة. وإن كنت أميل إلى تجربة حظى فى الظل، طالما أن الحشرات دائماً معك، بينما تزيد درجة حرارة الشمس بنحو خمس أو ست درجات بعد الظهر. وكان الوادى الذى خيمنا فيه يدعى "كاب تيركو".

بدأنا مرة أخرى فى الرابعة بعد الظهر، فى ظل وجود نسيمات جنوبية شرقية، جعلت السير غير ممل، كما كانت هناك أيضاً بعض السحب التى لطفت من حرارة الشمس. فسارت الإبل على نحو أفضل، وقرب الغروب مررنا بأسرة من القرعان تتكون من رجل وزوجته وطفل عارٍ، وبعد ذلك عثرنا على بئر، كان عمقها سبعة أمتار وماؤها كان جيداً، على الرغم من أن جذور الأشجار القريبة من تلك البئر تعفنت فى داخلها وجعلت رائحتها كريهة.

خيمنا فى الثامنة مساءً - لحسن الحظ - فى منطقة خالية من الصخور والشجيرات؛ إذ زار مخيمنا فى الواحدة صباحاً أحد الضباع، ولولا يقظة حميد "الجمال" لنال من بركة - الفرس - الذى كان مربوطاً فى أثناء الليل؛ لذا لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه،

إلا أن حميدًا أطلق دفعات من النار عليه، ومن خلال نظارتي المقربة رأيت جسمه الأسود وهو يجرى بعيدًا في ضوء القمر المتألق.

الأحد ٢٧ مايو: بدأنا في الساعة الخامسة والربع صباحًا وتوقفنا في التاسعة والربع، ثم عدنا للتحرك مرة أخرى في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، وتوقفنا في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، قطعنا خلال هذه الفترة نحو ٣٠ كيلومترًا، بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٨ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٧ درجات مئوية، في الصباح كان الجو صحوًا وصافيًا وهادئًا، وفي منتصف اليوم هبَّت رياح جنوبية شرقية حارة توقفت بعد الظهر، كما ظهرت بعض السحب البيضاء. وفي المساء أصبح الجو دافئًا وصافيًا، ثم كثيف السحب مع سقوط بضع زخات من المطر في العاشرة مساءً. مررنا بأودية تكسوها الرمال الناعمة، مع وجود بعض تلال من الصخور الرملية المنخفضة التي يتراوح ارتفاعها بين عشرين وثمانين مترًا، وبعض رقع من الصخور التي تتخلل الرمال.

برهن هاري على عدم مهارته؛ فقد تنبأ بأننا سوف نصل إلى "باو" في هذا الصباح، ولكن عندما حل المساء لم نكن قد وصلنا إلى هناك بعد. لقد عرف الأماكن عندما رآها، ولكن إحساسه بالاتجاه كان خاطئًا، ولعل أسوأ ما في الأمر أن ماؤنا كان أوشك على النفاد فيما عدا قربة أخيرة، وكانت ساخنة للغاية.

واصلنا السير حتى الساعة وخمس وأربعين دقيقة، وعندها وصلنا إلى أرض صخرية كان من الخطر على الإبل اجتيازها حتى

فى ضوء قمر جلى؁ كنا عند بداية واد كبير؁ الذى أعلن هارى أنه "باو"؁ إلا أننا لم نستطع تصديقه؁ كما أن الخبرة علمتسى ألا أسمح باستخدام آخر مؤننا من المياه ليس فقط عندما أرى البئر؁ بل عندما أقترب منه وأتأكد أنه يوجد به ماء صالح للشرب؁ وأصررت على عدم لمس آخر قربة فى هذه الليلة؁ وذهبنا إلى مضاجعنا بلا عشاء؛ طالما كنا لا نستطع الطهى بلا مياه.

ورغم ذلك فقد كان عزائنا هذه الليلة الجميلة؁ تمددت فى الفراش أراقب مداعبة السحب للقمر؁ حتى غلبنى النعاس.

استيقظنا مبكرًا؛ فالمعدة الفارغة لا تشجع على النوم طويلاً؁ وقدنا الإبل كما لم نقدھا من قبل؁ وكانت تبدو متعبة وضعيفة؁ وعندما يكون الرجال والإبل جوعى وعطشى تبرز كل المساوى الأخرى للقافلة؁ لم يكن هناك غناء هذا الصباح؁ الصمت فحسب كان يدفعنا نحن والإبل للأمام بقوة.

كان نزول الوادى وخطرًا؛ حتى إن ثلاثًا من الإبل ألقت حمولتها على الأرض؁ واضطر الرجال إلى حملها والهبوط بها إلى منسوب الأرض ثم تحميلها من جديد؁ وفى النهاية رأينا بضعة خراف وكوفا من القش أو اثنين؁ عندها توقفنا؁ وسمحت للرجال بأن يشربوا من ماء القربة الأخيرة؛ لأنهم قد طلبوا ذلك أكثر من مرة هذا الصباح.

تقدم هارى ومحمد صوب الكوخين؁ وفى الوقت ذاته تحركت القافلة لتهبط الوادى صوب البئر؁ وسرعان ما جاء بعض سرود القرعان والقبائل البدوية ليقابلونا. أطلقنا بنادقنا فى الهواء كالمعتاد؁

كما لو كان ذلك الأمر للتحية، ولكن في الواقع كنا نعطي انطباعاً لسكان المنطقة عن مدى استعدادنا.

لاحظت - بالصدفة البحتة - أن كل من قابلنا - سواء كانوا رجالاً أو نساء - كانوا من كبار السن، لم يكن هناك أي فرد صغير السن فيما بينهم، خاصة من النساء. ومع ذلك فلم ألق لهذا الأمر بالاً إلى هذا الأمر باعتباره أمراً استثنائياً، ولكن بعد فترة وجيزة اندهشت أن أرى مجموعات من الفتيات النحيفات الجميلات ذوات البشرة البنية أو السوداء، أنصاف العرايا، في ملابسهن البالية، يتوافدن معاً في مجموعات تتكون من ثلاث أو أربع فتيات، استدرت إلى بوكارا وسألته من أين جاءت تلك الفتيات؟ فأجاب بوكارا وهو ينظر إليهن بإعجاب شديد " والله العظيم، هذه الفتيات من القرية؛ فقد ظنوا أننا جئنا لننهب القرية ونسبي فتياتها ليصبحن إماء؛ لذا فبمجرد أن رأوا قافلتنا أرسلوهن خارجاً ليخفوهن. أما الآن بعد أن عرف الرجال أننا قافلة مسالمة، أبلغوا الفتيات أن يعدن".

وعندما كانت الفتيات تمر بحصاني كن يسقطن بحياء على ركبهن كتحية، وفقاً لتقاليدهن هنا عند مخاطبة شخص من مرتبة أعلى؛ ففي هذه الجزء من العالم عندما يقابل المرء شخصاً أعلى منه مكانة فإن من اللياقة ألا يقف بل أن يجلس علامة على التوقير. وواحدة تلو الأخرى سقطن الفتيات على ركبهن، وفي المقابل كنت أرد عليهن بتحية الإسلام "سلام الله عليكن ورحمته وبركاته"، وبينما كن ينهضن مرة أخرى كانت الفتيات تنظرن في حياء إلى رفاقي من البدو المعجبين بهن.

خيمننا في نهاية الوادى بالقرب من البئر، وبعد ساعة من ذلك حضر شيخ المخيم ليحيينا، وناقشنا معاً الطريق إلى " الفاشر " والاتجاه الذى يجب أن نسلكه، وهنا بدا هارى مستغرقاً فى تفكير عميق، وقد تملكه الحزن؛ لأننا كنا بالقرب من وطنه، فقد عبرنا حدود الوادى الفرنسى الآن. كان قد تخلى عن حقوقه، وفرّ هارباً من الفرنسيين تاركاً كل ممتلكاته وأقاربه، وذهب إلى واحة "العوينات" المعزولة ليحيا فيها منفياً بإرادته.

كنا نعبر بيئة مختلفة تماماً؛ فقد كان هناك العديد من الطيور المتنوعة بما فيها: الغربان، والبوم، والببغاوات، والحمام، بالإضافة إلى طيور أخرى لا أعرفها.

فى أثناء الليل قتلت الأسود حمارين، وأسر بعض المستوطنين أحد صغار هذه الأمور، وأرسلوا جلده إلى " فادا " لبيع هناك.

* * *

هناك العديد من سود القرعان وقبائل البدو فى " باو ". وتتسم النساء بأنهن جميلات، يرتدين ملابس بسيطة للغاية، تتكون من قطعة واحدة من القماش تُلف بمهارة حول الجسم، ثم يُلف فوقها شريط صغير يستخدم كحزام يوضع بداخله سكين صغير، أو يلفن قطعة صغيرة من جلد الأغنام حول الجزء الأسفل من الجسم، ويُصفن شعورهن فى جدائل صغيرة، ويرتدين حلّياً من الفضة والعاج، ويضعن حلقات فى شعورهن، وعقوداً من الخرز والكهرمان، بينما يقتصر رداء الفتيات الصغيرات على مئزر بسيط من الجلد أو

القماش، أما الرجال فقد كانت بنيتهم الجسدية رائعة، حيث يسيرون عرايا فيما عدا قطعة من القماش تلف حول عورتهم، ويحملون معهم رمحين أو ثلاثة بالإضافة إلى سيف وخنجر، وكان الشيوخ فقط هم الذين يرتدون ثيابًا بيضاء وعمائم كبيرة.

* * *

أعطينا النساء والأطفال بعض المكرونة، لكنهم رفضوا أن يأكلوها، وبدلاً من ذلك نظموا حباتها في خيط، وصنعوا منها عقوداً ارتدوها في زهو، وسرعان ما تحركت غريزة البدو التجارية، فصنعوا عقوداً من مخزون المكرونة القليل الذي معهم، وقايضوها بالزبد والجلد.

كان على محمد وهارى أن يتركنا هنا؛ فلم يستطيعا المجازفة بالتوجه جنوباً أكثر من ذلك، ووجدت بعض الصعوبة في العثور على دليل يقودنا إلى "فراويا"، لكننى نجحت في النهاية. تلقينا خروفاً كضيافة وتعشنا مبكراً يوم الثلاثاء، عازمين على أن نبدأ السير بقوة في الصباح الباكر.

لم يقدم الدليل نفسه، وبدأت أشعر أن البدو يشكون في قافلتى، إلا أنه ظهر في الساعة الحادية عشرة مساءً، وفي التو أيقظت الرجال وأمرتهم بأن يجهزوا الإبل ويحملونها، قبل أن تتاح للدليل أية فرصة ليغير رأيه.

الأربعاء ٣٠ مايو: بدأنا في الواحدة صباحاً، وتوقفنا في الثامنة والنصف، وبدأنا مرة أخرى في الرابعة والربع بعد الظهر، وتوقفنا

فى السابعة والرربع مساءً؁ قطعنا خلال هذه المدة نحو ٤٠ كيلومتراً؁ بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٦ درجة مئوية؁ ظل الجو صحواً وصافياً؁ مع وجود رياح قوية ومتربة تهب من الجنوب الشرقى؁ وبعد الظهر تغير اتجاه الرياح لتصبح شمالية شرقية لتتوقف فى المساء؁ بدت المنطقة كالتى قبلها وإن تفاوت جمالها؁ كما خلت من الأودية الكبيرة والأشجار الضخمة. وفى الثامنة والرربع عبرنا وادياً صغيراً يجرى شرقاً وغرباً.

عندما بدأنا فى الواحدة صباحاً؁ كان هناك قمر جميل جعل الرؤية واضحة مثل النهار. وبدأ معنا كل من هارى ومحمد؛ لأنهما أرادا أن يعطيا انطباعاً للرجال فى "باو" أنهما سوف يذهبان معنا إلى "الفاشر"؁ لأنهما خشيا أن يكمن أحد لهما على الطريق؁ وخلال ساعة كنا خارج الوادى وتوقفنا لنودع دليلينا اللذين كانا سيسافران - فى طريق عودتهما إلى "العوينات" - فى الليل فقط؁ حتى يتجنبنا اكتشاف أمرهما.

وبينما كنت أقف بعيداً بعض الشئ عن القافلة فى لحظة وداعهما؁ لاحظت أن الصعوبات التى خضنا غمارها سوياً قد قرّبت كل منا للآخر. كان محمد طويلاً؁ منتصب القامة؁ ذا عينيّن ثاقبتين؁ يتسم بثقة فى النفس أكسبته إياها حياة الصحراء؁ بالإضافة إلى إيمان راسخ بالقضاء والقدر؁ يقبل معه الإنسان كل ما قد يأتى. بينما كان هارى ذا أخلاق نبيلة؁ كهلاً متواضعاً؁ دمث الخلق؁ ذا ابتسامة عذبة؁ وسلوك ساحر. تبدو عليه أمارات الكبرياء عند تحركه على الرغم من أنه كان يعانى من جرح فى قدمه اليسرى؛ لذا كان يجرها عندما يسير؛ كان أميراً بطبيعته.

ولم يكن ذلك فراق رفقاء سفر فحسب، بل وداع أشقاء.

نسينا كلنا أننى رأس القافلة وهم أدلائى، ووضع هارى يده على كتفى وتحدث بنبرة مليئة بالمشاعر قائلاً " ربنا يكرمك ويعطيك القوة، هذا هو طريقك"، وأشار إلى فتحة فى التلال البعيدة، تمتت ببعض كلمات لا أثق أنها لم تكن مرتعشة، واستدرت فى طريقى صوب قافلتى، واختفى هذان الجليان بعيداً فى ضوء القمر وصورتها تدعو للشفقة فكلاهما منفى عن وطنه رغم أنهما قريبان من ديارهما.

توقفنا عند الفجر من أجل صلاة الصبح، وخيّمنا فى الثامنة والنصف صباحاً، كانت هناك آثار أسود حولنا. عدنا للسير مرة أخرى مبكراً بعد الظهر، لكن الرجال كانوا متعبين؛ فقد نالوا قسطاً ضئيلاً من النوم فى الليلة السابقة؛ لذا سرنا لمدة ثلاث ساعات فقط، بينما فرّ هارباً الخروف الذى أهدى إلينا ، وفى ضوء القمر سعى حميد وسعد خلفه يثغوان مثل الخراف لعلهما يجذبانه، لكن بلا فائدة.

الخميس ٣١ مايو: بدأنا فى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة صباحاً، وتوقفنا فى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، وعدنا للسير مرة أخرى فى الثالثة والنصف بعد الظهر لتتوقف فى السابعة والنصف مساءً. قطعنا ستة وثلاثون كيلومتراً. بلغت درجة الحرارة القصوى ٣٧ درجة مئوية، بينما بلغت درجة الحرارة الصغرى ٥ درجات مئوية، بدأ الجو صحواً وهادئاً، ومع حلول الظهيرة هبت رياح جنوبية شرقية، تغيرت لتصبح شمالية شرقية، وتوقفت قرب المساء. وقد اتسم كل من المساء والليل بالهدوء وبزوغ قمر كامل وبعض السحب البيضاء.

كان يومًا خاليًا من الأحداث المهمة.

بعد فترة قصيرة من بدايتنا المبكرة يوم الجمعة ١ يونيو غفا الدليل و"دارت رأسه"، وأصبحنا نتجه صوب الغرب بدلاً من الجنوب الشرقي، لم أتدخل حتى توقفنا لصلاة الصبح فى الخامسة صباحًا، وعندها سألته فى هدوء عما إذا كان ينوى السير صوب الغرب، اندهش لكنه اعترف بخطئه صراحة، ولحسن الحظ أننا لم نكن قد سرنا كثيرًا فى الاتجاه الخطأ.

فى السادسة والنصف صباحًا مررنا بتل يسمى "تاميرا"، وتوجد عنده شجرة جافة تعلم الحدود بين "الوادى" و"السودان"، ومن علامة الحدود هذه هبطنا إلى "وادى هوار"، وهو وادٍ كبير ملئ بالأشجار الضخمة، ويقال إنه يمتد صوب الغرب إلى "الوادى" - حيث يدعونه هناك باسم "وادى حواش" - وشرقًا إلى "السودان".

كانت تربة هذا الوادى شديدة الخصوبة؛ لذا يأتى إليه فى الخريف الرجال من "الوادى" و"دارفور" من أجل الرعى. خيمنا هناك خلال التوقف فى الظهيرة، ووجدنا بعض آثار الزراف، وبعد الظهر سرنا داخل منطقة زاخرة بالأعشاب الجافة العالية، كما لو كنا نسير وسط حقل كبير للذرة الناضجة.

أصبح رجال القافلة مرهقين، وبليت حتى ملابسهم الإضافية، وكانت الأحذية فى الرmq الأخير، بالإضافة إلى ذلك كنا نعانى بشدة من "الشبيط"، وهو عبارة عن أشواك كلابية صغيرة قاسية تنمو مع العشب القصير، وتعلق بأى فرد يمر بها، وعندئذ يكون من الصعب انتزاعها.

سمعت بوكارا يصف لحميد الزرافة والفيل؛ فقال له إن الزرافة لها رأس جمل، وحافر بقرة، ومؤخرة حصان، بينما كانت الكلمات التي وصف بها الفيل غريبة جدًا، وشديدة المبالغة.

السبت ٢ يونيو: بدأنا مبكرًا جدًا؛ حتى نتأكد من وصولنا إلى "فراويا" في هذا اليوم، وفي الخامسة صباحًا مررنا على يميننا بعلم "حجر كمرارا" وكان يبعد عنا بنحو ١٠ كيلومترات، وبعد ساعة أخرى مررنا "بحجر أردرو" وهو تل يبلغ ارتفاعه نحو ٨٠ مترًا وطوله ٢٠٠ متر، و"حجر" كلمة سودانية تعني "الجارا" أو "التل الصغير"، ثم بدأنا النزول إلى وادي "فراويا". كان أكبر الأودية التي عبرناها وأكثرها سكانًا، ومعظمهم من قبيلة "الزغاوة"، بالإضافة إلى بعض البدو.

خيمننا في التاسعة صباحًا بالقرب من أحد مخيمات البدو، وسرعان ما سمعنا أخبارًا مؤلمة بأنه لا يوجد طعام متاح في "فراويا". وكان ذلك على عكس توقعاتي؛ لذا أصبحت في عجلة لأن أجد رسولاً يحمل رسالة إلى حاكم "دارفور" الذي كان مقره في "الفاشر"، أطلب منه أن يرسل لي مؤنًا وقماشًا من أجل ملابس رجالى التي أصبحت أسملاً. وبعد الكثير من التردد الناجم بوضوح عن الخوف من رجالى، حضر لزيارتنا شيخ الزغاوة من المخيم القريب منا، يدفعه الفضول لزيارتنا، وكان تحت الحكم السودانى، فاقتتصت الفرصة، وعرضت عليه أن يأخذ ثلاثة جنيهاً مقابل أن يحمل رسالة منى إلى سافيل باشا حاكم "دارفور"، وكان عرضنا سخياً، وبالإضافة إلى ذلك توعدته بأمور عديدة غير سارة إذا تردد أو

رفض قبول هذا الأمر، قلت له إنه يجب أن يبدأ مع بزوغ فجر اليوم التالي، وقد تدمر بعض الشيء بدعوى أنه ليست لديه أية دابة ليركبها، رحل وسرعان ما عاد ليقول "إنه سوف يأخذ خطابي إلى "الفاشر"، وأنه ينوى الذهاب بحصان"، كان ذلك خبراً جيداً؛ لأننا لم يكن لدينا سكر منذ ثلاثة أسابيع، واضطررنا إلى أن نحلى الشاي - بقدر ما نستطيع - بمسحوق البلح، كما نفذ أيضاً ما معنا من دقيق وأرز، بينما كان مذاق ما تبقى من مكرونة معنا - والتي كانت تعد بالماء السيئ - بشعاً للغاية.

نقلت المخيم بالقرب من إحدى الآبار في الوادي، وحاولت شراء خروف لأبهج رجالي، لكن الليل كان قد حل بالفعل، ولم يقترب أى من السكان المحليين من مخيمنا. فسقينا الإبل، وهدأنا نظراً لحلول الليل، غير راضين تماماً عن الحياة.

وفجأة أدهشني أن أسمع صوت رجالي وهم يغنون فى سعادة كما لو كانوا قد عثروا على وجبة طعام جيدة، ناديت على زروالى وبوكارا وسألتهما علامَ هذا الغناء طالما أنه لا يوجد سكر أو طعام، والأمور بصفة عامة غير مقبولة؟!

فأجاب زروالى " نستطيع أن نتنفس الآن، فقد دخلنا السودان، وشعرنا أننا - أصبحنا أخيراً - فى أمان".

فسألت "مَمَّ كنتم مرعوبين هكذا؟ هل من الرحلة التى قمنا بها؟

فأوضح بوكارا قائلاً " عندما كنا فى "الكفرة" قال لنا كل أقربائنا إننا نسير إلى حتفنا - عندما سلطنا هذا الطريق - كما قالوا لنا إن

مصيركم كُتب عليكم، ولكن من يدري؟ ربما يحميكم الله"، وقد تساءلنا هل من المحتمل أن يكونوا على صواب؟ "

وقال زروالى " لقد سمعت فى الكفرة كيف كان البعض يشجعونك على أن تسلك هذا الطريق، بينما كانت هذه النصائح ضدك؛ فمن أيدوك كانوا فى الحقيقة رجالاً حاقدين، كانوا يتمنون ببساطة ألا يروك مرة أخرى".

وفى هذا الوقت أيضاً كان زروالى - بعد أن أصبحنا قريبين من نهاية الرحلة - يشعر فى قرارة نفسه بحرية فى الحديث؛ لذا أخبرنى أن بيوت "الشدايدة" و"الجهيلات" من قبيلة زوى فى "هوارى" و"الكفرة" قد استاءوا بشدة من زيارتى الثانية، وعقدوا اجتماعاً ناقشوا فيه أيهما أفضل: أن يدمروا القافلة أم يحولوا دون رجوعى؟!

أدركت فى هذه اللحظة مدى الشجاعة التى كان يتمتع بها هؤلاء الرجال لكى يرافقونى فى هذه الرحلة عبر طرق غريبة وغير معروفة ودون أى تذمر أو احتجاج، كنت بالفعل فخوراً بهم.

فى الثانية صباحاً أيقظنى حميد - الذى كان يتولى نوبة الخفارة- ليخبرنى بوصول الرسول، وأنه كان مستعداً لأن يأخذ خطابى إلى "الفاشر"، كنت قد كتبت خطابين بالفعل، وكانا جاهزين تحت وسادتى، أحدهما إلى سافيل باشا والآخر إلى الضابط المسئول فى "كوتوم"، وهى عبارة عن قاعدة عسكرية متقدمة على الطريق المتجه إلى "الفاشر"، أطلب منه أن يتأكد من وصول خطاب "الفاشر" إلى مقصده، كنت سعيداً أن الرسول حضر مبكراً؛ فكلما حصلنا على مؤننا الجديدة

مبكرًا كلما كان الجميع سعيذًا، وعدته بمزيد من الجنيهاً إذا ما سلم
الخطاب إلى "الفاشر" خلال أربعة أيام، وودعته بحرارة وراقبته وهو
يعدو في ضوء القمر ممتطياً حصاناً قوياً إن لم يكن برياً.

الفصل العشرون

نهاية الرحلة

«أبى النوم أن يطاوعنى فى ليلتى الأولى بفوراويا؛ فقد كنت مستثاراً على نحو لم آلفه منذ أن ودعت الملازم باثر BATHER فى السلوم لأبدأ رحلتى؛ فالآن عدت للاتصال مرة أخرى بالعالم الخارجى، وانتهت الرحلة بالفعل على الرغم من أنه كان لا يزال هناك شهر أو أكثر قبل أن يصبح على أن أبدأ قافلتى بوسيلة انتقال أخرى؛ فالواحتان المفقودتان "أركينو" و"العوينات" لم يعدا مفقودتين بعد الآن، كما أنه يمكن الآن - إذا كانت ملاحظتى دقيقة كما آمل - رسم خريطة جيدة لهذا النطاق من الصحراء الليبية الممتد من "جالو" إلى "فوراويا».

أمضينا ثلاثة أيام كاملة فى "فوراويا" محاولين التعود على المناخ الرطب الذى أصبحنا نواجهه؛ فالسحب الداكنة كانت تحوم فوق رؤوسنا معظم الوقت، وكانت السماء تمطر كل يوم، كما كنا نحاول أن ننال كفايتنا من الطعام كى نبعد عن أنفسنا حالة الهزال التى كنا نعانى منها، حتى أتخم رجالى أنفسهم بلحم الضأن، ورغم هذا فقد كان نقص السكر اللازم لإعداد الشاى والمؤن الأخرى يقلل من استمتاعنا بهذه الولايم.

بعد ظهر يوم ٦ يونيو تحركنا صوب الجنوب، وتساقنا ببطء للخروج من الوادى، وفى هذه الأثناء مررنا بالعديد من قطعان الأغنام والأبقار فى أثناء رحلة عودتها للديار، يتبعها فتيات نحيفات أو فتيان لا يرتدون شيئاً سوى مئزر يسترون به عوراتهم، أو عقود من الخرز.

كانت تلك البيئة تختلف تماماً عن الصحراء التى عبرناها؛ فقد كنا نقطع دروباً مطروقة، ونمر بقرى صغيرة تتكون من أكواخ من القش، ونساء يحملن الحطب، إلى جانب علامات العمران الأخرى.

وبالقرب من إحدى هذه القرى طلبت من القافلة أن تسبقنى إلى هناك، وأشرت لهم أين سنخيم، وتبعتهم بحصانى؛ فقد كانت هناك بعض النقاط المثيرة جغرافياً التى أردت أن أدون عنها بعض الملاحظات. وبينما كنت أسير على مقربة من المخيم سمعت صوتاً غريباً يرتفع، كان عبارة عن مزيج من نحيب الرجال وغنائهم، وأول ما بدر إلى ذهنى أن يكون بعض رجال القافلة قد تورطوا فى مشاكل مع السكان المحليين؛ فنخست فرسى لأستحثه، وبينما كنت أقترّب من المخيم بدأت أطمئن؛ فقد سمعت قرع طبول، ونساء تغنى، كنا بعد غروب الشمس مباشرة، وفى الغسق لم أستطع أن أميز تلك الحشود التى تتحرك صوبى، وسرعان ما وجدت أحد رجالى يسرع ليخبرنى أنهم قد تلقوا استقبالا حاراً من رجال القرية ونسائها، الذين أصروا على الخروج لاستقبال شيخ القافلة، ولم يكد ينتهى من إخبارى بهذا إلا ووجدت مجموعة من النساء صغيرات السن بعضهن يغنين وبعضهن يرقصن وهن يحطن بحصانى، الذى استجاب بما يليق

بحصان بدوى وبدأ يثب رقصًا، وأطلقت النساء زغاريدهن، وناقشنى البدو فى أمر إطلاق بنادقنا، وأفسح الجمع طريقًا لحصانى فسرت به مسافة قصيرة وتوقفت وعدت مرة ثانية على نحو أسرع ثم كبحت جماحه تمامًا، وفى هذا الوقت أخرجت بندقيتى، وعندما توقف الحصان تمامًا، أطلقتها - وفق تقاليد البدو - عند أقدام الصف الأول من الفتيات الجميلات، ففرع نصفهن بينما سُرَّ النصف الآخر، ثم أحاطت ست منهن بحصانى وهن يدرن حولى وأعطينى "الشبال" وهو عبارة عن قول مع انحناء مفاجئة من الرأس يلوحن خلالها بخصال شعورهن فى اتجاهى، كما يفعل النساء فى جنوب أوروبا بإلقائهن للزهور، وفى المقابل وضعت أصابعى على جبين كل فتاة، وحملت بندقيتى عاليًا فى الهواء، ودرت بها فوق رؤوسهن وأنا أصيح "أبشر بالخير"، وبعد هذا اتخذنا شكل موكب وتوجهنا صوب المخيم، وفى اللحظة التى رآنى فيها البدو قادمًا ومحاطًا بكل هؤلاء الفتيات أطلقوا بنادقهم فى الهواء احتفاءً بهذه المناسبة؛ فالبدوى فارس بكل معنى الكلمة، وتلك هى فكرته عن الاحتفاء بالنساء، وبعدئذ وزعت بعض العطر على الفتيات اللاتى انصرفن بعد ذلك فى سعادة بالغة، وكانت أكثر ليالى المخيم بهجةً.

وفى اليوم التالى وصلنا إلى "أم بورن"، التى تبعد نحو ٣٨ كيلومترًا عن "فوراويا"، وخيمنا بالقرب من إحدى الآبار، وفى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرًا على صوت الماشية والأغنام التى جاءت للسقى، وبعد ساعة وجدنا سوقًا نشطة تُقام بطول مخيمنا؛ فقد نصبنا خيامنا بغير عمد بالقرب من إحدى الأشجار الضخمة التى تعد بمثابة مركز منطقة السوق، والتى كان النساء فقط هن اللاتى يشاركن

فى أنشطتها؛ حيث كن يحضرن الزبد، والجلد، والحصير، والذرة، والقطن، والملح، ويقايضن فيما بينهن دون استخدام النقود، وفى الوقت ذاته يرقد الرجال فى راحة ولا يفعلون شيئاً، وبينما كنت أتأمل هذا المشهد - الذى لم أشاهد مثيلاً له فى أية قرية أخرى من قرى السودان - لا أدرى لماذا وجدتنى أتساءل هل يا ترى حال هؤلاء النساء السود أفضل أو حال الإماماء فى ديار البدو؟! فهن هنا يقمن بكل الأعمال: من العناية بالماشية والأغنام، إلى أداء الأعمال المنزلية، وإعداد الطعام، وصنع شراب "المريسا" المفضل لرجالهن، إلى تولى شئون السوق، أى كل شىء. بينما الإماماء فى المقابل يكلفن بواجبات محددة، وقد تتاح لهن بعض أوقات الفراغ. وبينما كانت هذه الأفكار تدور فى خاطرى، شعرت أننى ألمح شيئاً مختلفاً فى نبرة صوتهن عندما يتحدثن ويضحكن، لا تملكه الإماماء، ربما كان الأمر يتعلق بالشعور بالحرية حتى ولو كان يصاحبها الكد والعمل الشاق.

مكثنا فى "أم بورن" لمدة يومين، وفى هذه الأثناء زارنى عبدالرحمن جيدو وكيل "المحمديين" وزعيم قبيلة "الزغاوة"، وأحضر معه غنماً ودجاجاً على سبيل الضيافة، وفى اليوم التالى حظينا بترحيب رسمى؛ إذ حضر الوكيل مع حاشية من الأتباع فوق ظههور الخيل، يقرعون الطبول، وكانت أسرة المحمديين - فى أثناء غياب سيد الديار - قد أرسلت لنا وجبة غداء مكونة من العصيدة، والخضراوات، والفتائر، وشراب المريسا.

كانت المرحلة التالية لرحلتنا عبارة عن خمسة أيام من السفر وصلنا فى نهايتها إلى "كوتوم" التى تبعد نحو ١٢٩ كيلومتراً صوب

الجنوب، وظل الجو - بصفة عامة - جيدًا على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة وسقوط بعض الأمطار.

سافرنا كالمعتاد في الصباح الباكر، والأصيل المتأخر، وعبرنا دروب مطروقة صالحة للسير تمامًا تمر بأرض كثيرة التلال مغطاة بعشب جاف وأشجار صغيرة، وفي الفواصل كانت هناك بعض الرقع التي سبق حرقها تمهيدًا لزراعتها.

وفي اليوم الثالث عاد الرسول الذي أرسلته إلى "الفاشر" ومعه رفيقان، وإن كان اللقاء محبطًا بعض الشيء؛ فقد تطلب الأمر منه خمسة أيام ليصل إلى مقصده بدلاً من أربعة، ولم يحضر الرد على الخطاب الذي أخذه، قائلًا إن الرد ينتظرني بحوزة أحد الجنود عند بئر "موتاريج"، التي تبعد نحو اثنتي عشرة ساعة سيرًا من المكان الذي كنا فيه، وكان مع الجندي أيضًا بعض المؤن لنا، لكنها كانت ذات نفع محدود نظرًا لقلتها.

عندما خيمنا في هذه الليلة كان يتبقى لدينا القليل من الطعام للعشاء؛ لذا أرسلت دليلنا بأقصى سرعة بعد العشاء، وأمرته أن يظل راكبًا طوال الليل حتى يصل إلى "موتاريج"، وهناك عليه أن يخبر الجندي أن يحضر إلينا بأسرع ما يمكن.

وفي صباح اليوم التالي بدأنا التحرك قبل الرابعة، وخلال ساعة جاء الرجال يهرولون نحوي ويخبروني أن هناك جنديًا يمتطي جملًا قادمًا نحونا، وخلال دقائق تسلمت خطابًا من السيد تشارلز دوبيي - نائب حاكم دارفور في غياب سايفل باشا، الذي استقال من الخدمة -

وكان معه بعض المؤن القليلة من الأرز والدقيق والشاي والسكر، وكنت مسرورًا على وجه الخصوص أن أضع يدي على مؤن من السجائر.

فأنا لم أدخن منذ أن غادرنا "إردى"؛ فقد أدركت فجأة وأنا في "العوينات" أنه لم يتبق سوى بضع سجائر، وعندها بدأت في وضع قواعد صارمة لنفسي، تقضي بسيجارة واحدة في اليوم بعد العشاء، كان أمرًا شاقًا للغاية أن أنتظر طوال اليوم من أجل فترة التدخين القصيرة تلك، وكان الأمر أسوأ عندما كانت تأتي تلك اللحظة؛ فقد كنت أنزوي في أحد الأركان المخفية وأشعل السيجارة الثمينة وأحميها بعناية بالغة من أي نسمة هواء قد تسرع من اشتعالها، وعندما نفدت هذه السجائر القليلة، لم يتبق لي سوى الانتظار والذكريات، والآن - أخيرًا - ثارت من الانتظار فقد ظلت أدخن حتى التهب حلقى.

حتى إن بوكارا، من أجل حفنة من السجائر التي وصلت حديثًا، وضع طربوشه الأحمر فوق حصان الدليل وفعل القليل من المرح العابث - إلا أن المرح العام الخالي من القيود الذي صاحبه الغناء والرقص كان عندما خيمنا في الاستراحة الحكومية في "ماراهيج"؛ حتى إن العريف ظن أنه قد أصابتنا لوثة ما، بعد أن رأى الرجال وهم يضعون أقماع السكر على الأرض ويسودون حولها. رقصة همجية، وسأل "لماذا كل هذا الصخب؟" فأجابه عبد الله "لأنه منذ ما يقرب من الشهر لم يكن لدينا سكر، والآن سوف نحلى شايينا من جديد؛ فالمرء لا يدرك قيمة السكر هذا حتى تأتي اللحظة التي لا يستطيع فيها الحصول عليه"، هزّ العريف رأسه وابتسم قائلاً "إننا لم

نكن نعلم أن لديكم نقصًا شديدًا في المؤن، يجب أن أعود في الحال إلى "كوتوم"، وأحضر لكم المزيد منها"، وقبل أن يرحل كان كريمًا للغاية لأن يذهب إلى أحد المعسكرات القريبة ويحضر لنا خروفاً وزبدًا، وكان علينا أن نسدد ثمن هذه الأشياء للمعاون في "كوتوم"، نظرًا لأن البائع رفض أن يقبل أوراق النقد المصرية، وبعد ذلك رحل العريف ومعه خطاب منى إلى السيد دوبويي، والمعاون "نائب الحاكم في كوتوم".

وبقدر ما كانت المؤن التي أحضرها إلينا جيدة بقدر ما نفذت سريعًا، وأصبحنا في حاجة ماسة للمزيد منها؛ لذا قررت أن نرحل على الفور، وقضينا فترة الظهيرة في استراحة حكومية عند بئر "ماراهيج"، وفي المساء توقفنا بعد بضعة كيلومترات منها؛ فقد كانت الإبل في حالة سيئة جدًا، وكانت ظهور وجوانب بعضها متقيحًا للغاية وينزف، حتى إن جملين منها رفضا التحرك حتى أنزلنا الأحمال من عليهما.

وفي المساء أمطرت السماء لمدة ساعة، لكنها لم تستطع أن تخدم عزائمننا؛ فقد غنى الرجال ورقصوا حول النيران الكبيرة، وذكرتسى الرطوبة ورائحة العشب المبلل هذه بسيرى في الريف الإنجليزي.

في صباح اليوم التالي بدأنا مبكرًا، بهدف التوقف عند بئر "ميتاراج" في الظهيرة، وبالفعل تغدينا في الاستراحة القريبة من تلك البئر وتلقينا زيارة من شيخ الميتاراج الذي أحضر لنا بعض الدجاج على سبيل الضيافة، وطلب منا أن نتوقف هذه الليلة حتى يستطيع أن يضيافنا كما ينبغي في اليوم التالي، إلا أنني شعرت بضرورة أن

نتقدم بأسرع ما نستطيع؛ فقد كانت حالة الإبل تزداد سوءًا، وكان علينا أن نترك إحداها مع شيخ القرية، واتفقنا معه على أنه إذا تعافى الجمل يمكن أن يحصل على ربع ثمنه عند بيعه، أما إذا توفى فإنه لن يتحمل أية مسئولية.

وبعد ساعة ونصف الساعة من تحركنا في اليوم التالي، ظهر جندي آخر على ظهر فرس، وأحضر معه خطابًا من معاون "كوتوم" وكمية قليلة من الأرز والسكر، وقد استقبلناه شاكرين؛ لأننا للمرة الثانية كنا نعاني من نقص المؤن، كما نفذ كل ما معنا من سكر للشاي. أعطيته خطابًا ليعود به إلى "كوتوم"، وبعد فترة قصيرة خيمنا في أحد الأودية الصغيرة في "بوا".

بعد الظهر، عاودنا السير من جديد، وسرعان ما بدأت السماء تمطر مع هبوب رياح شديدة من الجنوب الشرقي، ورأيت أنه قد يكون من الحكمة أن نخيم حتى تنتهي العاصفة، إلا أنه عندما تطلعت إلى المنطقة التي تمتد أمامنا من خلال منظاري المعظم اكتشفت صفاً من الأكواخ المصنوعة من القش تمثل حدود "كوتوم"، وأمام هذا المشهد قدنا إبلنا أسرع.

وسرعان ما بدا فريق من الأفراد الذين يمتطون الجياد يقترب منا، وعندها هلل البدو في ابتهاج. وكان ذلك من أكثر المشاهد السعيدة التي رأيته منذ عدة أسابيع، فقد كان رياض أبو عقلا أفندي، وناصر الدين شداد أفندي، اللذان يعملان معاونين في كوتوم يتقدمان فصيلة من عشرة جنود بالإضافة إلى القاضي ورجال الدولة الرسميين، وأعيان "كوتوم".

صافحتهم جميعًا بحرارة، وبمرافقتهم تحركت القافلة صوب القرية، وبينما كنا نقترّب، كانت نساء المركز اللائى يرتدين الملابس البيضاء يقرعن الطبول ويحيوننا بالغناء والزغاريد. استقر بنا المقام بجوار الاستراحة وداخلها، وحضرت النساء مرة أخرى ليقدمن تحياتهن فاصطففن فى صف طويل ثم غنين ورقصن كثيرًا ليرفهن عن البدو الذين يرافقونى، والذين طلبوا الإذن لهم فى إطلاق بنادقهم ليعبروا عن امتنانهم لتلك المجاملة، وبالطبع لم أستطع الرفض وبدأ بوكارا فى أداء مراسم سفع خف الفتيات، إلا أن النساء السودانيات لم يعتدن هذا السلوك البدوى فى التعبير عن التقدير مثل الفتيات فى الصحراء الشمالية؛ لذا فإنهن جزعن قليلاً من البارود الذى كان يومض عند أقدامهن، لكنهن تقبلنه بنفس رحيّة، ثم بدأ صف النساء بالكامل يتمايل ويتراقص على إيقاع الطبول، بينما قام فرد تلو الآخر من رجالى بأداء "رقصة التكريم". كان استقبالاً بديعاً بالفعل، وسروره شنت - مثل السحر - الإرهاق والتعب الناجم عن الرحلة.

وتلا ذلك مزيد من الحفاوة، فقد أحضر لنا معاونان - على سبيل الضيافة - أربعة خراف، وزبدًا، وخضروات طازجة، ولا مجال للحديث عن السكر الذى قدم لنا، وأمضينا ليلة سعيدة للغاية.

بدا وصولنا إلى "كوتوم" - فى هذا الوقت بالذات - للسكان المحليين كأنه حضور ميمون؛ لأننا وصلنا مع أول سقوط أمطار فى الموسم.

توقفنا هناك لمدة يومين، واحتفى بنا معاونان بكرم بالغ فى غياب المفتش السيد آر كل الذى كان فى "الفاشر".

وفى إحدى المرات حضرنا مباراة في كرة القدم بين فريقين من الجنود، كانت مباراة قوية أكثر من كونها تلعب بمهارة. وحدث أن حاول لاعب أن يضرب الكرة بقوة لكنه أخطأها وقذف بحذائه السوداني عاليًا في الهواء، ولم تكن المودة بين الضباط والرجال الذين يلعبون طيبة؛ لذا كان من الشيق رؤيتهم وهم يلعبون معًا.

فى هذا المساء تناولت العشاء مع رياض أفندى وناصر الدين أفندى، وكانت أول وجبة أتناولها فى منزل منذ أن تركت "الكفرة"، وقد أعطانى مضيفائى جريدة مصرية لأقرأها، كانت هى أول ما أراه من جرائد منذ ما يقرب من ستة أشهر.

تركنا "كوتوم" فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ يونيو، مبتهجين بالضيافة الكريمة التى حظينا بها والوداع الحار الذى ودعنا به أصدقائنا. وكانت رحلتنا إلى "الفاشر" التى استغرقت يومين، بمثابة نزهة؛ حيث شعرنا جميعًا بالإثارة والابتهاج؛ لأننا عدنا للاتصال بالعالم من جديد.

ولكن بينما كنت أتوجه للفراش يوم ١٨ يونيو أدركت مع شعورى بالأسف أن هذا هو آخر يوم لى فى الصحراء الحقيقية. وفكرت كيف أننى سوف أفقد رجالى وإيلى، القفر والجمال، الخلوة والصحبة، أو قل فى كلمتين: الصحراء وحياتها، شكرت الله - سبحانه وتعالى - لأنه قادنا عبر الرمال الواسعة غير المطروقة، ووجدتني أضيف دعاء - نصف حزين - بأن أعود إليها مرة أخرى؟

أصدرت أوامرى بأن نبدأ مبكرًا فى صباح اليوم التالى، ونتيجة لتلهف رجالى بالغوا فى فكرتى عن كلمة "مبكرًا"، ولكننى كنت أنا

نفسى مستثارًا، ولم أمانع فى أن نصبح على الطريق بحلول الثانية والنصف.

وقبل ثلاث ساعات من الوصول إلى " الفاشر " خيمنا حتى نستعد لدخول المكان، فحلّقنا جميعًا وارْتدينا أفضل ملابسنا - فقد كان السيد دوبوى قد أرسل لنا فى " كوتوم " مؤنًا من الملابس البيضاء - وأصبح رجالى قادرين على الظهور مرة أخرى فى ملابس لائقة، واحتشدوا حول بقايا المرأة التى كانت معى ليشاهدوا كيف يبدون، نظفت البنادق، ورتبت الحقائق - التى كانت فى حالة رثّة - قدر الإمكان، وتمنيت لو أستطيع فعل أى شىء للإبل أيضًا؛ فقد كانت نحيلة ومظهرها يدعو للرثاء، ولكن الراحة والعناية بظهورها المقترحة كانت هى كل ما تحتاج إليه، ولم يكن لدينا الوقت أو الإمكانيات لمنحها إياها، وبرغم هذا يبدو أنه قد أصابتها عدوى التلّيف التى أصابتنا، فتقدمت إلى الأمام فى سرعة. وارْتدى عبد الله وزوالى ملابسهما الحريرية، وتحركت القافلة بابتهاج صوب مقصدها.

وبمجرد أن وصلنا إلى ضواحي الفاشر، ارتفع الهتاف والتهليل من كل مكان فى القافلة؛ فقد كان هناك موكب من الرجال الذين يرتدون الزى الكاكي يتجه نحونا، نخست بركة واستجاب الفرس مرحبًا؛ فقد رأى الأحصنة قبلنا، فانتصبت أذناه واندفع نحوها.

تقدم السيد دوبوى فوق حصانه، ليقابلنى وتصافحنا بحرارة، وتكررت التحية من الضباط المصريين والإنجليز الذين كانوا من فريقه، وذهبنا بعد ذلك إلى منزله كجزء من الكرم الذى قدمه لى

ولرجال قافلتى، وهناك قام البمباشى أنداس بأخذ الإبل المرهقة دون إبطاء، وقدم لها الطعام والماء والرعاية الصحية لجروحها التى كانت فى أمس الحاجة إليها. كما قام الضباط المسئولون عن المحطة اللاسلكية بكرم بإعلامى بالتوقيت الدقيق لجرينتش من باريس من خلال الإذاعة. وكنت سعيدًا للغاية أن أكتشف أن الكرونومتر^(٤٢) الخاص بى تأخر ٢٣ دقيقة و ٢٣ ثانية فقط خلال ثمانية أشهر.

مكثت ضيفًا على السيد دوبوى لمدة عشرة أيام حظيت خلالها بحفاوة بالغة من الضباط والمسؤولين التابعين للحامية العسكرية، بالإضافة إلى كل من بنى وطنى والإنجليز ووجهاء البلدة، وأغدقت على الحفاوة، وقدم لنا بتلف كل نمط من المساعدة التى كنا فى حاجة إليه.

عدت إلى الحضارة مرة أخرى، واستمتعت برفاهيات الحياة مرة ثانية، خاصة الفواكه والخضروات؛ فعندما يخضع المرء لرجيم قاسٍ فى الصحراء ينظر إلى هذه الأشياء على اعتبار أنها رفاهيات وليس ضروريات. وكان هناك على وجه الخصوص نوع من البرقوق مدعاة فخر الميجور سميث SMITH، وكان حلو المذاق بطريقة غريبة، لم أذق مثله فى أى مكان آخر.

فى النهاية جاء اليوم الذى يجب أن أترك فيه رفاقى فى رحلتى من "الكفرة"، وعندما حضر لغرفتى فى هذه الليلة كل من بوكارا وأخوه حميد وسنوسى بوجابر ليودعونى، كانت لحظة تزر

(٤٢) هو جهاز ميقاتى لقياس الزمن بدقة بالغة. "المترجمان"

بالمشاعر الحقيقية، وتزدحم بالذكريات؛ فهو لاء الرجال القساء الذين جاءوا من الصحراء، انفجروا فى البكاء، وبللت الدموع عينيّ أنا أيضاً؛ فقد كنا معاً فى السراء والضراء، وأصبحنا أصدقاء أوفياء، ولم أكن أتمنى أفضل منهم: صحبة فى رحلة إلى إقليم ناء، أو أكثر قدرة، أو شجاعة، أو وفاء.

قرأنا الفاتحة، وكان صوت تلك الآيات المقدسة يمتزج بنشيج بوكارا، وصافحت كلاً منهم، وافترقنا على وعد بأن نلتقى يوماً - كما تمنيت - فى هذه الصحراء التى أحببتها بمثل ما أحببتهم.

كان يتبقى لى رحلة واحدة أخرى بالإبل إلى "الأبيض" التى تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر فى اتجاه الشرق، ومن هناك أخذت القطار إلى الخرطوم، ومنها إلى الديار فى القاهرة، والتى وصلتها فى الأول من أغسطس عام ١٩٢٣.

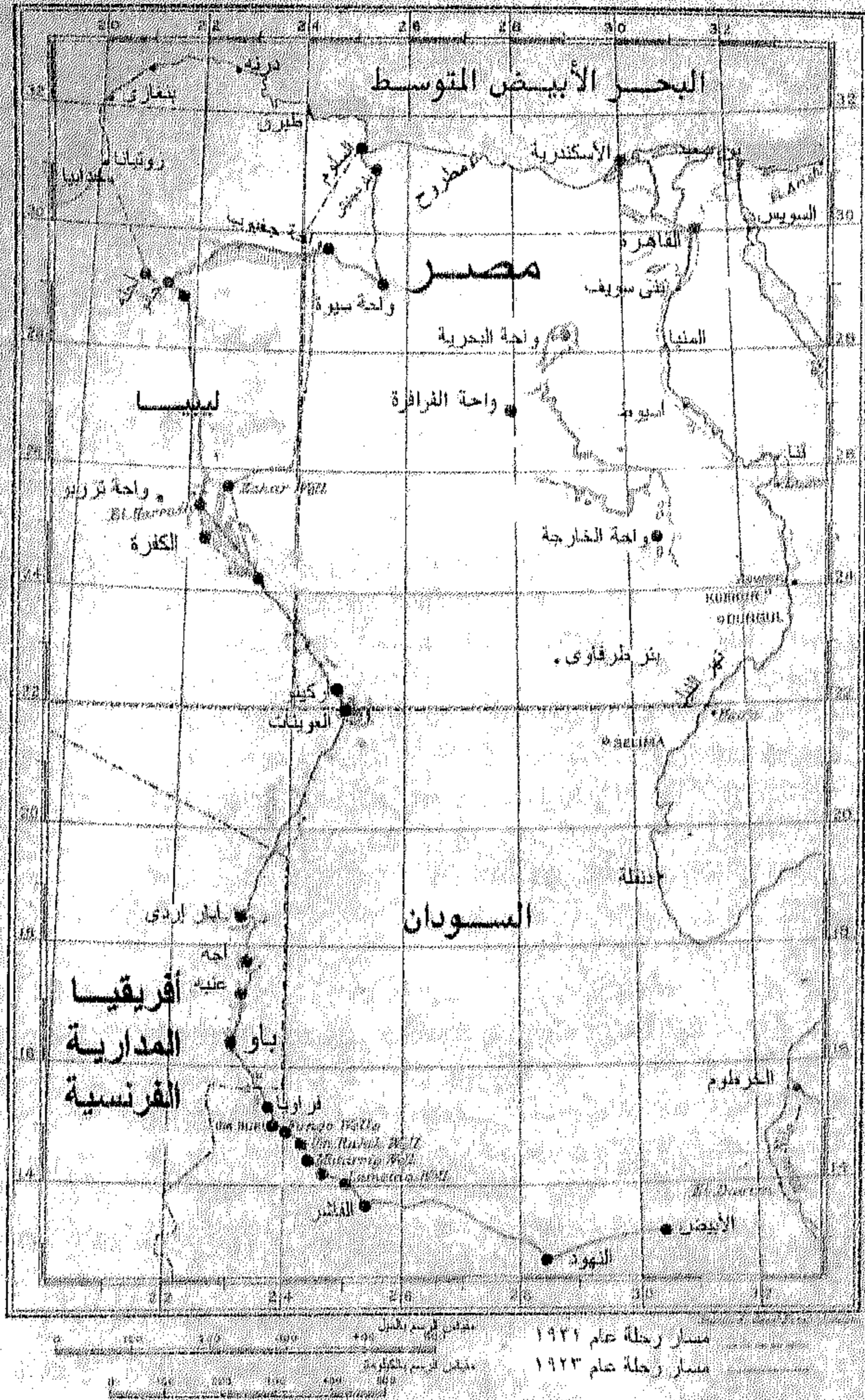
كنت بعيداً عن الديار نحو سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، قطعت خلالها ٢٢٠٠ ميل، عابراً الصحراء باستخدام القافلة.

وحددت فى النهاية موقع آبار "زيغن"، والتى كانت تبعد فى الخرائط عن موقعها الصحيح بنحو ١٠٠ كيلومتر، وواحة الكفرة التى كانت الخرائط عن موقعها الصحيح بنحو ٤٠ كيلومتراً.

كما نجحت فى النهاية فى تحديد موضع واحتى "أركينو" و"العوينات" المفقودتين على خريطة الصحراء الليبية.

ملحق

بخریطة الرحلة والصور

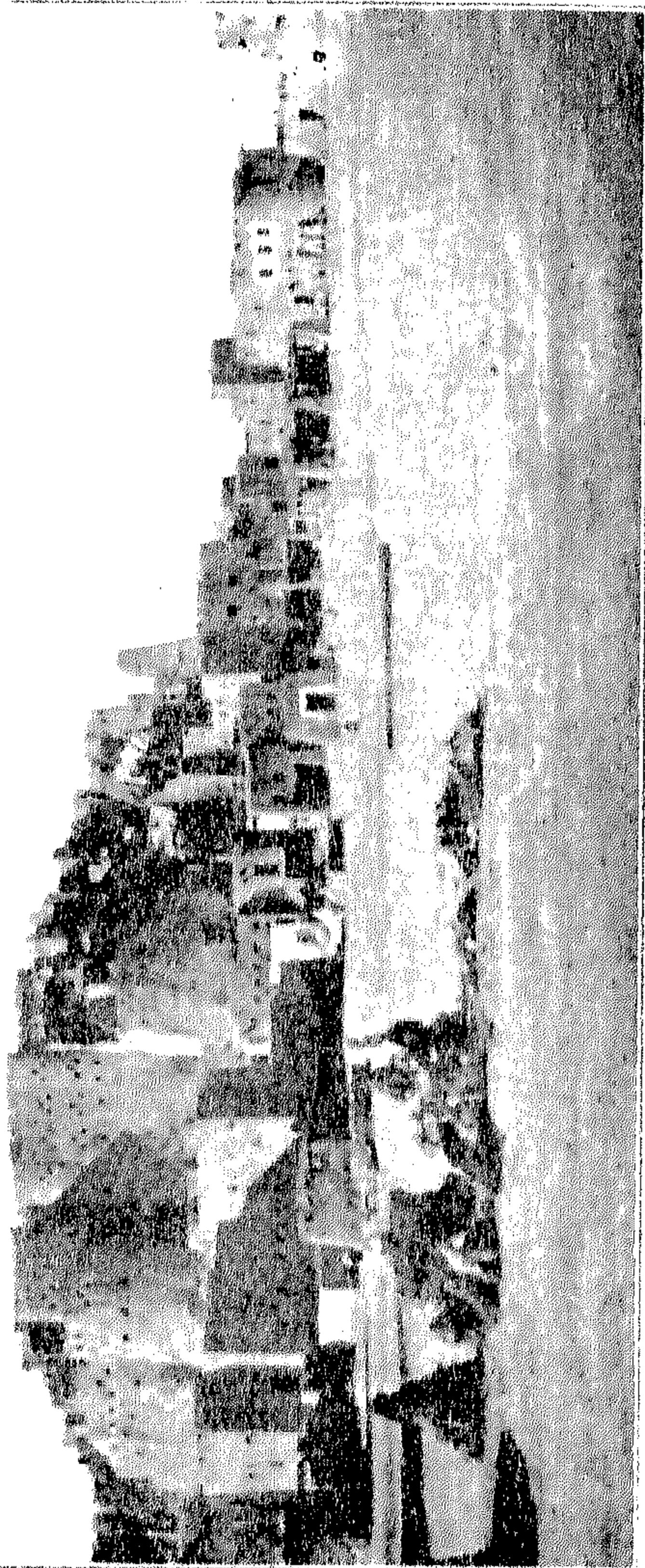


١ - خريطة الرحلة.



٢- أحمد محمد حسنين بك.

٣- واحدة سيوة إحدى أقدم الواحات في شمال أفريقيا.



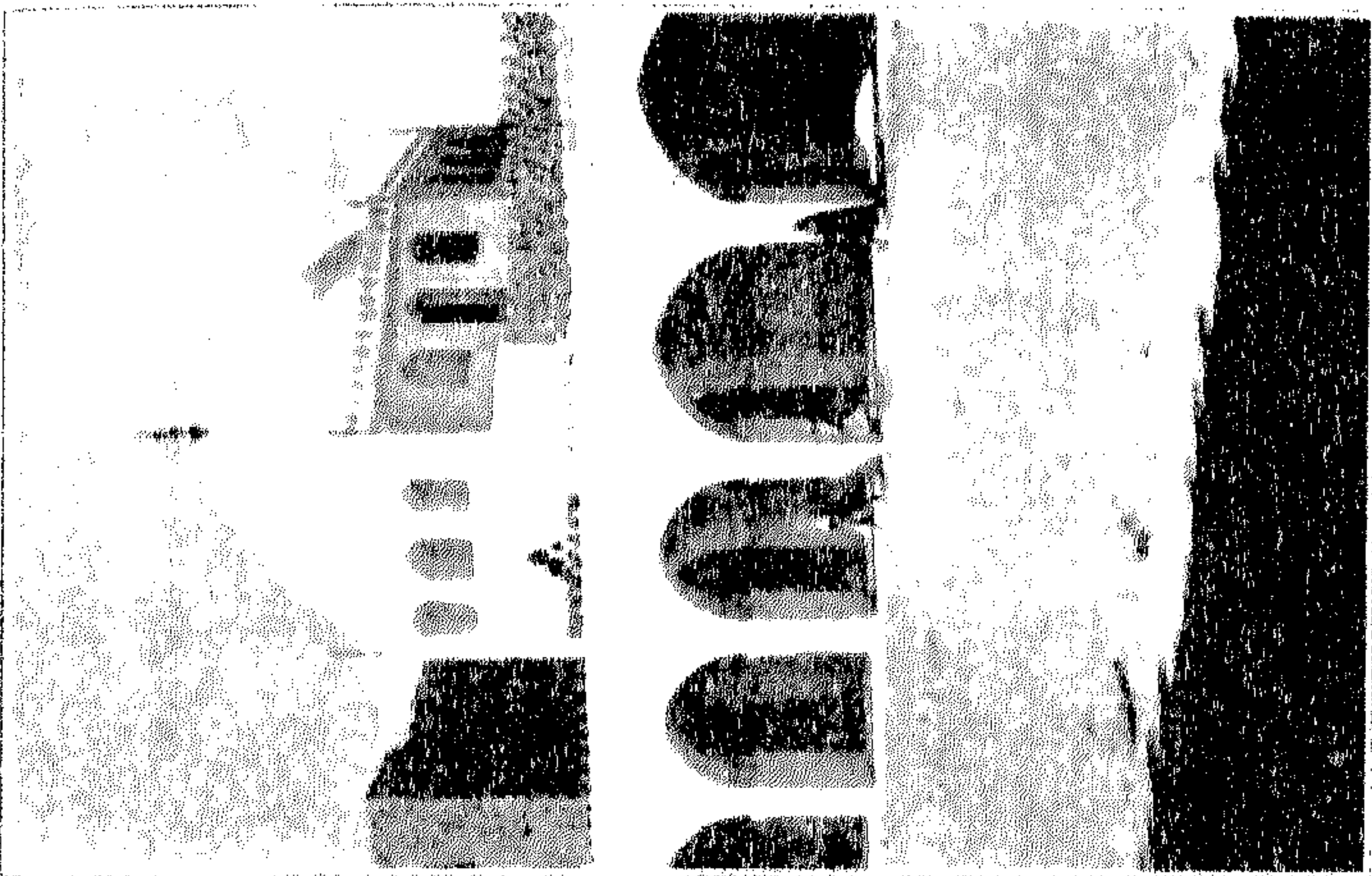


٤- مدخل ضريح السنوسي الكبير.

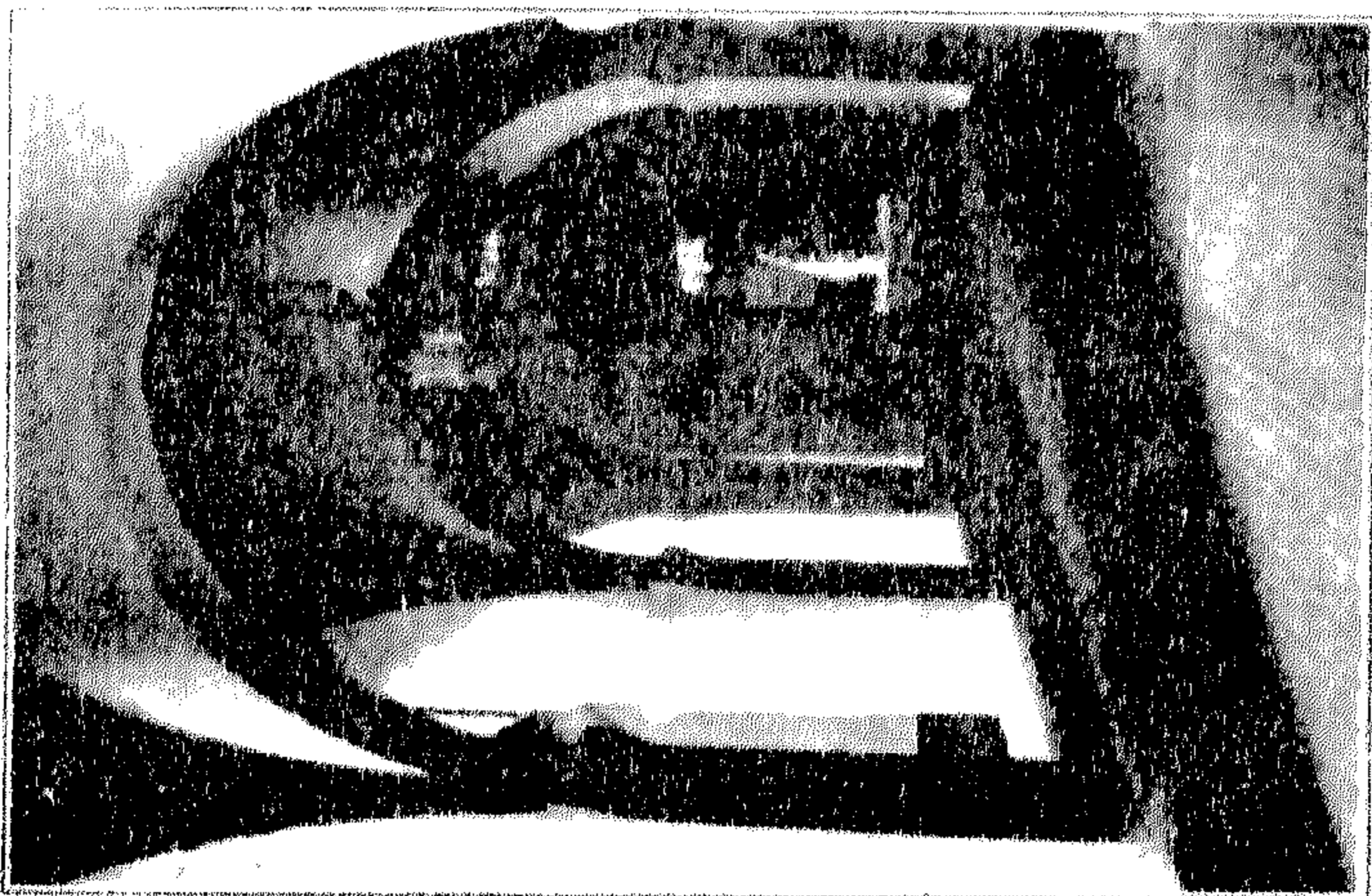


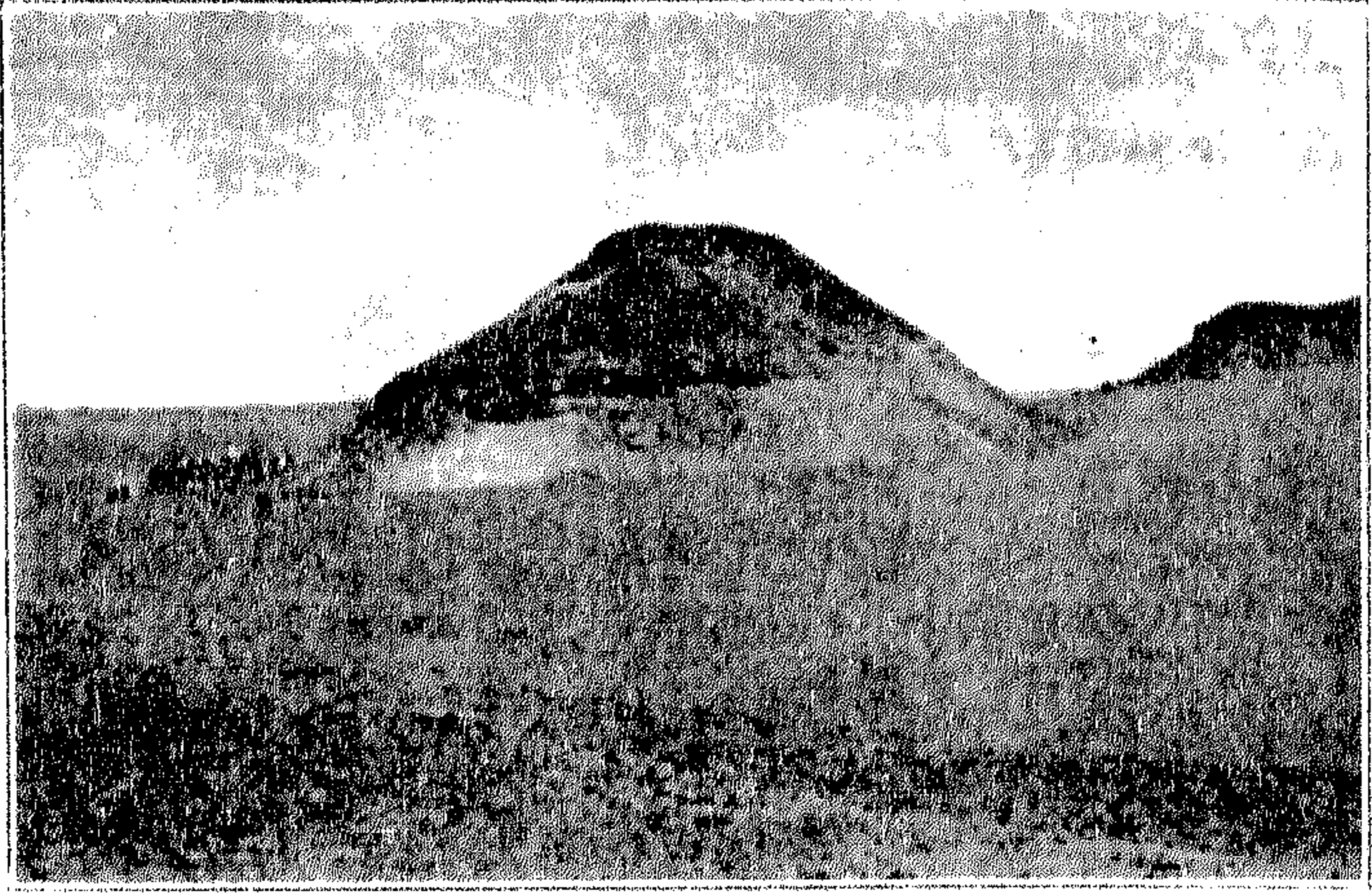
٥- السيد إدريس السنوسي رأس الطريقة السنوسية.

٦- مسجد القبة البيضاء في (جغبوب).



أحد أروقة مسجد (جغبوب).

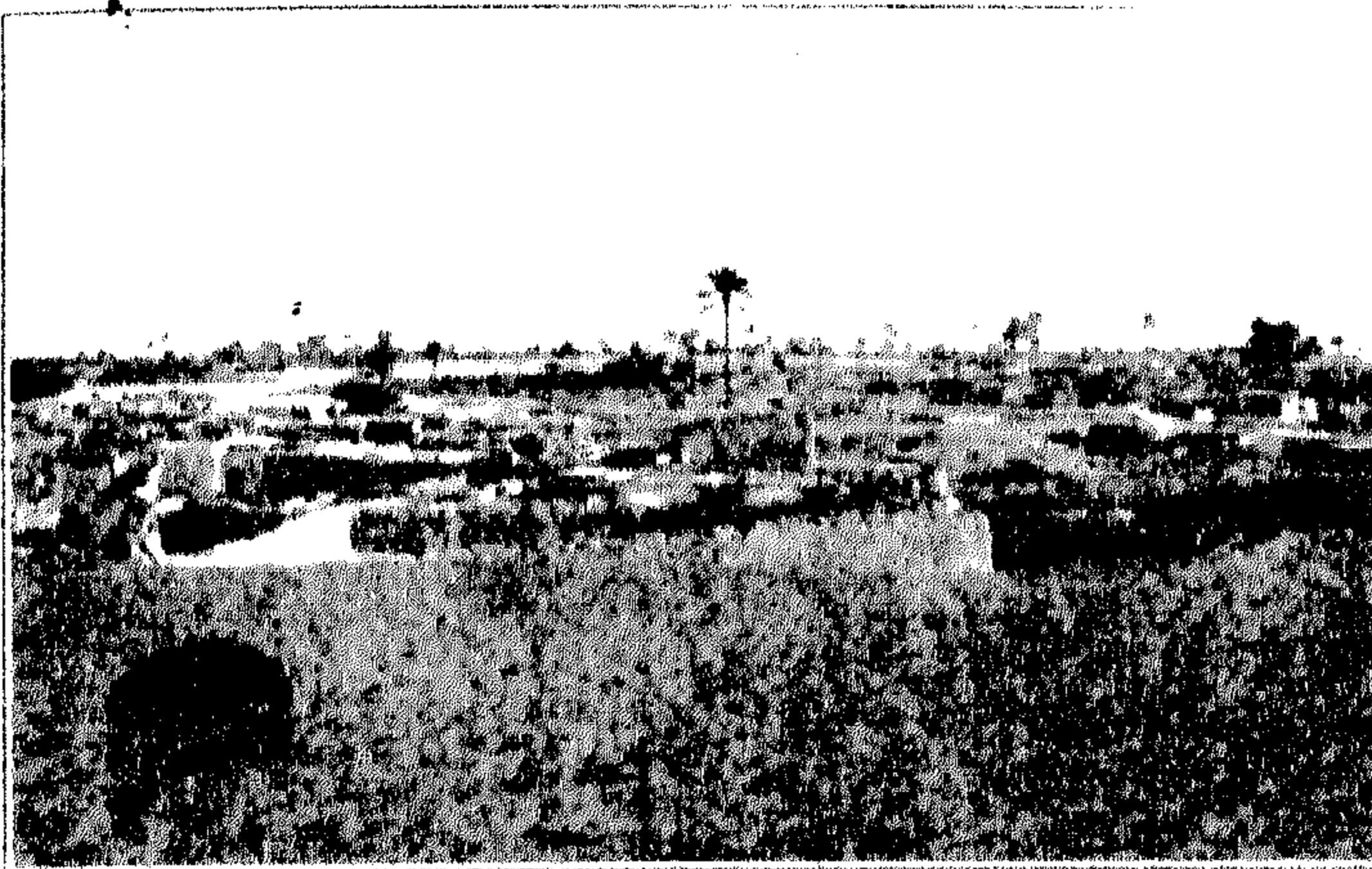




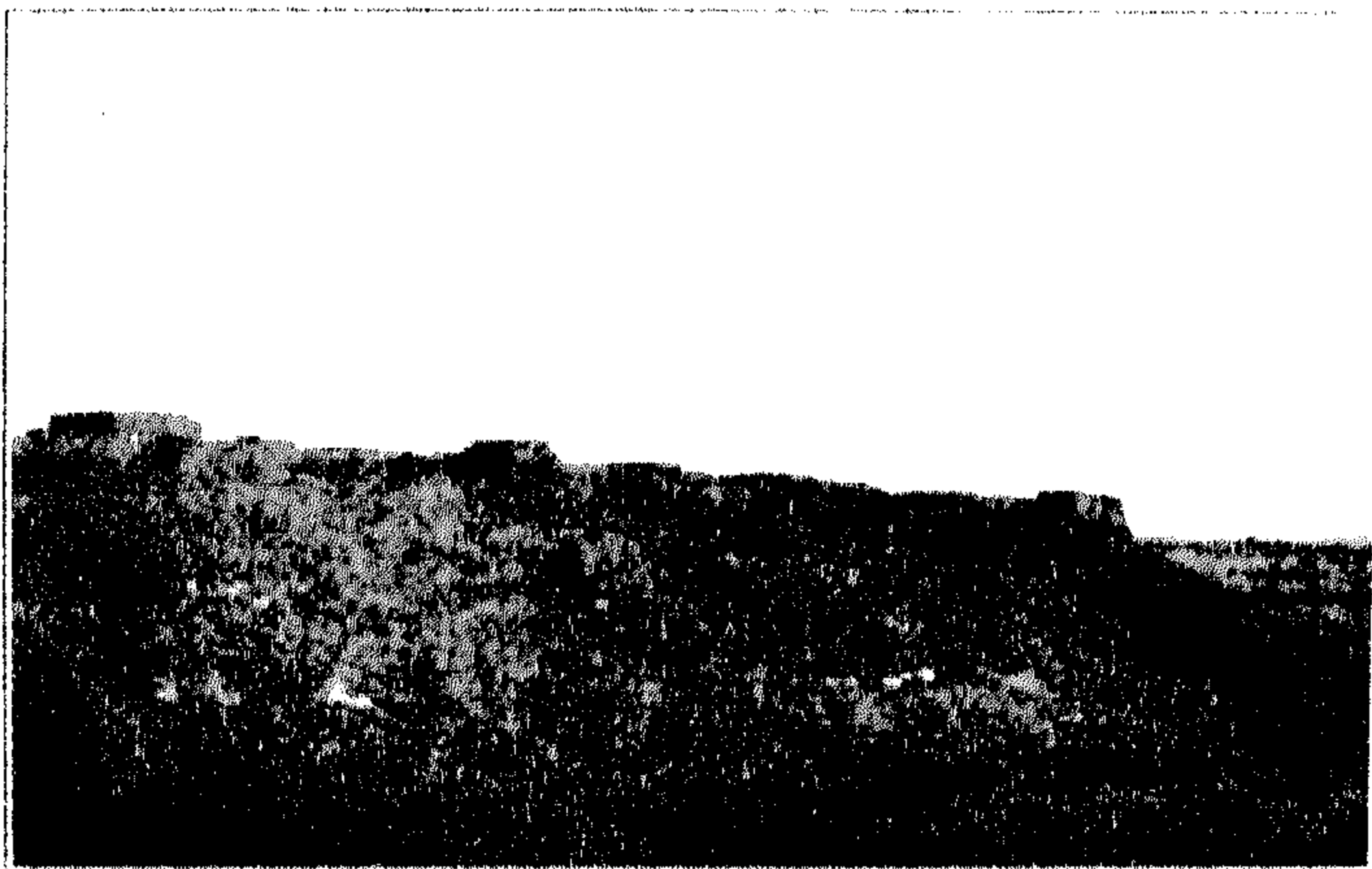
٧- الهواريا (علم الكفرة).



بقايا غابة متحجرة توجد في الطريق إلى (جالو).



٨- (واحة جالو).

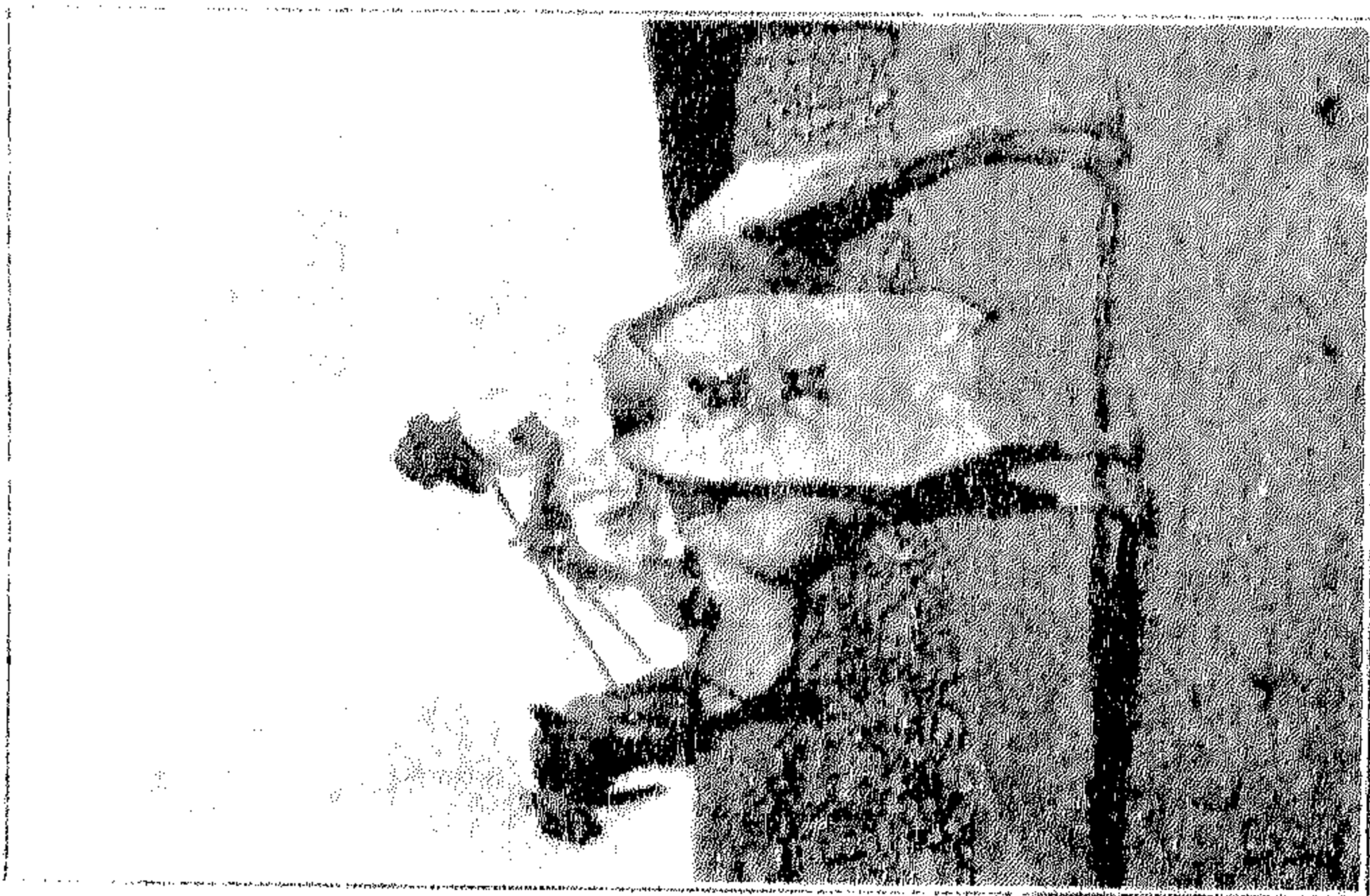


(التاج) مركز قيادة السنوسية في الكفرة.

٩- أحد أفراد (التينو) مع جملة.

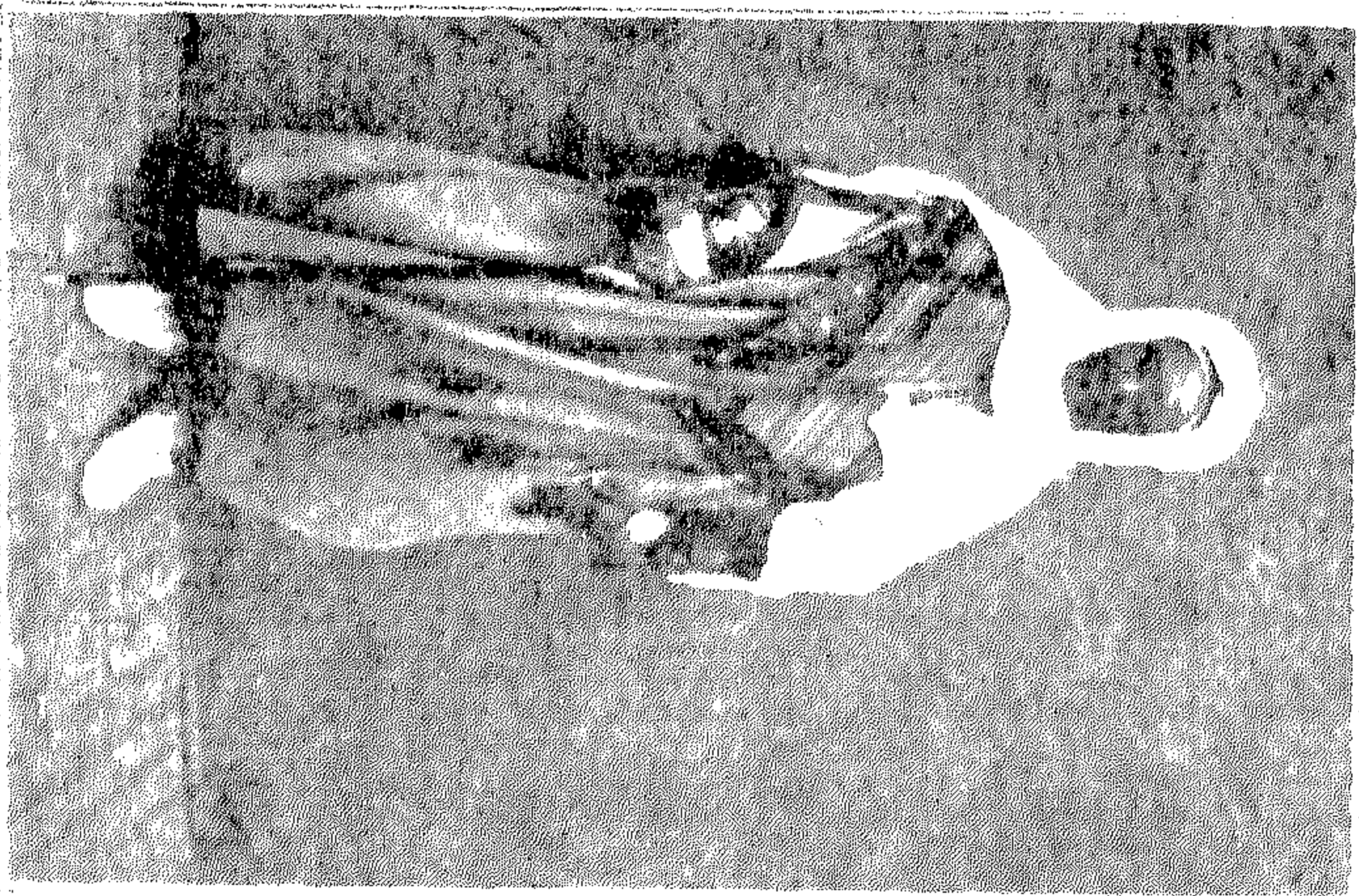


أحد الجمالين معصوب الوجه.

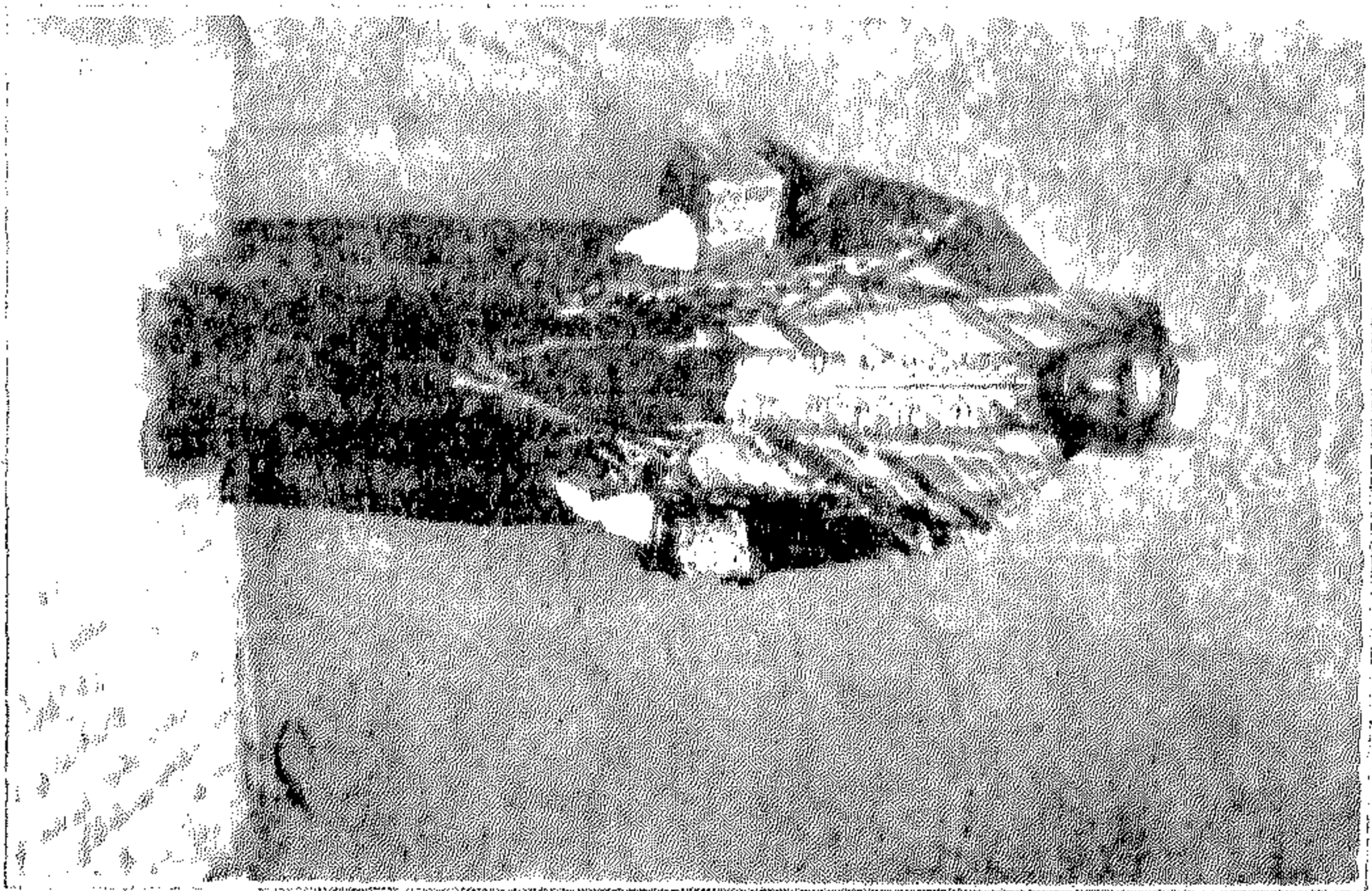


١ - الأبل وهي تعبر الكتيبان الرملية.





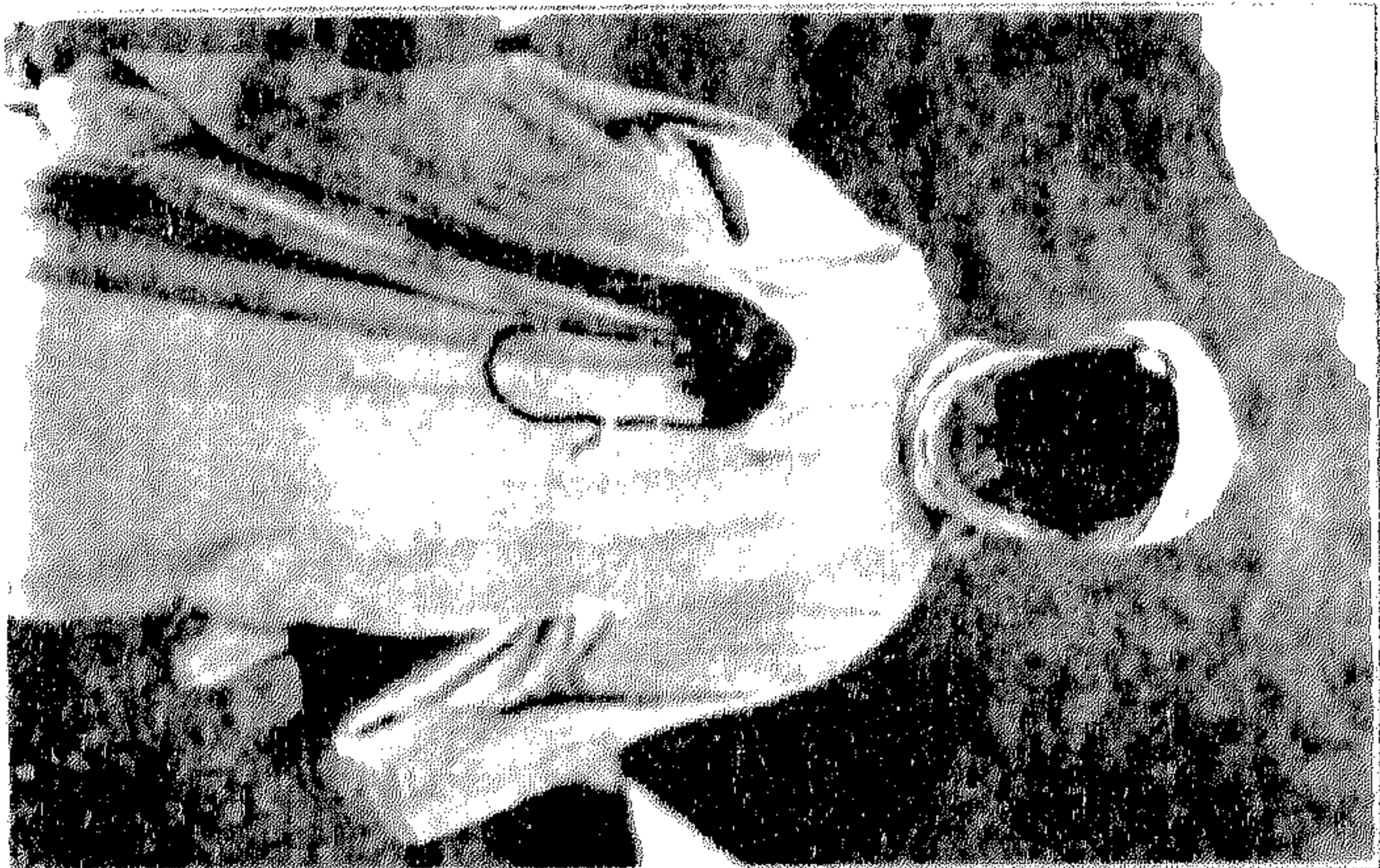
الأمير السنوسي في الكفرة.



ابن حاكم الكفرة.



السيد محمد العتيق.



١٢- ملك العوينات الشيخ هاري.



١٣- سيدى حسنين (الوكيل)



أعضاء مجلس واحة الكفرة.

١٤- منظر الصحراء من فوق قنطرة أركينو.



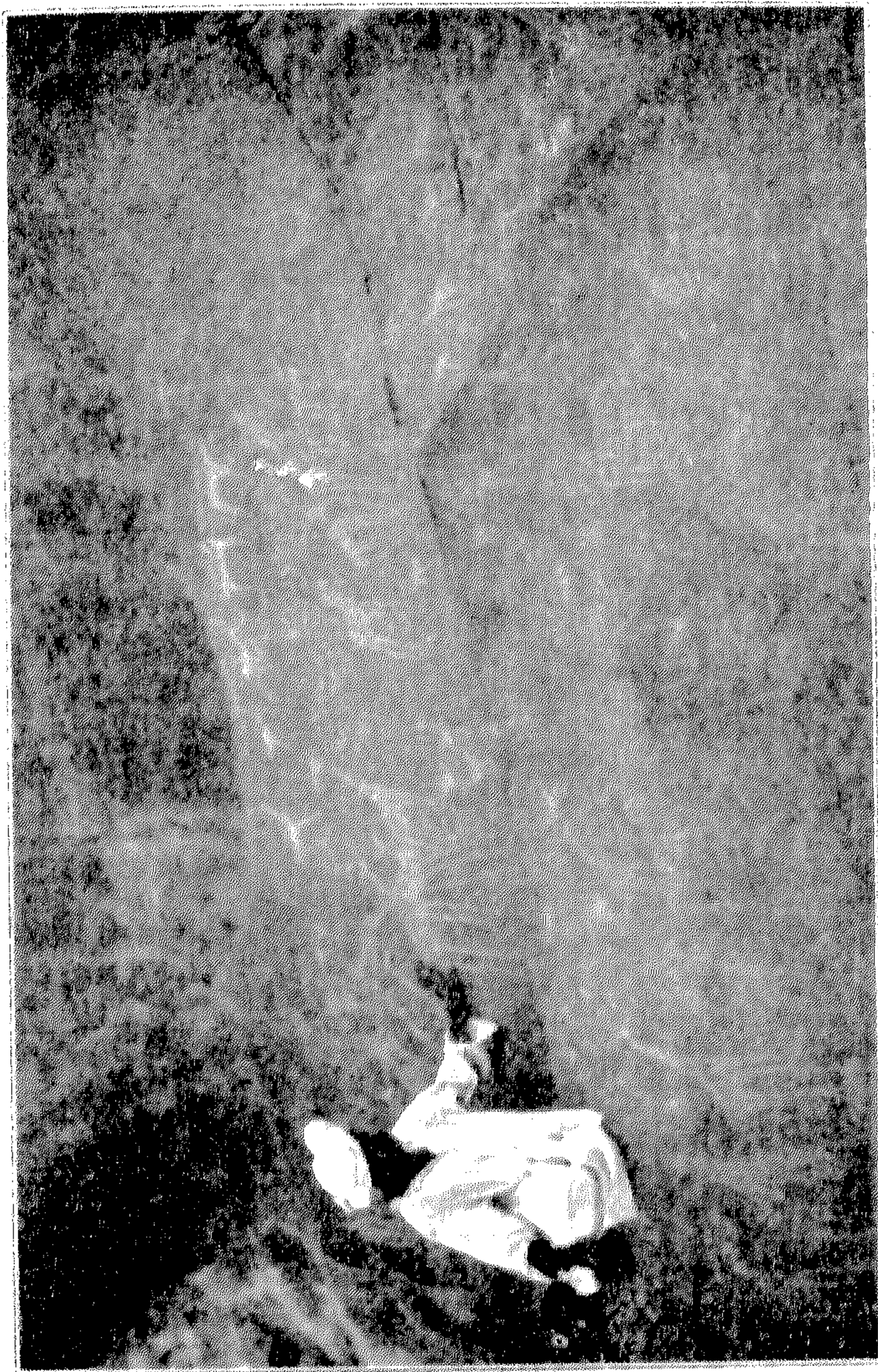
١٥- وادی العمیقینات.





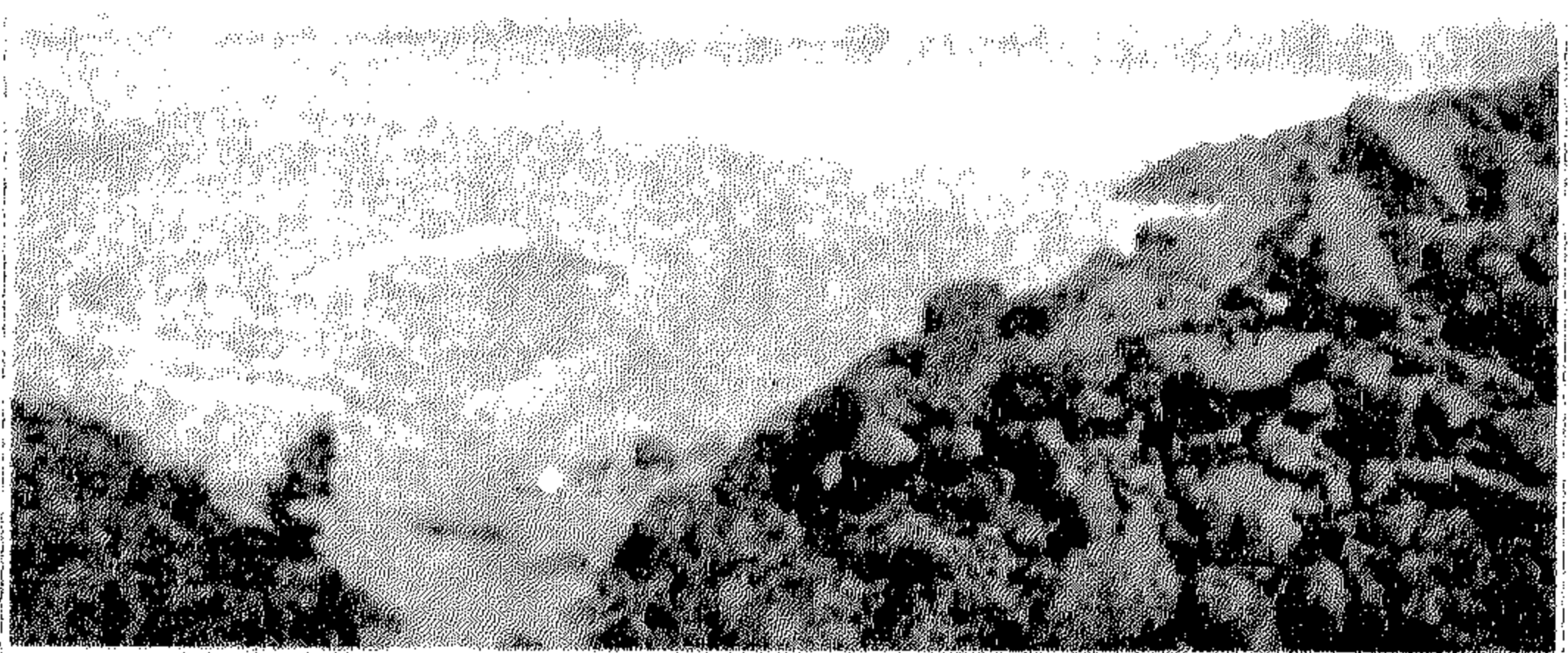
١ - المقاطعة في طريقها إلى واحة المويضات.

١٨- بعض الرسوم البدائية التي اكتشفها في العوينات.





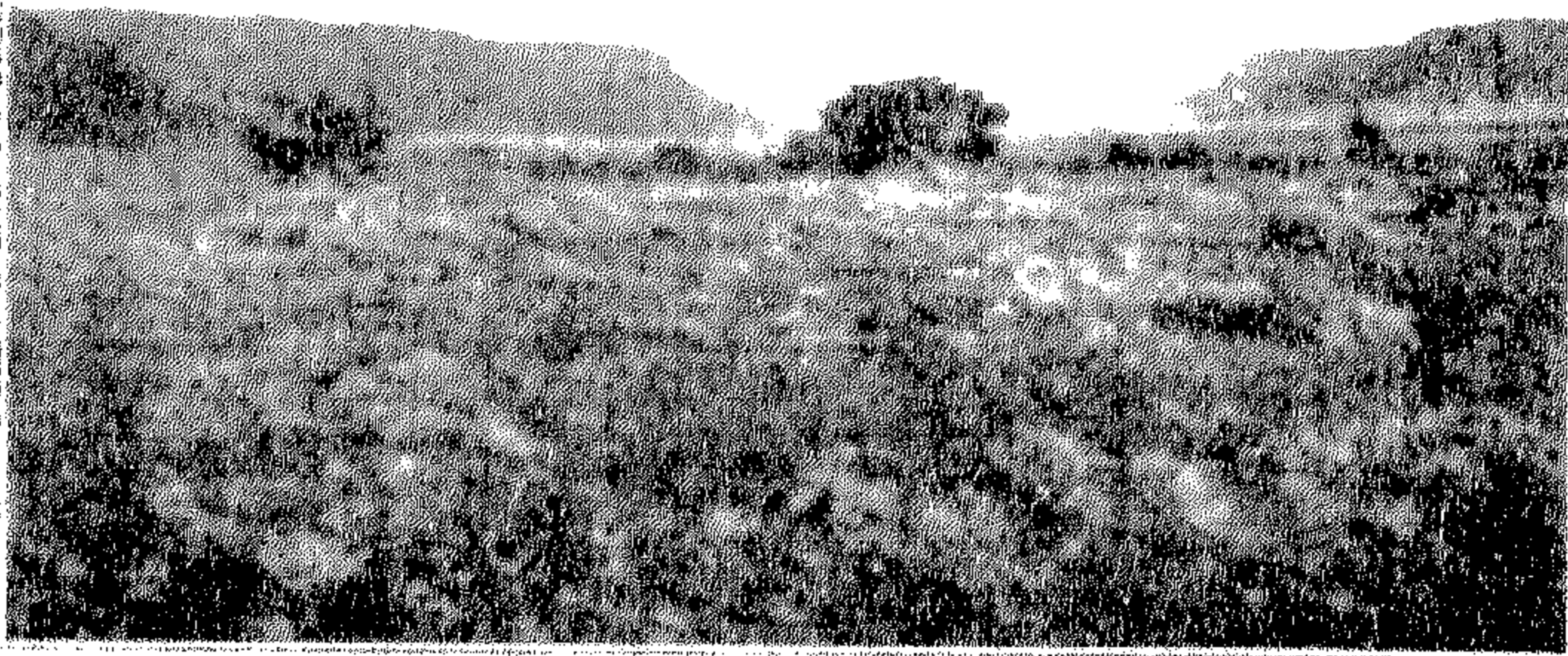
١٩- تلال العوينات.



مخيم المستكشف عند سفح جبل العوينات.



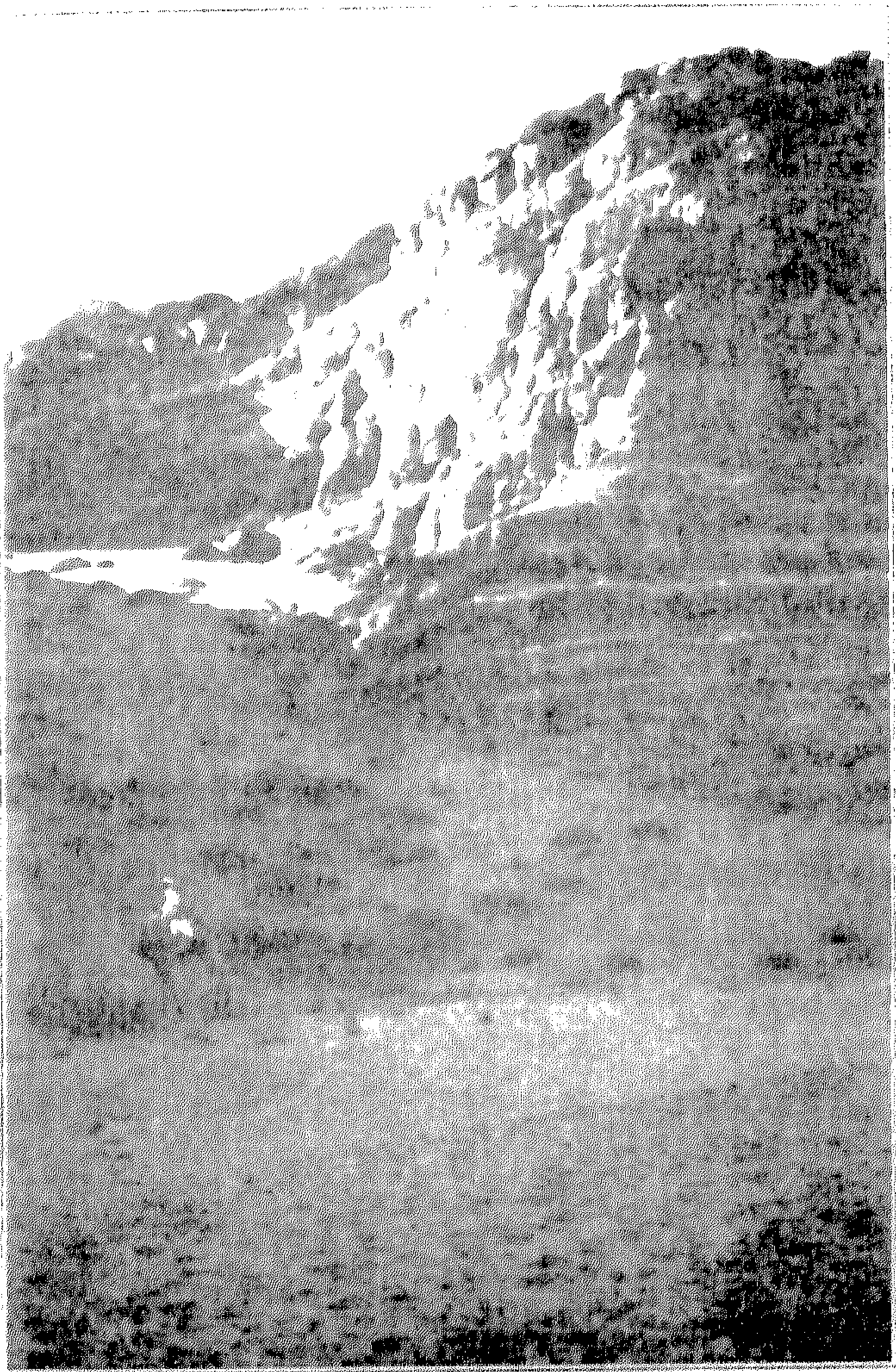
٢٠- بئر المياه الموجود في واحة العوينات.



۲۱- وادی اردی.



وادی آرکینو.



٢٢- أول شجرة تظهر عند الاقتراب من وادي اردى.

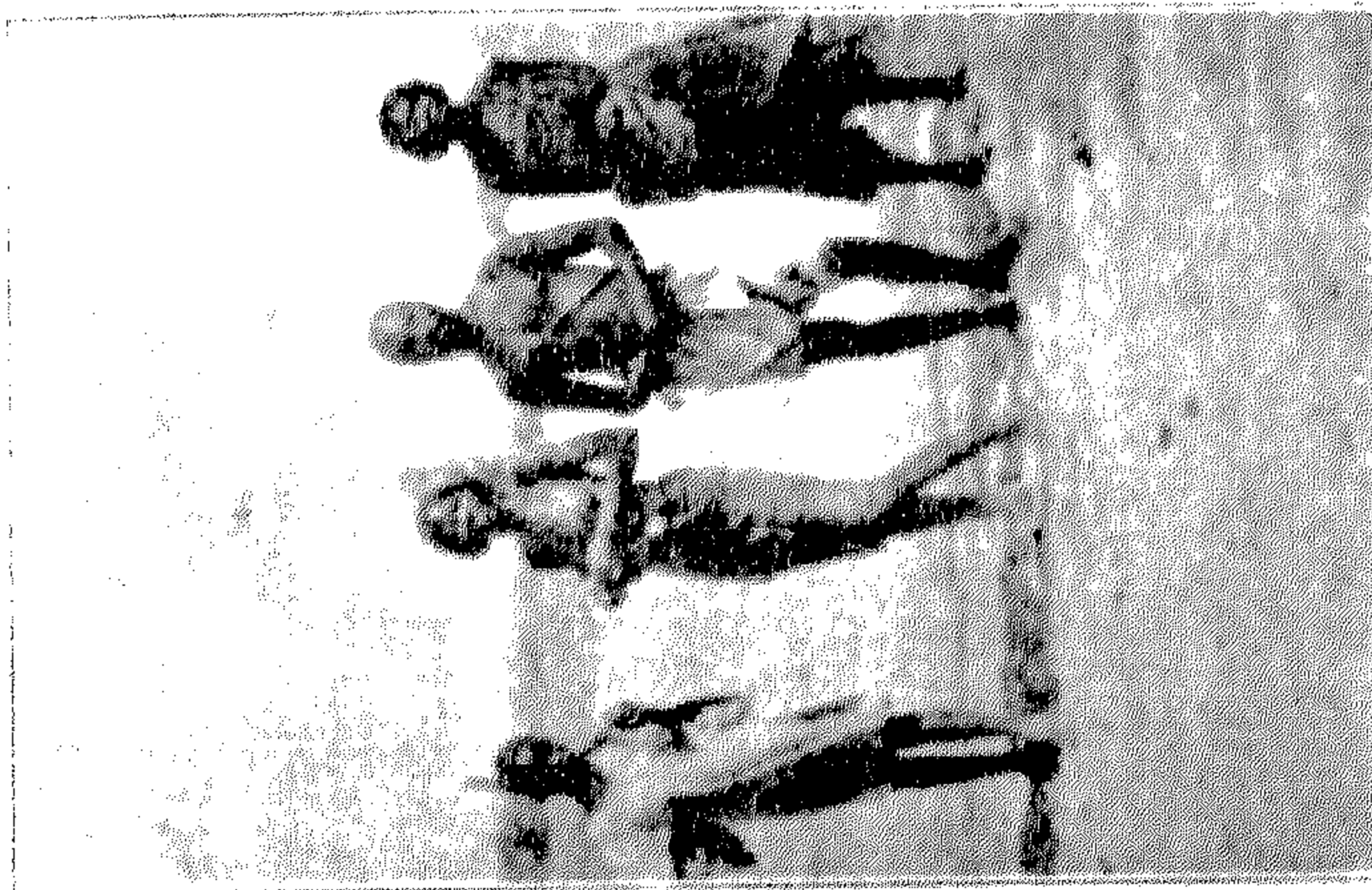


۷۲ - پیرایه - ۷۲

٢٤- إحدى فضاء الزخاوة.



أسرة بدوية.



المؤلف فى سطور:

أحمد محمد حسنين بك

- من مواليد بولاق عام ١٨٨٩م.
- تخرج فى جامعة أوكسفورد عام ١٩١٤م.
- بدأ حياته العملية فى وزارة الدفاع؛ حيث عمل سكرتيراً خاصاً للجنرال ماكسويل قائد قوات الجيش البريطانى فى مصر .
- انتقل للعمل فى وزارة الداخلية عام ١٩١٦.
- عمل سكرتيراً أول بسفارة مصر بواشنطن عام ١٩٢٣م.
- تدرج فى مناصب القصر ليصبح فى سنوات معدودة الأمين الثانى للملك فؤاد، ورائد الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد، ثم بعد ذلك صار أمينه الأول عندما أصبح ملكاً، ثم رئيساً لديوانه الملكى.
- توفى فى ١٩ فبراير ١٩٤٦ أثر حادث سيارة فوق كوبرى قصر النيل.
- كرمته العديد من المحافل العلمية المحلية والعالمية، كما حصل على العديد من الأوسمة والنياشين من مصر ودول العالم المختلفة منها: وسام سان لازار "إيطاليا"، ميدالية الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية للرواد "بريطانيا"، الوساح الأكبر: نيشان محمد على "مصر".

المترجمان فى سطور:

د. عبد الرحمن سعد حجازى

- من مواليد كرداسة بالجيزة عام ١٩٧١ م.
- تخرج فى قسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٩٣ م.
- نال درجة الدكتوراه فى أطروحة بعنوان "الخطاب السياسى فى شعر تميم بن المعز والمؤيد فى الدين الشيرازى: دراسة أسلوبية" عام ٢٠٠٤ م.
- يعمل حالياً مشرفاً مساعداً على التصحيح اللغوى بالمشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة منذ عام ١٩٩٧ حتى الآن.

صدر له:

- مصر فى رداها الفاطمى، مجلة المحيط الثقافى، "المجلس الأعلى للثقافة" القاهرة، ديسمبر ٢٠٠١ م.
- نشأة الموشحات (تفسير جديد)، مجلة جذور، النادى الأدبى الثقافى بجدة، المملكة العربية السعودية، العدد ١١، شوال ١٤٢٣ هـ = ديسمبر ٢٠٠٢ م.
- ترجمة ديوان أشعار من عالم اسمه الصين "مختارات من شعر آى تشينغ"، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٣ م.
- الخطاب السياسى فى الشعر الفاطمى: دراسة أسلوبية، القاهرة ٢٠٠٥ م.
- له تحت الطبع كتاب "بلاغة التأويل".

أمير نبیه تادرس

- من مواليد القاهرة عام ١٩٧٠م.
- تخرج في قسم الجغرافيا، جامعة الزقازيق عام ١٩٩١م.
- حصل على تمهيدى الماجستير في الجغرافيا من جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م .
- التحق بالعمل بوزارة الثقافة عام ١٩٩٧م.
- عضو لجنة اتصال مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي أعوام: ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١م.
- عضو لجنة مراسم مهرجان القاهرة السينمائي الدولي أعوام: ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤م.
- يعمل حاليًا باحثًا بقطاع العلاقات الثقافية الخارجية "بوزارة الثقافة".
- يتولى الإشراف على وحدة معلومات قطاع العلاقات الثقافية الخارجية إلى جانب عمله.
- مثل جهة عمله في العديد من المحافل الثقافية في مصر، وشارك في العديد من المناسبات الثقافية الدولية التي نظمت في الدول الأجنبية من بينها: بولندا، بلغاريا، كوريا الجنوبية، الصين، كندا، سوريا.
- صدر له في إطار المشروع القومي للترجمة ديوان أشعار من عالم اسمه الصين "مختارات من شعر آي تشينغ" عام ٢٠٠٣م.

المراجع فى سطور طلعت الشايب

- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ورئيس تحرير سلسلة «آفاق عالمية»، وعضو مجلس تحرير مجلة «أدب ونقد» - حاصل على جائزة اتحاد كتّاب مصر فى الترجمة - ٢٠٠٣.
- ترجم ٣٠ كتابًا من بينها:
- صدام الحضارات (صمويل هنتجتون) - حدود حرية التعبير (مارينا ستاج) - المثقفون (بول جونسون) - الحرب الباردة الثقافية (ف.س. سوندرز) - الطفولة فى السيرة الذاتية العربية (تيتز روكى) - التحدى (مهاتير محمد).
- كما ترجم عددًا من الأعمال الروائية العالمية من بينها:
- فتاة عادية (للأمريكى آرثر ميللر) - الملاك الصامت (للألمانى هينرش بول) - عاريا أمام الآلهة (للهندي شيف كومار) - الحرير (للإيطالى اليساندرو باريكو) - البطء (للتشيكى ميلان كونديرا) - بقايا اليوم (لاليابانى كازو إيشيجورو) - الخوف من المرايا (للباكستانى طارق على) - مكتوب (للبرازيلى باولو كويليو).

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القوامى للترجمة

أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا	١-
أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	الوثنية والإسلام (ط١)	٢-
شوقي جلال	جورج جيمس	التراث المسروق	٣-
أحمد الحضرى	انجا كاريثنيكوفا	كيف تتم كتابة السيناريو	٤-
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة	٥-
سعد مصلوح ووفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللسانى	٦-
يوسف الأنطكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة	٧-
مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق	٨-
محمود محمد عاشور	أندرو. س. جودى	التغيرات البيئية	٩-
محمد مفتاح وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى	جيرار جينيت	خطاب الحكاية	١٠-
هنا عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	مختارات شعرية	١١-
أحمد محمود	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	طريق الحوير	١٢-
عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	ديانة الساميين	١٣-
حسن المودن	جان بيلمان نويل	التحليل النفسى للأدب	١٤-
أشرف رفيق عفيفى	إنوارد لوسى سميث	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	١٥-
ياشراف أحمد عثمان	مارتن برنال	أثينة السوداء (ج١)	١٦-
محمد مصطفى بدوى	فيليب لاركين	مختارات شعرية	١٧-
طلعت شاهين	مختارات	الشعر النفسى فى أمريكا اللاتينية	١٨-
نعيم عطية	جورج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة	١٩-
يمنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم	٢٠-
ماجدة العنانى	صمد بهرنجى	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	٢١-
سيد أحمد على الناصرى	جون أنتيس	مذكرات رحالة من المصريين	٢٢-
سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلى الجميل	٢٣-
بكر عباس	باتريك بارندر	ظلال المستقبل	٢٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومى	مثنوى	٢٥-
أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	دين مصر العام	٢٦-
ياشراف: جابر عصفور	مجموعة من المؤلفين	التنوع البشرى الخلاق	٢٧-
منى أبو سنة	جون لوك	رسالة فى التسامح	٢٨-
بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود	٢٩-
أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	الوثنية والإسلام (ط٢)	٣٠-
عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	٣١-
مصطفى إبراهيم فهمى	ديفيد روب	الانقراض	٣٢-
أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هويكنز	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	٣٣-
حصه إبراهيم المنيف	روجر آلن	الرواية العربية	٣٤-
خليل كلفت	بول ب. ديكسون	الأسطورة والحداثة	٣٥-
حياة جاسم محمد	والاس مارتين	نظريات السرد الحديثة	٣٦-

٢٧-	واحة سيرة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٢٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزوج	أوكتايفو پاث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	الدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغفور	روبرت دينأ وجون هالين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو فيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد يرادة وعثمانى الميلود ويوسف الأتلكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م . بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب . نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونيث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أنداسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نقاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبونسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادق	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتقرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أفتونى جيننز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	اساليب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الاول والصحب	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بوير بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنعدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عن الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برقولات بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جيتيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعور
١٠٧-	صورة الدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

- ١١٣- راية التمرد سادى پلانت أحمد حسان
- ١١٤- مسرحيتا حصاد كرنجى وسكان المستقع وول شوينكا نسيم مجلى
- ١١٥- غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف سمية رمضان
- ١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون نهاد أحمد سالم
- ١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد منى إبراهيم وهالة كمال
- ١١٨- النهضة النسائية فى مصر بث بارون ليس النقاش
- ١١٩- النساء والامرة والقوانين الخلاق فى التاريخ الإسلامى أميرة الأزهرى سنبل بإشراف: روف عباس
- ١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد مجموعة من المترجمين
- ١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى محمد الجندى وإيزابيل كمال
- ١٢٢- نظام السوية القديم والنموذج المثالى للإنسان جوزيف فوجت منيرة كروان
- ١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية أنيئل ألكسندرو فنادولينا أنور محمد إبراهيم
- ١٢٤- الفجر الكاذب أوهام الرأسمالية العالمية چون جراى أحمد فؤاد بلبع
- ١٢٥- التحليل الموسيقى سيدرك ثورپ ديفى سمحة الخولى
- ١٢٦- فعل القراءة قوافانج إيسر عبد الوهاب علوب
- ١٢٧- إرهاب (مسرحية) صفاء فتحى بشير السباعى
- ١٢٨- الأدب المقارن سوزان باستيت أميرة حسن نورية
- ١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دولوريس أسيس جاروته محمد أبو العطا وآخرون
- ١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوند فرانك شوقى جلال
- ١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين لويس بقطر
- ١٣٢- ثقافة العولمة مايك فيذرستون عبد الوهاب علوب
- ١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) طارق على طلعت الشايب
- ١٣٤- تشريح حضارة بارى ج. كيمب أحمد محمود
- ١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت ماهر شفيق فريد
- ١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كرونو سحر توفيق
- ١٣٧- مذكرات مضابط فى الحملة الفرنسية على مصر جوزيف مارى مواريه كاميليا صبحى
- ١٣٨- عالم التلفزيون بين الجمال والعنف أندريه جلوكسمان وجيه سمعان عبد المسيح
- ١٣٩- پارسيغال (مسرحية) ريتشارد فاچنر مصطفى ماهر
- ١٤٠- حيث تلتقى الأنهار هريوت ميسن أمل الجبورى
- ١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين نعيم عطية
- ١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر حسن بيومى
- ١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر عدلى السمرى
- ١٤٤- صاحبة اللوكائدة (مسرحية) كارلو جولدونى سلامة محمد سليمان
- ١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) كارلوس فوينتس أحمد حسان
- ١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميجيل دى ليس على عبدالروف البمبى
- ١٤٧- مسرحيتان تانكريد نورست عبدالغفار مكاوى
- ١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكى أندرسون إمبرت على إبراهيم منوفى
- ١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول أسامة إسبر
- ١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراشة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	هيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	اليفاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوي	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أماناسيفا	سهير المصادقة
١٦٦-	العلاقات بين المذنبين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	واقر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنري ثروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	الله النبي الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تنام	هانز إبنهورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُردج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر النيب

١٨٩-	العنى والبصرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاوَرَات كُونْفُوشِيُوس	كُونْفُوشِيُوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)	زين العابدين المراضى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الانجلز-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شقاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندوا	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية. المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان نوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيندز	محمد محبى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراضى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طبيعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفاذى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابريل جارتيا ماركيت	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	طاهر محمد على البريرى

السيد عبدالظاهر عبدالله	خوسيه مارييا ديث بوركي	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	٢٢٧-
ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	جانيت وولف	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	نورمان كيغان	مازق البطل الوحيد	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	فرانسواز جاكوب	عن الذباب والفئران والبشر	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	خايمي سالوم بيدال	الرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	توم ستونير	ما بعد المعلومات	٢٣٢-
طلعت الشايب	آرثر هيرمان	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	٢٣٣-
فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمينجهام	الإسلام في السودان	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	ديوان شمس تبريزي (ج١)	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل شودكفيتش	الولاية	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	روبين فيدين	مصر أرض الوادي	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربي مديولى أحمد	تقرير لمنظمة الانكتاد	العولة والتحرير	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيدا رامران - رايوخ	العربي في الأدب الإسرائيلي	٢٣٩-
صلاح محجوب إدريس	كاي حافظ	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	٢٤٠-
ابقسام عبدالله	ج. م. كوتزي	في انتظار البرابرة (رواية)	٢٤١-
صبري محمد حسن	وليام إمبسون	سبعة أنماط من الغموض	٢٤٢-
إشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لورا إسكييل	الغليان (رواية)	٢٤٤-
توفيق على منصور	إليزابيتا أديس وآخرون	نساء مقاتلات	٢٤٥-
على إبراهيم منوفى	جابريل جارتيا ماركيث	مختارات قصصية	٢٤٦-
محمد طارق الشرقاوى	والتر أرمبرست	الثقافة الجماهيرية والعدالة في مصر	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالحليم	أنطونيو جالا	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	٢٤٨-
رفعت سلام	دراجو شتامبوك	لغة التمزق (شعر)	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	دومنيك فينك	علم اجتماع العلوم	٢٥٠-
إشراف: محمد الجوهري	جوردون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٥١-
على بدران	مارجو بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	٢٥٢-
حسن بيومي	ل. أ. سيمينوفا	تاريخ مصر الفاطمية	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	أقدم لك: الفلسفة	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	أقدم لك: أفلاطون	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وكريس جارات	أقدم لك: ديكارت	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلى رايت	تاريخ الفلسفة الحديثة	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزر	الفجر	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	نخبة	مفكرات من الشعر الأرمني عبر العصور	٢٥٩-
إشراف: محمد الجوهري	جوردون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكى نجيب محمود	رحلة في فكر زكى نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إبواردو مندوتا	مدينة المعجزات (رواية)	٢٦٢-
على يوسف على	چون جرين	الكشف عن حافة الزمن	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشلى	إبداعات شعرية مترجمة	٢٦٤-

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي
٢٦٨-	ديوان شمس تيريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية في مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأسلحة الاجتماعية والثقافية لمركبة عربى في مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعرًا وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التلمساني
٢٧٧-	الحيئات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والتصويب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرؤوف البعبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان متوجهى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبييل موريز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحويين اليونانية والسريانية	ليونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بومبيوس في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء چامين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بومبيوس في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٢-	أقدم لك: بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بايينو وهوارد سلين	محمود مكي
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ريج كوانجود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤-	مارسيل نوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلاغد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة القاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينبارد	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساقورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن منقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الاهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إيوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمي
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصلة الاوان في الادب التركي (ج١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجي	محمود علاوي
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر القاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلي الشربيني
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبري محمد حسن
٣٦٤-	حدائق شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٣٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصلة الاوان في الادب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام الستين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٢٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادر	بهاء الدين محمد إسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد على بهزادراد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى
بهاء چاهين	چون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. فى. روبرتس	٢٩٠- الأرضيات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٢٩١- الحافلة اليلكية (رواية)
عبداللطيف عبداللطيف	فرناندو دى لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- ألام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- موعو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياودن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة للمطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوف	٤١٤- الجمهورية العالمية للأداب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش نيرينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بنوى	أ. أ. رتشاردن	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر الثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميچاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسرعات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طلوس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبتسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليوفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياثلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زبرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبيرس	هايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المراهبى (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورن	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	بروين ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويون فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسلى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكأن	داريان ليدر وجودى جروفرز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	مله حسين من الأزهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية القلة	مايكل بارنتى	حمزة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النثة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موديس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	هوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	مادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ السبع منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاوشه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبرت ياروس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالقنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسْرُل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسْرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسماء الپفاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوي	إدوارد ثيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة في الشرق الأوسط	نادية العلي	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد علي بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	آرثر جولد هامر	سحر قراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جابنارلي	عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في عصر سلطين المالك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدوني	عبد الرزاق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريغان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي دوجلاس	فدوى مالطي دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإدمان	آرنولد واشنطن وديونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الولع الفرنسي بمصر من الطم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣-	الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وايم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم سيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كروول ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكي والماركسية	طارق علي وفيل إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردني	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصري
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٢١-	ما الذي حَدَّثَ في «حَدَّث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٢٢-	المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٢٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٢٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٢٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٢٦-	الثقافات وقيم التقدم	سمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٢٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكاوي
٥٢٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانييل	محمد الحديدي
٥٢٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تخيل هالوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبورن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	يول كوبلي وليتا جانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرد	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	هلي عبد الرؤوف البعبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية لقرن الحادي والعشرين	أناثولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين سارداروبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساغان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصول في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	بول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الفراغة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ايجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيرة
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الرووف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وچودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج ١)	جون فيزر ويول سترجنز	باشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاج (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزيث مالكموس وروى أرمن	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنبيس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجبية (رواية)	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والفكر	هوراتيوس	على عبدالقواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبرى السورىونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج ٢)	إكوادو بانواى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي على قنفيل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريز	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	أرثر أيزنبرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدججة	رفائيل لوبيث جوثمان	على إبراهيم متوفى
٦١١-	النقد والأيدىولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	معرض الاعمال التى ولدت فى بلدان من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	النوبة المعبر الحضارى	وليم ي. أنمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادير جحا الإيرانية	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد يرادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاى جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	باشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج النين	مصطفى البهنسارى
٦٣٥-	التبثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يواندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ودين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكى منينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدرايبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د. تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	نيليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفلة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدنيار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج آتش كليمن	جمال عبد الناصر ومحدث الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الآزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألن جولدر	على لينة
٦٦٨-	ثقافات العرلة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	ول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولنوين	على عبد الأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	بيوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج١، ج٢، مج١)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، مج٢)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، مج١)	إنوارد جرانثيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، مج٢)	إنوارد جرانثيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	ول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نم فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيعى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٢-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الامثال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الامثال القصصية الكاملة (المصراع) (ج٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوير وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أيبجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاتيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك. دريدا	جيف كولنر وبيل مايلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندريجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب واقعه	ماريو فرجاش	بسمه عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحدائق	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	إدوارد جرانتيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنعام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبد الحميد مذكور
٧٠٦-	البشارة الوراثية وكتاب التحولات	جوشن ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	لمراعاة من؟	دونالد مالكولم ريد	رؤف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجوموران إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حناء صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (ج١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (ج٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (ج٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	ه. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الفنى

الصفحة وقصص أخرى	٧٢٢-
تحديات ما بعد الصهيونية	٧٢٣-
اليسار الفريدي	٧٢٤-
الاضطراب النفسي	٧٢٥-
الموريسكيون في المغرب	٧٢٦-
حلم البحر (رواية)	٧٢٧-
العولة: تدمير العمالة والنمو	٧٢٨-
الثورة الإسلامية في إيران	٧٢٩-
حكايات من السهول الأفريقية	٧٣٠-
النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	٧٣١-
قصص بسيطة (رواية)	٧٣٢-
ماساة عطيل (مسرحية)	٧٣٣-
بونابرت في الشرق الإسلامي	٧٣٤-
فن السيرة في العربية	٧٣٥-
التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (ج١)	٧٣٦-
الكوارث الطبيعية (مج٢)	٧٣٧-
عشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الثورة الملوكية	٧٣٨-
عشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	٧٣٩-
خطابات القوة	٧٤٠-
الإسلام وأزمة العصر	٧٤١-
أرض حارة	٧٤٢-
الثقافة: منظور دارويني	٧٤٣-
ديوان الأسرار والرموز (شعر)	٧٤٤-
المآثر السلطانية	٧٤٥-
تاريخ التحليل الاقتصادي (مج١)	٧٤٦-
الاستعارة في لغة السينما	٧٤٧-
تدمير النظام العالمي	٧٤٨-
إيكولوجيا لغات العالم	٧٤٩-
الإلياذة	٧٥٠-
الإسراء والمعراج في تراث الشعر الفارسي	٧٥١-
ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	٧٥٢-
التنمية والقيم	٧٥٣-
الشرق والغرب	٧٥٤-
تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين	٧٥٥-
ذات العيون الساحرة	٧٥٦-
تجارة مكة	٧٥٧-
الإحساس بالعولة	٧٥٨-
النثر الأردني	٧٥٩-
الدين والتصور الشعبي للكون	٧٦٠-
يشار كمال	الصفصافي أحمد القطوري
إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
بول روبنسون	عبد الريس
جون فيتكس	مى مقلد
غييرمو غوثالييس بوستو	مروة محمد إبراهيم
باچين	وحيد السعيد
موريس أليه	أميرة جمعة
صديق زيبا كلام	هويدا عزت
آن جاتى	عزت عامر
مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
إنجو شولتسه	سمير جريس
وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
أحمد يوسف	أمل الصبان
مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
هوارد زن	شعبان مكوى
باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
جيرار دى جورج	محمد عواد
جيرار دى جورج	محمد عواد
بارى هندس	مرفت ياقوت
برنارد لويس	أحمد هيكل
خوسيه لاكوارا	رزق بهتسى
روبرت أونجر	شوقى جلال
محمد إقبال	سمير عبد الحميد
بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمي
تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
فرانسيس بويل	سمير كريم
ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
هوميروس	بإشراف: أحمد عثمان
نخبة	علاء السباعى
جمال قارصلى	نمر عارورى
إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
أنا ماري شيميل	عبد السلام حيدر
أندرو ب. ديبكى	على إبراهيم منوفى
إنريكي خاردييل بوتثيلا	خالد محمد عباس
باتريشيا كرون	أمال الرويى
بروس روبنز	عاطف عبد الحميد
مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
السيد الأسود	السيد الأسود

فاطمة ناعوت	فيرجينيا وولف	٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة ()
عبدالعال صالح	ماريا سوليداد	٧٦٢-	المسلم عدواً و صديقاً
نجوى عمر	أنريكو بيا	٧٦٣-	الحياة في مصر
حازم محفوظ	غالب الدهلوى	٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)
حازم محفوظ	خواجة الدهلوى	٧٦٥-	ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)
غازى برو و خليل أحمد خليل	تيرى هنتش	٧٦٦-	الشرق المتخيل
غازى برو	نسيب سمير الحسينى	٧٦٧-	الغرب المتخيل
محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى	٧٦٨-	حوار الثقافات
رندا النشار و ضياء زاهر	فريدريك هتمان	٧٦٩-	أدباء أحياء
صبرى التهامى	بينيتو بيريث جالوس	٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا
صبرى التهامى	ريكاردو جوهرالديس	٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا
محسن مصيلحى	إليزابيث رايت	٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة
باشراش: محمد فتحى عبدالهادى	جون فيزر ويول ستيرجس	٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية (ج٢)
حسن عبد ربه المصرى	مجموعة من المؤلفين	٧٧٤-	الديمقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات
جلال الحفناوى	نذير أحمد الدهلوى	٧٧٥-	مرآة العروس
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)
عزت عامر	جيمس إ. ليدسى	٧٧٧-	الانفجار الأعظم
حازم محفوظ	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	٧٧٨-	صفوة المديح
سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى	نخبة	٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى
سمير عبد الحميد إبراهيم	غلام رسول مهر	٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠
نبيلة بدران	هدى بدران	٧٨١-	الطريق إلى بكين
جلال عبد المقصود	مارفن كارلسون	٧٨٢-	المسرح المسكون
طلعت السروجى	فيك جورج ويول ويلدنچ	٧٨٣-	العولة والرعاية الإنسانية
جمعة سيد يوسف	ديفيد أ. وولف	٧٨٤-	الإساءة للطفل
سمير حنا صادق	كارل ساجان	٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان
سحر توفيق	مارجريت أتوود	٧٨٦-	المذبذبة (رواية)
إيناس صادق	جوزيه بوفيه	٧٨٧-	العودة من فلسطين
خالد أبو اليزيد البلتاجى	ميروسلاف فرنر	٧٨٨-	سر الأهرامات
منى الدرويش	هاجين	٧٨٩-	الانتظار (رواية)
جيهان العيسوى	مونيك بونتو	٧٩٠-	الفرانكفونية العربية
ماهر جويجاتى	محمد الشيمى	٧٩١-	المطور ومعامل المطور في مصر القديمة
منى إبراهيم	منى ميخائيل	٧٩٢-	براسات حول التصنيع الصغيرة لإبريس ومطوق
رحف وصفى	جون جريفيس	٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل
شعبان مكاوى	هوارد زن	٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢)
على عبد الرحمن اليمبى	نخبة	٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسباني (ج١)
حمزة المزينى	نعوم تشومسكى	٧٩٦-	الناق جديدة في دراسة اللغة والذهن
طلعت شاهين	نخبة	٧٩٧-	الرؤية في ليلة معتمدة (شعر)
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	٧٩٨-	الإرشاد النفسى للأطفال

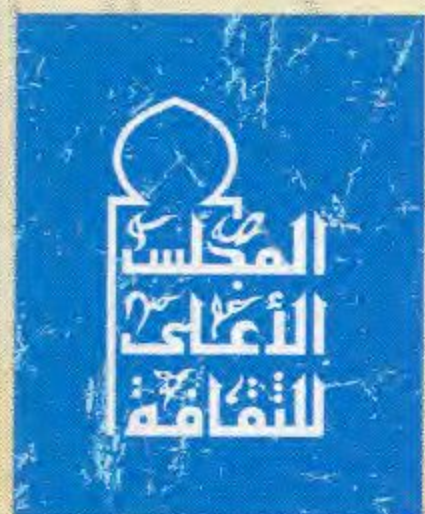
٧٩٩-	سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٨٠٠-	قضايا في علم اللغة التطبيقي	ميشيل مكارثي	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	تقرير دولي	ياشراق: محسن يوسف
٨٠٢-	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعي
٨٠٣-	التغير والتنمية في القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسي
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرفيه-ليجيه وچان بول ويلام	درويش الحلوجي
٨٠٥-	من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربري
٨٠٦-	الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحي حقي: تشريع مفكر مصري	ميريام كوك	خيرى نومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديفيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	ليو شتراوس وجوزيف كرويسى	محمود سيد أحمد
٨١٠-	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	ليو شتراوس وجوزيف كرويسى	محمود سيد أحمد
٨١١-	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج٢)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمي
٨١٢-	تأمل العالم: الصورة والأسلوب في الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولي	فريد الزاهي
٨١٣-	لم أخرج من ليلى (رواية)	أنى إرنو	نورا أمين
٨١٤-	الحياة اليومية في مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبي
٨١٥-	فلسفة المتكلمين (مج٢)	ه. أ. والفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦-	العدو الأمريكى	فيليب روجيه	بدر الدين عروكي
٨١٧-	مائدة أفلاطون: كلام في الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨-	الحرفيون والتجار في القرن ١٨ (ج١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وياتسى جمال الدين
٨١٩-	الحرفيون والتجار في القرن ١٨ (ج٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وياتسى جمال الدين
٨٢٠-	ميراث الترجمة: هملت (مسرحية)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١-	هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢-	فن الرياى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣-	وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤-	لغة الدراما	دافيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥-	ميراث الترجمة: عصر النهضة في إيطاليا (ج١)	ياكوب يوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦-	ميراث الترجمة: عصر النهضة في إيطاليا (ج٢)	ياكوب يوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧-	أهل مطروح: البورالسقلائن والذين يقدسون المملات	دونالد پ. كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨-	ميراث الترجمة: النظرية النسبية	ألبرت أينشتاين	رمسيس شحاتة
٨٢٩-	مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠-	رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١-	ميراث الترجمة: تطور علم الطبيعة	ألبرت أينشتاين وليو بولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢-	تاريخ التحليل الاقتصادي (ج٢)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمي
٨٣٣-	الفلسفة الألمانية	فرنز شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤-	كنز الشعر	نبيج الله صفا	محمد علاء الدين منصور
٨٣٥-	تشخوف: حياة في صور	بيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦-	بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى

٨٢٧-	عناكب فى المصيدة	ناتاليا فيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٢٨-	فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	ابنى صبرى
٨٢٩-	أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين فان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠-	الخواتم الثلاثة	جوتفولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١-	هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢-	منظومة مصيبت نامه (مج ٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣-	من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤-	دراسات فى الفقر والعولة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥-	غياب السلام	نيكولاس جويات	ملعت الشايب
٨٤٦-	الطبيعة البشرية	الفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧-	الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨-	ميراث الترجمة: تاريخ الدولة العربية	يوليوس فلهوزن	عبد الهادى أبو ريده
٨٤٩-	سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠-	الخيال، الأسلوب، الحداثه	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١-	ميراث الترجمة: الطب التجريبي	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢-	العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣-	العبارة فى الانجليزية: عبارة المدن والحسين (مج ١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منولى
٨٥٤-	العبارة فى الانجليزية: عبارة المدن والحسين (مج ٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منولى
٨٥٥-	فهم الاستعارة فى الأدب	جيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦-	القضية المريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانتسكو ماركيت يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧-	نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨-	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩-	السياسة فى الشرق القديم	إيف شيميل	مصطفى ماهر
٨٦٠-	مصر وأوروبا	القاضى فان يملن	لطيفة سالم
٨٦١-	الإسلام والمسلمون فى أمريكا	جين سميث	محمد الخولى
٨٦٢-	بيبغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣-	لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤-	أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥-	فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦-	رسائل خمس فى الاتفاق والآنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧-	المهمة الاستوائية	ديفيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨-	الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩-	تطور الثقافة	روين دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠-	عشر مسرحيات (ج ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١-	عشر مسرحيات (ج ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢-	كتاب الطار	لاوتسو	محسن فرجاني
٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد

ظهور أحمد	٨٧٥- النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال
أمانى المنياوى	٨٧٦- دراسات فى الموسيقى الشرقية (ج١)	هنرى جورج فارمر
صلاح محجوب	٨٧٧- أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتينثيدر
صبرى محمد حسن	٨٧٨- توّحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١)	تشارلز دوتى
صبرى محمد حسن	٨٧٩- توّحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج٢)	تشارلز دوتى
عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه	٨٨٠- الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٣٩٢ / ٢٠٠٥



هذا الكتاب رحلة فريدة قام بها أحمد محمد حسنين بك (١٨٨٩ - ١٩٤٧)، الذي درس وتخرج في أوكسفورد، وتدرج في مناصب القصر بعد ذلك ليصبح الأمين الأول للديوان الملكي في عهد الملك فاروق وأحد رموز الدولة خلال فترة حكمه. وكان في صباه شغوفاً بالسفر والترحال، حتى إنه عرض على الملك فؤاد فكرة عبور الصحراء الغربية للبحث عن واحات مفقودة في وسط الصحراء لا يعرف أحد عنها شيئاً، فأعجب الملك بالفكرة، وأمر بأن تتحمل الخزانة المصرية كل نفقاتها. وفي عام ١٩٢٣ بدأ رحلته من "السلوم" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، واتجه صوب الجنوب فوق ظهور الإبل إلى أن وصل في النهاية إلى مدينة "الأبيض" في "السودان"، واستغرقت رحلته سبعة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، قطع خلالها مسافة ٢.٢٠٠ ميل تقريباً، ونجح خلالها في اكتشاف واحتين مفقودتين لم يصل إليهما أي رحالة قبل، كما نجح أيضاً في رسم خريطة المنطقة الممتدة على طول رحلته، والتي هناك أيضاً أية معلومات عنها من قبل منحه الجمعية الجغرافية الملكية البري نوط الرواد عن هذا الإنجاز، كما وجه العديد من الجمعيات الجغرافية في دول مختلفة دعوات لإلقاء محاضرات عن وما صادفه فيها، وما عثر عليه، وما خلالها، وقد ذكر كل هذا بالإضافة إلى أخرى عديدة في هذا الكتاب.



Bibliotheca Alexandrina



0702319